

على طريق الهجرة

دراسة علمية

تأليف

حسن فتح الباب

السنة الثانية — الكتاب السادس والعشرون

ذى الحجة سنة ١٣٩٠ مارس سنة ١٩٧١

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين إمام المجاهدين، وقدوة المتقين والصابرين سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم

وبعـــــــد

فإن هجرة المختار صلوات الله وسلامه عليه ما تزال حديث الدنيا منذ وقعت إلى يومنا الحاضر، وعلى مر الدهور وكر العصور ستبقى الدليل الناطق والبرهان الساطع على عبقرية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحسن تدبيره وإحكام أموره، وأنه — وهو الأمي — كان يضع من الخطط والتنظيمات ما يكفل لدعوته النصر والبقاء والخلود.

ولقد ظهرت في الهجرة كتب ومؤلفات كثيرة لمؤلفين مسلمين وغير مسلمين، منصفين وغير منصفين. وقد عالجت هذه الكتب وتلك المؤلفات جوانب شتى من حياة الرسول وجهاده. لكن الجوانب التي جدت في دنيا الناس موازينها وخضعت لمصطلحات جديدة لم تنل من عناية الباحثين ما ينبغي لها.

والكتاب الذى نقدمه لقراء التراث الإسلامى الحضارى بحث جديد فى نوعه ومادته ، يضع بين يدى القارىء المسلم الأنموذج الحى المدعم بالبراهين والأدلة لتلك العقلية الماهرة المدبرة التى تحسن التخطيط والتقسيم، وتتقن التنظيم وترتيب الوظائف واختيار القادة والأكفاء من الرجال .

وهو بحث يكاد يكون فريداً ممتازاً ومرد ذلك إلى أمرين :

أولهما أن الموضوع — ككل — لم يتناوله فى صورة مستوعبة كاملة كتاب آخر وكل ماظهر فى المكتبة العربية إنما هو بحوث متفرقة وشذرات فى كتب شتى .

وثانيهما دراية المؤلف بفنون التخطيط والادارة والتنظيم، وخبرته فى هذا المجال بالاضافة إلى صادق إيمانه وثبات يقينه .

كل ذلك جلا الكثير من المواقف، وكشف بحسن تأتيه وإدراكه لكثير من الجوانب التى التقت فى قمتها فى النظام المحمدى والإعداد النبوى لحادث الهجرة الجليل .

وليس الأستاذ المؤلف غريباً على القراء فهو كاتب إسلامي جدير بالتقدير والقراءة .

نسأل الله أن ينفع الناس بما نقدمه لهم ، إنه على كل شيء قدير وهو الهادي إلى سواء السبيل .

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا يسع الباحث المنصف حين يتناول بالدراسة والتحليل موضوع الهجرة النبوية ، تلك المسيرة الخالدة فى تاريخ الإسلام بصفة خاصة والتاريخ الإنسانى بصفة عامة ، إلا أن ينعطف فى إعزاز وتقدير إلى هذه الأعمال الثقافية القيمة التى فاضت بها قرائح — المفكرين والمشرّعين والأدباء الذين استلهموا الهجرة أروع المثل والقيم ، ونسجوا فى ضوئها أقوم الشرائع ، وتمثّلوا فى صاحبها عليه الصلاة والسلام أعظم مِنَح الخالق القدير وأجل نعمه على الإنسان فكراً وسلوكا وعملا .

ولقد اختطّ هؤلاء المفكرون والكتاب كل منهم منهجاً وأسلوباً فى البحث يمتاز به عن غيره ممن كتبوا فى السيرة ، وكان مرد ذلك إلى اختلافهم فى طرائق التفكير والبحث والتعبير تبعاً لتباين مواطنهم وتنشئتهم وثقافاتهم ومستوياتهم فى الفهم والإبداع ، كما يُرَدّ ذلك فى المقام الأول إلى اتجاهاتهم الدينية المذهبية ونزعاتهم

الإنسانية ، ومدى صدقهم مع أنفسهم ومع الحقائق .

ومما يجدر بالتنويه فى هذا الصدد تلك الجهود المضنية التى بذلها كُتَّاب السِّيَر القُدَامَى من رُواة المسلمين ومؤرخيهم وعلمائهم فى الصدر الأول من الإسلام ، فى سبيل تسجيل أحداث الهجرة وملابساتها والمواقف التى التزم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبْل الهجرة وأثناءها وبعدها ، والمخاطر التى خاضها لتوطيد دين الله الحق ودعم رسالته الخالدة والتمكين للمجتمع الإسلامى الأمثل ، وصعوداً إلى الغد ، فى ظل كتابه الحكيم ، وسنة ورسوله الكريم (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

ذلك أن هؤلاء المؤرخين من أمثال ابن هشام فيما كتبه عن السيرة ، والواقدى فى المغازى ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى ، قد صَنَّفُوا أعمالهم تلك فى ظروف بالغة العَنَت ، بالنظر إلى الوسائل البدائية التى لم يكن لديهم غيرها ، سواء فيما يتعلق بالانتقال لتحقيق الأخبار أو بالإتصال للاستيثاق مما بلغهم منها ، أو بالوسائل العلمية التى تيسر البحث والدراسة من مراجع وإحصاءات وغيرها من مصادر المعلومات ومن رصيد خبرات السابقين المسجلة وأساليب ومناهج علمية ، أو فيما يتعلق بالاحتياجات البشرية من مورد رزق

ميسور وأدوات للراحة والرفاهية وغير ذلك مما نعرفه فى العصر الحديث .

فلا جَرَمَ ألا نُطالب الكُتّاب المسلمين الأوائل بمثل ما نطالب كتّاب العصر من التزام للمنهج العلمى فيما يعرضون له من موضوعات السيرة النبوية . فيكفيهم فخراً أنهم قدّموا إلينا مادة ثمينة للبحث العلمى ، وأننا لم نكن لننظر إلى الهجرة بمنظار علوم العصر لولا تدوينهم لوقائعها وتاريخهم لأحداثها وتَحَرِّى الكثرة الغالبة منهم الدقة فيما ينقلون ويسجلون . وغاية ما نطالب أنفسنا به أن نستكمل البناء الذى وضعوا قواعده الأولى، ونُعَمِّق المناحى التى أشاروا إليها فيه ، ونجمل من سُمُوِّه وحَفْله بأكرم المبادىء منارا للإنسان فى كل زمان وأوان .

ولاسبيل لنا ـ نحن الحريصين على استيحاء الهجرة معانيها الجليلة وبيانها للناس ـ للوفاء للرّوّاد السابقين بالفضل ، إلا أن نوسّع من قاعدة العارفين بالهجرة ـ الواعين لمغزاها . ولا يتأتّى ذلك بغير مخاطبة الإنسان فى القرن العشرين بلغته ، لغة الفكر الإنسانى والعلم الحديث . فلتكن النظرة العلميــــة إلى الهجرة النبوية هى طريقنا ـ إلى تعميق مدلولاتها والوصول بها إلى أكبر عدد ممكن

من الناس فى كل موطن ومهما اختلفت الألسنة والمدارك والنوازع .

ومن الحق أن هذا الاتجاه فى الكتابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم من الرسالة قد ظهر لأول مرة فى الثلث الأول من هذا القرن اتساقا مع التطور الحضارى فى العصور الحديثة . فتعددت - مؤلفات العلماء المسلمين والأجانب القائمة على مناهج البحث العلمى ، وتناول السيرة النبوية فى ضوء الدراسات الإنسانية التى نضجت وتبلورت فى عالم اليوم وبخاصة ما يصل منها بالجانب الإدارى .

ففى كتاب «حياة محمد» للمؤرخ الاسلامى الخالد الذكر الدكتور محمد حسين هيكل يصف الكاتب حدث الهجرة الأعظم بأنه قصة من أروع ماعرف تاريخ المغامرة فى سبيل الحق والعقيدة والإيمان، ويتناول هذه القصة بقلم باحث متعمق فى علم التاريخ ، تاريخ الأمم وبخاصة التاريخ العربى الإسلامى ، وهو إذ يحلل دوافع الهجرة ومقوماتها ووقائعها وأحداثها ، يؤثر المنهج التاريخى فى تسلسله متحريا الدقة والموضوعية فى الرواية، وإلقاء الضوء على القيم والمبادىء المثالية التى تحفل بها سيرة المهاجر العظيم ، مع التركيز على المبادىء الدستورية وحقوق الإنسان كما استقرت فى العصر الحديث ، عاقدا الموازنة بين النظم الإسلامية والنظم الغربية بمعيار هـــذه المبادىء

والحقوق مما يرجع إلى تخصيص الكاتب فى القانون الوضعى وممارسته للسياسة والحكم، كما أننا نلمس اهتمامه ـ فى كتابه المشار إليه ـ بالجانب الأنثروبولوجى « علم الأجناس » والعلاقة التاريخية بين الإنسان والأرض والتاريخ الإجتماعى للأجناس، وذلك فى سياق تناوله لتاريخ العرب والجزيرة العربية قبل الإسلام .

وفى كتاب «عبقرية محمد» للكاتب الإسلامى الكبير المرحوم عباس محمود العقاد ، ينحو المؤلف مَنْحىً آخر إذ يدرس السيرة النبوية من خلال منهج التحليل النفسى الذى عُرف به وبَرَع فى تطبيق نظرياته على الأبطال الذين يكتب تاريخ حياتهم ، فيبين جوانب التفرد العقلى والكمال النفسى فى شخصية الرسول العظيم داعياً ، وقائداً عسكرياً ، وسياسياً ، وخطيباً ومتحدثاً ، وصديقاً ، ورئيساً ، وزوجاً ، وأباً ، وسيداً ، وعابداً.

وفى كتاب « محمد المثل الكامل » للمرحوم محمد أحمد جاد المولى استعرض الكاتب الفضائل والمناقب التى وَهَبها الله نبيه لجعله على خلق عظيم ، وذلك من خلال علم الأخلاق والتربية ، فبيَّن كيف توافرت فى شخصيته تلك السجايا على أكمل صورة أبدعها الله .

أما أستاذنا الدكتور طه حسين فهو إذ يتناول حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام فى كتابه « على هامش السيرة » يقدم بحوثاً تجمع بين التاريخ المحقق والتحليل الاجتماعى الحديث والأدب القصصى المشرق ، فيرصد الأحداث بمنظار العالم، ويرسمها بريشة الأديب الصناع حتى يعيد تصويرها للقارىء كأنها واقع يعايشه العقل والقلب .

ومن المؤلفات القيمة فى السيرة النبوية ما كتبه الكتاب الهنود المسلمون بما يعبر عن نظرتهم الفلسفية الروحية وهواهم الشيعى المعروف .

ولاشك أن هؤلاء المؤلفين، وفى مقدمتهم مولاى محمد على الهندى فى كتابه « محمد عليه الصلاة والسلام » قد أضافوا إلى تاريخ النبى صفحات جديدة ذات قيمة علمية كبيرة .

وفى الكتب المعنونة « بالإنسانيات » للأستاذ خالد محمد خالد نراه يعنى باللمحات الذهنية والإجتماعية واللمسات الإنسانية من خلال عرضه لسيرة رسول الله والرجال الذين من حوله ، وموقع هذه القمة السامقة من الضمير الإنسانى والكرامة البشرية والإيمان الحق ،مضيفا بذلك شعاعات جديدة من نور الوعى بالدعوة والداعى .

وإلى جانب أولئك وهؤلاء من الكتاب المسلمين، نجد كثيراً من

المستشرقين يتناولون السيرة فى بعض كتبهم من خلال رؤيتهم الخاصة التى شكلتها مجتمعاتهم وعقائدهم وأساليب تفكيرهم . ونلاحظ بعض الأخطاء التى وقعوا فيها عن عمد أو جهل ، تبعاً لاتجاه المؤلف وموقفه من الإسلام عقيدة وحضارة . ومن أشهر هؤلاء ، المستشرق الأمريكى واشنجتن ارفنج ، والكاتب الانجليزى بودلى ، والكاتب المستشرق نولدكه ، والمستشرق المعاصر جب ، والفيلسوف الأديب الألمانى جيته ، وتوماس كارليل فى كتابه عن البطولة والأبطال حيث عقد فصلا إضافياً عن شخصية محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا نجد كل مؤلف ممن تناولوا سيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام يعرضها من الزوايا التى تحقق هدفه ، وتتفق مع اتجاهه النفسى والعلمى ومن ثم يمتاز كل منهم بمنهج خاص . فقد يكون هذا المنهج أو التفسير تاريخياً ، أو نفسياً ، وقد يكون اجتماعياً أو تربوياً ، أو يكون غير هذا وذاك من طرائق الدراسة والمدارس العلمية . وغنى عن الذكر أن الجوانب الوضيئة فى السيرة النبوية بوجه عام وفى الهجرة بوجه خاص أكبر من أن يستوعبها مؤلف واحد أو مجموعة من المؤلفين . ولا شك أن الدراسات القيمة فى هذا المجال يكمل بعضها الآخر ولا ينقضه .

وسوف نبحث فى كتابنا هذا وقائع الهجرة فى ضوء علم الإدارة

العامة ومشتقاته من تخطيط وتنظيم وقيادة إدارية وعلاقات إنسانية وفقاً للمفاهيم الحديثة . ولانزعم أننا ننفرد باتهاج هـذا المنحى فى دراستنا تلك ، فلقد انتحاه قبلنا بعض الباحثين والمفكرين ، ونخص بالذكر منهم المرحوم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، والأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل . بيد أننا سوف نستكمل ما أورداه ونسهب فيما أوجزاه ، ونضيف إليه ما تعنيه المصطلحات المشار إليها وفقاً لأحدث التعاريف والتحاليل التى جاء بها المؤلفون المعاصرون فى الشرق والغرب ، مستهدفين من ذلك التدليل على أن وقائع الهجرة تتفق فى مجراها ومغزاها مع تلك المضامين والمفاهيم ، وتقديم صورة حياة للمهاجر العظيم وصحبه تساير الأحداث كما جرت فى الواقع ، وتطالع القارىء بلغة العصر .

وتتبين الحاجة إلى هذا الإسهاب إذا لوحظ أنه لم يصدر كتاب مستقل يتناول الهجرة فى ضوء علم الإدارة وفروعه ، وإنما نشرت بعض الكتابات الحديثة التى تتناول السيرة النبوية عامة وفقا لهذا المنهج العلمى دون ما تخصيص للهجرة ومن ذلك أن الحديث عن الجانب الإدارى فى شخصية النبى عليه الصلاة والسلام — كما ورد فى كتاب العقاد « عبقرية محمد » لم يتجاوز بضع صفحات ، ولم يتناول

جانب التخطيط والتنظيم بمعناها المستحدث . وإنما عنى فى المقام الأول بإدارة الحكم من حيث هى أوامر ونواه يمليها الحاكم أو الرئيس وإن كان قد أشار إلى شخصية محمد الإدارى فى ثنايا الفصول الأخرى مثل فصل « محمد الرئيس ».

على أن الجانب الذى ندر أن تناوله الباحثون أو تناولوه فى عجالة لاتغنى هو القيادة الادارية ، بالنظر إلى أنها أحدث العلوم الاجتماعية جميعاً، وإلى أن القيادة العسكرية هى التى تحظى بأكبر قدر من العناية ومن ثم كان اهتمامنا بذلك النوع الحديث من القيادة وتركيزنا عليه فى دراستنا للهجرة ولقد بدأ هذا الاهتمام فى مطالع الستينات حيث كتبنا بحثاً بمجلة الأزهر فى القيادة الادارية فى الاسلام .

لذلك،فإن الإطار العام لهذا البحث هو بذاته الذى يضم المؤلفات المشار إليها من حيث استناده إلى الأسس العلمية، ومخاطبته للانسان المفكر أينما كان وأياً كانت عقيدته. أما الصورة التى يضمها هذا الاطار المشترك ، فإنها تختلف فى التفاصيل بين دراسة وأخرى . ولقد حدا بنا إلى التوسع فى دراسة هذه الملامح فى قالب عصرى تلك الأهمية البالغة لعلم الإدارة فى الوقت الراهن ، وخاصة فيما يتعلق منه بالقيادة الإدارية وقيامها على دعامتى التخطيط والتنظيم .

فالمرحلة التي يجتازها العالم المتحضر الآن هي مرحلة التفكير والتخطيط والتنظيم، وهي تحتاج من الأمة الإسلامية. بعد الإيمان العميق بأهدافها والاستعداد الكامل للبذل ، إلى المنهج العلمي في البحث والدراسة. فالقوة مهما بلغ حجمها تصبح قوة ضالة إذا لم يكن موجهها والمنظم لها التفكير المنظم والتخطيط الدقيق. ولعل أي عمل مهما بلغت قوة اندفاعه لا يصل إلى مبتغاه إلا إذا قام على ركيزة من الفكر، وبعده تستطيع القوة أن تنجز وعدها ويستطيع العمل أن يصل إلى مداه .

والهجرة حدث تاريخي من أعظم الأحداث التي شهدتها الانسانية ونموذج حي متجدد على مر العصور ، قادر على الالهام بأعظم الأعمال مقدم أروع القيم والمثل وأحكم التدابير التي تكفل نجاح من يلتزمها . وهي ـ بمقاس العصر — عمل يطول خارق أساسه التخطيط المحكم والتنظيم السديد ، تخطيط قام به النبي المظيم ، وتنظيم وضعه بوحي من الله تعالى ، فنجحت الخطة وبلغ الرسول مأمنه ، نخاب ظن الكافرين وصدق الله العظيم : (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

وفي ضوء ما تقدم ، فقد كان من الضروري أن نخصص الفصل الأول من هذا الكتاب للحديث عن الأصول الفكرية والعلمية في الإسلام ، قاصدين من ذلك إقامة البرهان على أن دراسة الهجرة من

وجهة نظر علم الإدارة الحديث ليست بدعة من البدع ، بل إنها تنبثق من طبيعة الاسلام ديناً ودولة . لذلك فقد تكلمنا فى هذا الفصل عن البراهين العقلية والنقلية على أصالة التفكير فى العقيدة الاسلامية ، معتمدين فى الشواهد القرآنية على ماورد بكتاب « التفكير فريضة إسلامية » للأستاذ عباس العقاد ، وفصلنا القول فى قيام العلم أساساً للدعوة إلى الإيمان ، وفى فضل العلم وكرامة العلماء ، وفى شمول العلوم الاسلامية للدين والدنيا ، ومن ذلك اتساعها للمعرفة فى جميع المجالات التى يرسخ بها الدين ويتقدم المجتمع .

وخلصنا من ذلك إلى أن التخطيط هو خلاصة التفكير والتدبير وأنه عماد المعرفة الصحيحة وأسلوب العلم الحق . ومن ثم كان منهاجاً للأنبياء والمرسلين والمصلحين . وقد أقمنا الدليل على ذلك من التدابير الاقتصادية التى اتبعها يوسف عليه السلام فى مصر للقضاء على شبح الفاقة والمجاعة . وأوردنا الآيات القرآنية التى نزلت فى سورة يوسف مبينة معالم الخطة الاقتصادية التى وضعها التى تعد نموذجا لالتزام الأنبياء والمرسلين بمبادىء التخطيط فى مباشرة الحكم وإدارة شئون مجتمعاتهم ودعوة للنبى وأصحابه كى يحذوا حذوهم .

وعلى هدى هذه الدعوة الإلهية اتبع محمد قائد الأمة الاسلامية ،

ومؤسس دولتها الأولى فى دار الهجرة منهج التخطيط فى مسيراته نشراً لدين الله وتمكيناً له فى العقول والقلوب ، واتخذه أسلوباً فى السلم وفى الحرب . وجعل منه تراثاً ماهماً للمسلمين من بعده . ومن ثم اختتمنا هذا الفصل بالتدليل على أن التخطيط كان أساساً للنهضة الإسلامية ، سواء فى المجال العلمى النظرى أو فى المجال العلمى التطبيقى ، وأنه تكليف للكافة بحكم القرآن، كما أوردنا حديثاً نبوياً يؤيد هذه الحقيقة.

وكان طبيعياً بعد ذلك أن نمهد للفصل الثانى الخاص بالتخطيط للهجرة بالتعريف باصطلاح التخطيط وأبعاده ، فى العصر الحديث . فبدأنا بتحديد معناه العام ومنشئه ، وذكر بعض تعريفاته لدى الباحثين المتخصصين ،وبيان أوجه استخدامه والافادة منه ، وإيضاح قواعده وإجراءاته ، وخصائص الخطط الفعالة والضمانات التى تكفل نجاحها . وانتهينا من هذا المبحث النظرى الموجز إلى دراسة تطبيقية فى التخطيط النبوى لوقائع الهجرة مذ كانت فكرة أوصى الله بها إلى رسوله حتى عدت حقيقة أحدثت تغييراً جذرياً شاملا فى تاريخ الانسان على أرض الجزيرة العربية وما حولها بل فى كل ركن من هذا العالم المترامى . فتناولنا أولا دراسة الهدف من خطة الهجرة ودوافعها وأسباب اختيار يثرب مقصد النبى وصحبه . وبحثنا — ثانيا — فى التدابير التى اتخذها عليه الصلاة والسلام تمهيدا لهجرته وهى التحالف

مع أهل المدينة فى بيعات العقبة الثلاث ، إذ كانت هذه المعاهدات بمثابة الأعمال التحضيرية للهجرة ، ثم قدوم المهاجرين من مكة إلى المدينة أفراداً وجماعات .

وعالجنا بعد ذلك كيفية الإعداد للهجرة والخطة المضادة التى وضعها رسول الله لإحباط خطط المشركين . كما بينا أسلوب العمل وهو الحرص والكتمان ، والطريق الذى اختاره مسلكاً له .

واتفاق هذا الأسلوب مع القواعد العلمية للتخطيط حسبما أوردناها .

أما فى الفصل الثالث الخاص بالتنظيم فى الهجرة فقد نسجنا على نفس المنوال الخاص بالتخطيط بحسبانهما أشبه بوجهين لعملة واحدة، فذكرنا تعريف التنظيم وأهميته والمبادىء التى تحكمه وضمانات نجاحه ولما كان تقسيم العمل من أهم قواعد التنظيم فقد عنينا بإثبات مطابقة الأسلوب الذى اتبعه رسول الله فى تحديد مهمة كل من تعاون معه ، لقاعدة تقسيم العمل التى تقوم على وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب أو - بعبارة أخرى - التناسب بين الرجل والوظيفة .

فشرحنا الأسباب التى اقتضت اختيار كل من هؤلاء الأبطال لأداء مهمة معينة بذاتها وأثبتنا أنه لم يكن من الميسور وضع هذا

بديلا لذلك ، وإنما وضع كل فى موضعه بتقدير دقيق مما يتفق من ناحية أخرى مع نظرية القيادة الموقفية ومبدأ التعاون اللذين أشرنا إليهما فى الفصل الأخير .

ومن ثم تحدثنا عن السمات النفسية والقدرات الذهنية والتكوين الخلقى لكل من أبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن أرقط و أسماء وعائشة ابنتى أبى بكر وعامر بن فهيرة .

وقد خصصنا الفصل الرابع لبحث الخطة والتنظيم اللذين وضعهما رسول الله فى دار الهجرة ، فبينا كيف نبعث هذه الخطة من واقع الظروف الجديدة ، وحتمية أسلوب المجابهة ، ووسيلة تحقيق الهدف وهى قوة الإيمان والوحدة ـ وأفضنا فى الحديث عن تنظيم مجتمع المدينة ، واحتياجاته الأساسية ، وباكورة تدابير الوحدة ، وكيف أنجزت الخطة .

وخصصنا فى الفصل الخامس وهو آخر فصول الكتاب لبحث القيادة الإدارية للرسول الكريم فى دار الهجرة . ومهدنا لذلك بتعريف علم الإدارة العامة وهو أحدث العلوم الإنسانية وبيان أهميته القصوى فى عالم اليوم القائم على الجهود الجماعية ، وتكلمنا عن عناصره

وارتباط بعضها ببعض ، وتوافر القيـــادة الإدارية فيمن تتـكامل في شخصيته تلك العناصر . وأشرنا إلى أهم تعريفات القيادة ونظرياتها وأنماطها .

وانتقلنا من ذلك إلى شرح أهم مقومات القيادة الإدارية كما تبدو من خلالها سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام في دار الهجرة فعالجنا هذه المقومات في عدة مباحث هي الإنتماء إلى الجماعة وقوة الإيمان أو الحافز الثوري والقدوة في الالتزام بالدعوة والصبر والمقاومة في مواجهة التحديات .

وكان منهجنا في إثبات أهمية تلك الخصائص أو المقومات في القائد وتوافرها في شخصية رسول الله الاستناد إلى القرآن والسنة والتاريخ . ومن ثم جمعنا بين النظرية والتطبيق فيما تعرضنا له من موضوعات .

وأخيراً ، فتلك محاولة لتعميق الوعي بالارتباط العضوي بين الدين والعلم والحياة كما يتضح بجلاء في الهجرة النبوية وبالله التوفيق ؟

حسن فتح الباب

الفصل الأول

الأصول الفكرية والعلمية في الإسلام

تشهد حركة التاريخ وما سجلت صفحاته من وقائع وأحداث أن دعوة الإسلام التى بَشَّر بها محمد عليه الصلاة والسلام فى مطلع القرن السابع الميلادى ، سنة ٦١٠ م ، كانت ثورة اجتماعية شاملة بأجلى معانيها ، قصد بها المشرع الحكيم أن يربط الأرض برسالة السماء من طريق صلاح النفس وصلاح المجتمع . فلا غرو أن تقترن الدعوة منذ بدايتها بالنهضة العلمية والثقافية ، وأن تكون هذه النهضة إحدى السبل الجوهرية لتحطيم الطغيان ، وإقامة العدل ، وإتاحة فرص الحياة للمحرومين ، وإرساء مبادىء الحق والمساواة بين العالمين . ذلك أن نشر العلوم وألوان الثقافة الصحيحة والمعرفة الشاملة هو الدعامة القوية التى يستند إليها الإيمان الحق بالإسلام . وهو السلاح الذى يفل أباطيل المضلّين ، ويكشف المرجفين ، ويمهد السبيل لخلق واقع حديد للمجتمع يسير فى هُداه حتى يبلغ غايته السامية فى توحيد أفراده وضمان الخير والعزة لهم .

لقد وَعَتْ رسالة الإسلام الدور الضخم الذى يؤديه العلم فى بناء الفرد وهو وَحْده الأسرة أو الجماعة التى تُشَكِّل خلية المجتمع ، وأدركت ما يفتحه العلم من آفاق رحيبة نحو مستقبل كريم للإنسان وما يُفَجِّره من طاقات خلاقة فى الأفراد والجماعات . ففتحت المغالق والسدود التى كانت تقف حائلا فى سبيل العلم ، ومهّدت له الطريق ليتسلل إلى كل عقل كى يتهيأ لاستقبال الدعوة الإسلامية والإيمان بها ، فإذا تمت له نعمة الهداية أصبح عضوا نافعاً فى مجتمعه ، واستطاع أن يشارك فى العمل الجماعىّ لتطوير هذا المجتمع الذى يسعى بدوره إلى تطوير المجتمعات الأخرى ، لأنه يؤمن أن العالم وَحْدة واحدة ، وأن رسالة الإسلام رسالة إنسانية شاملة .

تلك هى المقاصد الرئيسية التى توخّاها الإسلام ، ديناً ودولة ، فى ثورته الثقافية . فالعلم الحق هو الطريق القويم إلى معرفة الله والإيمان به ، وهو سبيل الدولة حكومةً وشعبا إلى الرفعة والتقدم والرخاء ، وهو أمل البشرية كافةً فى تحررها وتطوّرها ووَحْدتها .

ومن ثم كان العلم — وهو أكبر روافد الثقافة — حَجَر الزاوية فى الدعوة الإسلامية ، ولا عجب أن يبدأ الإسلام بالدعوة إلى العلم ، إذا كانت الرسالة التى بُعث بها محمد رسالة عقيدة وحضارة ، جاءت

لتهدم كل مظاهر التخلف والجمود والقيم البالية والمعتقدات الزائفة ، وترس على أنقاضها قيماً صحيحة ومفاهيم رشيدة . وكانت الخطوة الأولى فى سبيل نشر هذه الرسالة هى تحرير الجزيرة العربية وبعثها من ظلمات الضلال والأوهام إلى نور الحقائق الدينية والدنيوية ، إذ كان العرب فى جاهليتهم بمعزل عن التيار الحضارى السائد فى بعض مناطق العالم فى ذلك الحين . بحكم بيئتهم الصحراوية المغلقة ، وإنعدام السبيل إلى موارد الثقافة البعيدة ، فضلا عن طبيعة الحياة الفطرية وما تتّسم به من عدم الاستقرار بحثا عن أسباب العيش .

وفى ذلك يقول الكاتب الكبير المرحوم أحمد أمين فى كتابه فجر الإسلام :

لقـــد تأخر العرب عمن حولهم فى الحضارة ، وغلبت عليهم البداوة ، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحّل ، لايقرون فى مكان ، ولا يتصلون بالأرض التى يسكنونها اتصالا وثيقا كما يفعل الزّرّاع ، بل هم يتربصون مواسم الغيث ، فيخرجون بكل مالهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى ، لا يبذلون جهدا عقليا فى تنظيم بيئتهم الطبيعية ، كما يفعل أهل الحَضَر ، إنما يعتمدون على ماتفعل الأرض والسماء

فإن أمطرت . رعوا ، وإلا ارتقبوا القدر ، وليس هذا النوع من المعيشة بالذى يُرقِّى قومه ويسلمهم إلى الحضارة ، إنما يسلم إلى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل فى تنظيم شئون الحياة » .

ومن ثم كانت البيئة العربية فى الجاهلية مرعى خصباً للأساطير والترهات والأباطيل ، وأتسم أهلها بالجهالة وضيق الأفق وما يترتب عليها من غلظة وجمود وعجز عن الطموح إلى الآفاق الإنسانية الرحبة ، وتطوير الحياة إلى مستوى أفضل ، وإنشاء حضارة تقوم على العلم والثقافة . ولئن أثبت التاريخ أن العرب قبل الإسلام . كانوا على صلات تجارية بدولتى الفرس والروم المتاخمتين للجزيرة العربية مما يؤدى إلى تأثرهم بحضارتيهما ، فمن الثابت كذلك أن حضارة هاتين الدولتين فى ذلك الحين كانت تمر بمرحلة غروب واحتضار ، كما يطلق عليها فى المصطلح الحديث، فكانت لذلك عاجزة عن النهوض العلمى بأهلها بلْهَ بالغرباء من أبناء الشعوب المجاورة .

وهكذا خَيَّمت ضلالات الجهالة على العرب قبل الاسلام . أما ما عُرف عنهم فى عصر الجاهلية من بلاغة القول فى خطبهم ومواعظهم وأشعارهم التى كانوا يرتجلونها فى المواسم والأسواق ، فتلك موهبة فطرية لا ترقى بهم إلى مصاف العلم ، وليس بوسعها

وحدها أن تشكل ثقافة عميقة تنبع منها جداول الفكر والحضارة .

ذلك أن عماد العلم والثقافة هو التدوين . وقد جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لذلك بقوله : « العلم صيد والكتابة قيـــد » .

وكان التدوين قاصراً على قلة من رجال قريش بلغت من الندرة حداً لا يقاس عليه وقد وردت أسماؤهم فى التاريخ على سبيل الحصر ، وهم الخلفاء الراشدون : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب وأربعة عشر رجلا غيرهم . ويقول فى ذلك المؤلف البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان :

« إن الإسلام دخل وفى قريش سبعة عشر رجلا يكتب » .

ويمكن أن نتصور مدى الأمية التى كانت عليها القبائل الأخرى إذا لاحظنا أن قريشاً كانت تمثل مركز الصدارة فى الجزيرة العربية من حيث نفوذها وطاقاتها ومواردها وخاصة مركزها التجارى الممتاز الذى كان يتيح لها الاتصال بالبلاد المجاورة.

العلم أساس الدعوة الى الايمان

جاء الإسلام فكان ثورة على الجهالة ، ودعوة إلى الفكر والعلم

والشواهد على قيام الدعوة الإسلامية على أساس من العلم والثقافة لاتقع تحت حصر ، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن آية الرسول الأولى ومعجزته الخالدة هى القرآن الذى حوى من العلم كل شىء .

« كتاب فصلت آياته » .

وأن أول ما أنزل من الآيات البينات على رسوله الكريم قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .

ومن دراسة القرآن يتبين أن مزية التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف هى — كما يقول كاتب الإسلام العظيم المغفور له الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « التفكير فريضة إسلامية » -- إحدى المزايا الكثيرة الواضحة فى القرآن . فهو لايذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه والحث على تحكيمه ولوم المفكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه . ويتسع مدلول العقل فى القرآن حتى يشمل جميع معانيه ، فهو العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل المفكر الذى يناط به التأمل الصادق والموازنة والحكم الصحيح على المعانى والأشياء

ولا يأتى ذلك العقل فى آيات الله عرضاً مقتضباً ، بل يذكر مقصوداً مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان ، ويتكرر خطاب أولى الألباب فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم ، وكل خطاب إلى اللب هو خطاب إلى العقل بمختلف معانيه فمن تلك المعانى ما يدل على الوعى والإدراك والرشد .

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب » سورة آل عمران .

« الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » سورة الزمر .

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » سورة المائدة .

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » سورة يوسف .

« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب » سورة البقرة .

« ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » سورة البقرة .

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب » سورة الرعد .

ومن معانى العقل الواردة فى كتاب الله مايقصد به الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » سورة البقرة .

« الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض» آل عمران .

«قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون» سورة الأنعام.

«أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » سورة الروم .

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء» سورة الأعراف .

« فلينظر الإنسان مم خلق » سورة الطارق

« من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ». سورة القصص .

« ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا » سورة نوح .

«وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون» سورة الذاريات .

« والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » سورة آل عمران .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » سورة محمد .

« ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » سورة البقرة .

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » سورة النحل .

أما العلم وهو أحد خصائص العقل فقد نزلت الآيات متتابعات بذكر العلم والتعليم والذين لايعلمون .

« ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون » سورة البقرة .

«هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » سورة الجمعة .

« قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت

سعة من المال ، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم» سورة البقرة .

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » سورة يونس .

« قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشـدا » سورة الكهف .

« خلق الإنسان علمه البيان » سورة الرحمن .

« الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » سورة العلق .

« وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب» سورة آل عمران .

ويتبين من هذه الآيات أن العلم من السمات الرئيسية التى يمتاز بها المؤمن ، فلا إيمان بغير علم ، لأن أساس الإيمان الادراك والتدبير والاتعاظ بالذكر والذكرى ، ومن ثم اقترن الإيمان بالعلم فى القرآن. فالذين يتبصرون فى آيات الله فى السموات والأرض هم المؤمنون . والذين يتدبرون فى آيات الله فى أنفسهم هم الموقنون . والصابرون

الشكورون الذين يرون نعم الله ، والذين ينظرون كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئه النشأة الأخرى فيدركون أنه على كل شيء قدير ، أولئك هم العارفون بالله حقاً .

فضل العلم وكرامة العلماء

إن تأمل الآيات التى أوردناها يقدم أصدق دلالة على أن العلم دعامة أساسية فى بناء العقيدة الإسلامية ، وأنه يمثل نقطة انطلاق المسلمين إلى آفاق العالم الفسيحة وأداتهم فى إنشاء حضارة إنسانية خصبة تغنى البشرية وتهديها سواء السبيل . ومن ثم توافر ذكر العلم فى القرآن الكريم تنبيهاً للأذهان وحثاً لها على التفكير . فمن خلال التبصر فى خلق السموات والأرض وإعمال الفكر فى خلق الإنسان وفى أسرار الوجود وما تدل عليه من وجود الله ، يولد الإيمان الحق ويثبت فى النفوس معناه وتزدهر حكمته .

وتحقيقاً لهذه الغاية أشاد الإسلام بالعلم والعلماء ، فنزلت أولى الآيات بالدعوة إلى القراءة وهى الخطوة الأولى فى سبيل اكتساب العلم ، وأقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم وهو أداة العلم : « ن والقلم وما يسطرون » سورة القلم .

كما أقسم بالكتاب وهو بمثابة الوعاء الذى يحتوى العلم ووسيلة إبلاغه إلى الناس . « والطور . وكتاب مسطور . فى رق منشور » سورة الطور .

ووصف ذاته سبحانه فى كثير من الآيات بالعلم دلالة على تعظيم هذه الصفة حتى عدت من الأسماء الحسنى ، وميز العلماء على غيرهم فى قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » سورة الزمر .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » سورة المجادلة « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » سورة العنكبوت .

وتكريماً للعلم وتعظيما للعلماء نزلت الآية الكريمة تقرن التقوى بالعلم « إنما يخشى الله من عباده العلماء » سورة فاطر .

ولقد رفع الله العلماء إلى أسمى مكانة إذ أضاف العلماء إلى ذاته سبحانه وإلى الملائكة فى الشهادة بالوحدانية بقوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » سورة آل عمران .

أما الأحاديث الشريفة فهى تؤكد فضل العلم وتحض على طلبه بمختلف الأساليب المشروعة . ومما جاء فى الحديث قول الرسول عليه

الصلاة والسلام فى استمرار عمل الإنسان العالم الذى ينفع الناس بما أوتى من معرفة بعد موته .

« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وفى سبيل الحث على العلم والمعرفة يفضل الإسلام العالم على العابد المنقطع للعبادة بقوله صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل البدر على الكواكب » وقوله أيضاً « قليل العلم خير من كثير العبادة » وقوله « ساعة عالم متكىء على فرشه ينظر فى علمه خير من عبادة العابد ستين يوماً » وقوله فى حتمية العلم لفهم أحكام القرآن والانتفاع به .

« حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعيادة ألف مريض ، وشهود ألف جنازة ، قيل يارسول الله : ومن قراءة القرآن ؟ فقال عليه السلام : « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم » .

وقوله مقرراً إيثار العالم بحق الشهادة يوم القيامة على حين لا يظفر العابد إلا بدخول الجنة « يبعث الله العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : اشفع كما أحسنت أدبهم » .

وقوله فى أفضلية تعليم كتاب الله على الصلاة .

« يا أبا ذر ، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم يعمل به ، خير لك من أن تصلي ألف ركعة » .

وقوله فى نعمة العلم الذى ينفع صاحبه به الناس .

« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » .

ويقول فى العلاقة الوثيقة بين سلامة الإيمان وسلامة العقل وهو أداة العلم .

« ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى ، وما استقام دينه حتى يستقيم عقله » .

وفى سبيل الحث على العلم والمعرفة أعلى الإسلام من قدر العلماء فجعلهم ورثة أكرم خلق الله وهم الأنبياء ، إذ يقول عليه الصلاة والسلام : « العلماء ورثة الأنبياء » ويعدل المداد الذى يستخدم فى تدوين العلم من حيث قيمته دم الشهيد وهو أغلى دم يبذل فيقول تعالى فى غير القرآن : « يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة » .

ويقول عليه الصلاة والسلام فى سمو منزلة العلماء إلى درجة لم يبلغها

إلا الأنبياء والرسل وهى الصلاة عليهم أى طلب الرحمة لهم : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير » .

بل إن الإسلام يجعل مرتبة العلماء تسبق مرتبة الشهداء ، إذ يقول عليه الصلاة والسلام فيمن يحق لهم الاستشفاع للخلق عند الله يوم البعث:

« يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ـ ثم العلماء ـ ثم الشهداء » ويقول فى فضل العلماء حين يتولون مراكز القيادة وخسارة الأمة بفقدهم « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا فينزعه من صدور العلماء ولكنه يقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا أو أضلوا » ويقول صلى الله عليه وسلم مؤكداً خسارة البشر بفقد العلماء الهداة .

« إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة » . ويقول فى المعنى ذاته :

« لموت قبيلة خير من موت عالم » . ومثلما رفع الله منزلة العالم ، واختصه بأعظم الأجر فى الآخرة جعل للمتعلم كذلك فضلا وثوابا كبيرا وكريما أسوة بالعالم ، فكلاهما عند الله معزز ومكرم وكلاهما

خير من سائر الناس لما اختصهما الله به من فضل التعليم أو التعلم إذ يقول عليه الصلاة والسلام « العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ولا خير فى سائر الناس بعد » .

وفى الأثر عند عبد الله بن مسعود :

«أغد عالماً أو متعلماً ، ولا تغد بين ذلك» وليس ثمة حافز المسلم على السفر والمعاناه فى سبيل تحصيل العلوم والمعارف من قوله صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقا إلى الجنة

وقوله مقررا المساواة بين طلب العلم وبين الجهاد فى سبيل الله وهو أفضل الأعمال :

« من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع » ولقد توالت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة فى الدعوة إلى التماس العلم فى مصادره سبيلا لبلوغ الغايات السامية فى الاسلام . وهى هداية الناس وتحقيق الخير والرفاهية لهم فى ظل العقيدة السمحة . فيقول الله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » والذكر هنا هو العلم كما يستدل من ختام الآية . ويقول سبحانه «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون

ويقول المعلم الأعظم صلى الله عليه وسلم مؤكدا أن طلب العلم جهاد «تعلموا العلم فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكراته تسبيح، والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة» ويقول «لا بارك الله في يوم لا أزداد فيه علماً» ويقول «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» وإنما العلم بالتعلم وجاء في الأثر حثا على طلب العلم في مظانه مهما بعدت المناهل وشقت السبيل «اطلب العلم من المهد إلى اللحد» كما جاء فيه «اطلبوا العلم ولو في الصين» فإذا ذكرنا المدى الشاسع الذي كان يفصل الجزيرة العربية عن الصين واعتماد الاتصال بين الشعوب في ذلك العصر على الوسائل البدائية، وما يعانيه المسافر فضلا عن مخاطر الطريق من فرقة الأهل والأحباب، والبعد عن موارد الرزق ومواطنه، أدركنا قيمة العلم الكبرى في الاسلام ويكفي مصداقا لذلك أن نذكر ما عرضه الرسول على أسرى المشركين في غزوة بدر من اطلاق سراح من يفتدي منهم نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة. فهي الحق أنها أشبه بفدية النفس بالنفس كما تقضي قواعد الفداء التي شرعها الله. فالجهل عدو النفس البشرية وملقيها في ركام العدم. ولكي تبني دولة عليها أن تحرر النفوس من عبودية الجهالة وتضيء بصيرتها بنور المعرفة فتبعثها من الموت إلى الحياة.

ومن آيات الاسلام فى تكريم العلم والعلماء أن جعل من بيوت الله المقدسة مدارس للتعليم دلالة على قدسية العلم وكرامة المشتغلين به من علماء ومتعلمين، ودلالة أيضا على إدراك قيمة العلم فى تثبيت العقيدة والاتصال بالله . ودوره الكبير فى تعميق وعى الفرد والجماعة بشئون الدين والدنيا رفعا لمستوى الانسان وإعلاء لشأن المجتمع فليس أشرف من المسجد مكانا للعلم، ولا أدعى إلى الترغيب فى تحصيل المعرفة من جعله منزلا لها ، كما أن التعليم فى المساجد من شأنه أن يوسع قاعدة المتعلمين إذ يغشى جميع المسلمين بيوت الله لأداء الفريضة وبحث شئون دينهم ودنياهم .

وغنى عن الذكر ما أفاضت به صحف التاريخ من الاشادة بالرسالة العظمى التى اضطلعت بها المساجد فى النهضة العلمية عبر العصور الاسلامية الزاهرة ، إذ كانت مراكز إشعاع العلوم والحضارة العربية ، استفاضت فى العصر الوسيط حين بلغت الدولة الاسلامية أقصى مراحل التطور الحضارى ونمت من أصولها شجرة المدنية الحديثة .

ولا يخفى الدور التاريخى العظيم الذى قام به جامع الأمويين فى دمشق ، وجامع القيروان فى بلاد المغرب العربى ومساجد الأندلس والجامع الأزهر فى القاهرة فى سبيل دعم الدولة الاسلامية بالعلم ذلك

الدعم الذى كان من نتائجه تلك الحضارة التى أظلت العالم أحقاباً طوالا كما كانت المساجد منارا للفكر الثورى القائم على تعاليم الاسلام فى الحرية والاخاء والعدالة .

ففى رحابها تلقى المسلمون دروس الجهاد فى سبيل الله ، وتحت قبابها نشأ المصلحون والعلماء والأبطال والثوار ، وفوق منابرها ارتفعت أصوات الحق والخير ، ومن مآذنها انطلقت دعوة التوحيد فرددت الآفاق (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعم التهليل كل مكان (الله أكبر . . . الله أكبر) وانطلق جند الحق يدافعون عنه ويزلزلون دولة الإفك والشرك والطغيان فى كل زمان . . .

ولم تعرف البشرية فى تاريخها الطويل أديانا أو مذاهب اصلاحية اتخذت من دور العبادة مدارس المكافحين والمدافعين عن الحق والمضحين فى سبيل الله والوطن والعقيدة مثلما جعل الاسلام من بيوت الله موائد للعلم والفكر والتحرر ، ولا غرو فالاسلام دين ودولة وهو عقيدة وثورة ترمى إلى صلاح الفرد وصلاح المجتمع معا ، وهو رسالة هدى للعالم بأسره .

العلوم الاسلامية تتناول الدين والدنيا :

لا يقتصر مفهوم العلم فى الإسلام على الجانب الدينى منه ، بل يشمل جانبه الدنيوى كذلك ، تدل على ذلك طبيعة الدعوة وحقائق العقيدة ، وتاريخها المجيد . ذلك أن الإسلام - كما تقدم - يتميز عن الرسالات السماوية السابقة بأنه دين ودولة ، عقيدة ونظام ، فلارهبانية فيه ، وهو دين العمل والكفاح الإيجابى فى سبيل العيش الكريم ، حتى لقد رفع قيمة العمل ، والعمل نفسه عبادة من شأنها تقويم النفس وإعلاء شأن المجتمع كله ، مما يحقق الغاية العليا لرسالة الإسلام ، ويتفق مع مفاهيمه ومبادئه ومراميه .

وتوثيق العلاقة بين حقيقة الدين من ناحية والكون الكبير الذى نعيش فيه من ناحية أخرى — كيما يثبت الإيمان فى النفس ولكى يستطيع الإنسان أن ينعم بما سخره الله له من أرض وماء وفضاء — لا يتأتى بغير العلم بقوانين الكون وشئون الطبيعة وأحوال البشر ، مما يدخل فى باب المعرفة بمفهومها الشامل غير القاصر على شئون الدين والعبادة . بل إن كسب الدنيا والآخرة ، وهو أمر تقتضيه العقيدة السمحة ، منوط بحسن الاستفادة من آيات الله فى البر والبحر ، وما أكثر هذه الآيات لو أردنا الكشف عنها والعلم

والانتفاع بها ، يقول الله تعالى : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون[1] » .

فمفتاح هذه القوى المشاعة ، وتلك الخيرات المتاحة هو العلم ، العلم الذى يفتق الأذهان ، ويجلو الظلمات ، ويميط اللثام عن وجه الحق فى كل أفق قريب أو بعيد ، فلا يكاد يغيب عن شعاعه النافذ شيء .

والعلم الذى يقبل المسلم عليه ، ويستفتح أبوابه بقوة ، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ليس علماً معيناً محدود البداية والنهاية . فكل ما يوسع منادح النظر ، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى مزيد من العرفان ، وكل ما يوثق صلة الإنسان بالوجود ، ويفتح له آماداً أبعد من الكشف والإدراك ، وكل ما يتيح له التقدم فى العالم ، والتحكم فى قواه ، والإفادة من ذخائره المكنونة ، ذلك كله علم ينبغى التطلع له والتضلع منه ، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه . وهذا الشمول دلت عليه الآيات والسنن ، فهى موجهة إلى أى علم يطلب : تعلم الخير ، والحكمة ، ما يقى عن الضرر ،

(١) الجاثية آية ١٢ ، ١٣ .

ما يقرب من النفع . وتخصيص العلم بلون معين من الثقافة كتخصيص المال بنوع معين من الأملاك لا وجه له . ولا شك أن فى طليعة ما يجب معرفته حق الله على النـــاس ، وحق الناس بعضهم على بعض ، فإن هداية السلوك إلى الصالح العام كبيرة الأثر فى تنظيم الجماعات .

ومن الخطل أن نظن العلم المحمود أن نقتصر على دراسة الفقه والتفسير وماشابه ذلك من العلوم فحسب ، وأما ما وراءها فهو نافلة يؤديها من شاء تطوعاً أو يتركها وليس عليه من حرج . ذلك أن علوم الـكون والحياة ونتائج البحث المتواصل فى ملـكوت السماء والأرض لا تقل خطراً عن علوم الدين المحضة ، بل قد يرتبط بها من النتائج مايجعل معرفتها أولى بالتقديم من الاستبحار فى علوم اللغة ، إن علوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة فى خدمة الدين وتجلية حقائقه . وإذا كان التوسع فى ربوع الشريعة يحتاج إلى مدد فسيحة ، فهذا التوسع وظيفة اجتماعية كسائر الوظائف التى تستكثر منها الدولة أو تستقل ومن المصلحة التى تحقق رسالتها العليا . وليست دراسة الحقوق والقضاء أشرف فى ذاتها من دراسة الطب مثلا ولو بلغ صاحبها مبلغ أبى حنيفة . وإنما يرجح الرجل صاحبه فى علمه بمقدار مايدخر هذا العلم لنفع

الناس ابتغاء رجاء الله ، وانتظار ما لديه من مثوبة .

الادلة القرآنية :

وآية هذا المفهوم الإسلامي للعلم أن القرآن الكريم عند ما نوه بفضل العلم وجلال العلماء ، إنما عنى العلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق ، وعنى العلم الذى ينشأ من النظر فى النبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى . ومن ثم فإن القرآن يحث على دراسة العلوم التى تتناول هذه الموجودات .

قال تعالى :

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » « ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه · كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور) سورة فاطر .

(ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) سورة الروم .

وفى هذه الآية دعوة إلى دراسة علم تاريخ الحياة Biology الذى يتناول تركيب الإنسان فى مختلف الأماكن والأزمان ، فضلا عن العلوم الأخرى التى سبقت الاشارة إليها كعلم الفلك وعلم الطبيعة (الفيزياء) وعلوم النبات والحيوان .

ومن العلوم التى نوه القرآن الكريم بخطرها ، وأشاد بقيمة المهارة فيها : العلوم العسكرية ، وجملة الفنون التى تحتاج إليها الأمة فى الدفاع عن وجودها وحقوقها عملا بقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) سورة الأنفال .

وقد جعل القرآن العناية بهذا اللون من الثقافة وهو العلوم العسكرية آية على صدق الإيمان وحسن الجهاد . قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز » .

وختام الآية بهذين الإسمين الجليلين إشارة إلى أن الله يحب لعباده المؤمنين القوة والعزة ، وأن كل ما يوفر ذلك نظريا وتطبيقيا هو من وسائل التقرب إليه ، ومن دلائل تقواه جل شأنه .

ولقد أثنى الله على عدد من أنبيائه الكرام وعباده الصالحين ، فذكر تفوقهم فى علوم الصناعة ، وجهودهم فى تطويع هذا التفوق لنصرة الحق ودعم جانبه ، فقال جل شأنه يصف داود : « وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد » .

وإلانة الحديد هى المهارة فى إيجاد شتى الآلات منه ، والوصول

بصناعاته إلى حد الاتقان دون إعياء أو قصور ، وذلك لحسن الخبرة وطول الدربة . وقد أمر الله نبيه داود بتقدير السرد ، أى كلفه بإحكام النسج للدروع السوابغ التى ينتجها حتى تخرج فى أعلى مستوى مستطاع . وفى موضع آخر يصف داود بنوعين من العبادة والعلم ، أولهما طول الذكر والتسبيح ، والآخر إجادة العدد الحربية . قال تعالى : « وسخرنا مع داود الجبال يُسَبِّحْن والطير ، وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ؟ » .

وعباد الله الصالحون أثبت القرآن صلاحهم ، وهم يقومون بأعمال رائعة تدل على علم بالحياة ، وخبرة عميقة بشئونها ، فهذا ذو القرنين يقول للذين مدوه بالمكافأة إذا بنى لهم سداً يحميهم من أعدائهم : « قال ما مَكّنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » . [سورة الكهف] .

وهنا يظهر علم الرجل ببناء القلاع ، فيحول منطقة عمله إلى مصانع يصهر فيها النحاس ، وتغلى المواقد ، ويقطع الحديد ، وتمهد الأرض ، وتسوى جوانب الجبل ، ويؤدى الرجال الأتقياء واجبهم لله على هذا النحو الذى يحمى الضعاف ويصون الحق ويعلى شأن الايمان : «آتونى زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا

جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطرا . فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » .

شواهد من السنة المحمدية :

تلك هى آيات القرآن الحكيم تحث على التماس العلم بمفهومه الشامل الذى يتناول الدين والدنيا . كذلك ؛ فإن الأحاديث المشيرة إلى التزود من المعارف أياً كانت كثيرة كما سبق البيان . وإذا تأملنا الحكمة التى وردت فى الأثر : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » وجدنا أنها تنصرف إلى العلم بمدلوله العام ، إذ لا يستقيم فى المنطق أن يتكبد المسلم مشاق الرحلة إلى الصين والبعد عن مهبط الوحى وأرض الرسالة فى الجزيرة العربية ليلتمس التفقه فى الدين على أيدى قوم لم تبلغهم دعوة الرسول ، وإنما القصد أن يحيط بما أوتيه أهل الصين من علوم ومعارف تصلح بها أمور الدنيا .

كما نجد مصداق ذلك فى حث الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد ابن ثابت على تعلم السريانية إذ يقول زيد : « وأمرنى رسول الله فتعلمت له كتاب يهود بالسريانية ، وقال : إنى والله ما آمن يهود على كتابى . قال زيد : فوالله ما مر بى نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه ، فكنت أكتب له إليهم ، وأقرأ له كتبهم إليه » فالسريانية لغة

أجنبية . لا يستزيد بها المسلم علماً بدينه ، وإنما ينتفع بها فى دنياه ، هذا الانتفاع الذى تشير إليه الحكمة القائلة : « من تعلم لغـــة قوم أمن مكرهم » .

وثم شاهد آخر على المفهوم الصحيح للعلم فى الإسلام وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ عندما سئل عن النخل وتلقيحه ـ مامعناه أن هذا من أمور الدنيا التى يرجع فيها إلى التجارب والعقل ، وأن الناس أعلم بأمور دنياهم .

العلم سلاح لخدمة الدين والدولة

وإذا تأملنا تاريخ الدولة الاسلامية فى عصورها الزاهرة تبينا أن المسلمين الأوائل كانوا على بصيرة بالمضمون الشامل للعلم، فكانوا يعرفون رسالة دولتهم المعنوية حق المعرفة ، وكانوا يعملون على خدمة هذه الرسالة بأنواع العلوم المدنية المختلفة ، تدعيما لها ورفعا للوائها ، وفرضاً لاحترامها . فتركوا لطبائعهم أوطبائع الحياة فيهم وفى غيرهم أن تبتكر وتفيد ، وتوسلوا بما أفادوا فى خدمة دينهم دون تكلف. وأفتى العلماء باتفاق أن إقامة الحرف والصناعات فريضة على المجتمع كله يأثم بتركها ، وعلى الأفراد الصالحين لهذه الفنون بمواهبهم ورغائبهم أن يجددوا فيها ويخدموا أمتهم ورسالتها بها .

وصحيح أن العرب ما كان عليهم من حرج أن يتعلموا من الناس أنواع الخبرة التى لم تهدهم إليها مطالب الصحراء ومجامع البادية. وقد مهروا فيما وقفوا عليه، واستغلوه فى نشر الاسلام وحرب أعدائه. وكان لأبناء الصحراء فضل صناعة السفن وقيادة الأساطيل وحرب البحار. إن العرب بالفطرة الصافية والانبعاث التلقائى لخدمة الاسلام، أتقنوا هذا كله، ورأوا دون انتظار لنص موجه - أن كتابهم لا يعلو فى عالم يجهلون فيـــه شئون البحرية فعبدوا الله بالسيطرة على الأمواج.

شهادة التاريخ

وفى هذا يقول ابن خلدون: «كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله. ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم، صارت أمم العجم تحت أيديهم، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته. فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيراً من هؤلاء، وأنشأوا السفن، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأسسوا داراً لصناعة الآلات البحرية بتونس، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا. ثم يقول ابن خلدون: إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر

الروم - بمعنى البحر الأبيض المتوسط - وأن أساطيلهم سادت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس ، والرومان والصقالبة جميعاً تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية،ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته .

والعلوم الدينية والدنيوية التى نبغ فيها المسلمون لاتقع تحت حصر ، إذكانوا فقهاء فى الشريعة وعلماء فى الفلسفة والرياضيات ، ومنهم من كان يجمع بين التفقه فى الدين والعلم الراسخ فى الطب وقد ثبت تاريخيا أن المسلمين هم أصحاب اليد الطولى فى الحضارة العالمية السائدة الآن . واتفقت كلمة المحققين من رجال التاريخ على أن عصر الإحياء فى أوربا إنما نشأ عن التقدم الحضارى للعرب ، والمواريث العقلية والخلقية التى تركوها فى كل مكان حلوا به ، بل لقد أشاد هؤلاء المؤرخون بأن أول مدرسة أنشئت للطب فى أوربا هى التى أنشأها العرب فى جنوب إيطاليا ، وأن أول مرصد للفلك هو الذى أقامه المسلمون فى أشبيلية بأسبانيا .

ومن أشهر الأطباء المسلمين الذين ابتدعوا نظريات فى علم الطب نقلتها عنهم أوروبا فى العصر الوسيط ابن سينا الفيلسوف صاحب كتاب «الشفاء» وكان متعدد المواهب ، فإلى جانب كشوفه الطبية

توصل بالاشتراك مع البيرونى إلى حقائق جغرافية هامة فيما يتعلق بنشأة الجبال وطبقات الصخور . ومن هؤلاء الأطباء ابن زهر ، وابن النفيس ، والرازى وابن ماسويه ، وابن رشد — وقد جمع إلى الطب الفلسفة .

أما فى ميدان الكيمياء فلقد نبغ جابر بن حيان ، وعز الدين الجلدكى ، ونبغ فى علم الفيزياء (الطبيعة) ابن الهيثم ، وكمال الدين الفارسى ، والخازن . وفى علم الزراعة والنبات نبغ البغدادى وابن البيطار . واستحدث العلماء المسلمون نظريات فى علوم الرياضة والفلك ، ومن أشهرهم الخوارزمى وثابت بن مرة . أما إذا ذكرت علوم التاريخ والجغرافية والاجتماع ، فإن قصب السبق يعقد لابن خلدون بلا منازع فهو مؤسس علم الاجتماع . كما يذكر بين علماء الجغرافيا فى العالم الشريف الإدريسى . وفى مجال الرحلات الكشفية يذكر ابن بطوطة .

لقد هيأت الدعوة العلمية فى الإسلام أفضل مناخ لنشأة هؤلاء الأعلام الرواد فى تاريخ الحضارة البشرية ، إذ كانت تقوم على نشر المعرفة لهداية الفرد وتقويم المجتمع ، وعلى التعمق فى شتى العلوم والآداب والفنون لدعم سيادة الدين والدولة ، وتفتح النوافذ للتيارات

الفكرية الصالحة ، وإفساح المجال للأخذ من كل علم بطرف ، فلا تفضيل لعالم على آخر بنوع ما يحصله من المعرفة ، وإنما بإخلاصه فيه واستخدامه فى سبيل تلبية الحاجات المشروعة للناس ، ذلك أن العلم فى الإسلام سبيل لخدمة الفرد والجماعة ، وتثبيت الدين وتوطيد أركان المجتمع ، وتدعيم الدولة . فأما علوم الدين فهى تبين أحكامه للهداية إلى حقيقة العبادات ، وأما علوم الدنيا فللارشاد إلى أصلح المعاملات .

الفتوح الاسلامية احداث ثقافية كبرى

ولقد أثمرت سياسة الإسلام فى تمجيد العلم وتكريم العلماء كحافز على اكتساب المعرفة الشاملة فيما أعقب العهد الأول للاسلام من عصور زاهرة ارتفعت فيها أعلام دولته فى أقاصى العالم وطبقت حضارته الآفاق . والواقع أن الفتوح الإسلامية لم تكن أحداثاً سياسية أو حربية فحسب ، إذ تبلورت فى شكلها إلى أحداث ثقافية رائعة . وآية ذلك ما أعقب الفتح العربى لشبه جزيرة أيبريا « الأندلس » من نهضة علمية أهلت العقل البشرى لاكتشاف الكثير من المجاهل التى لم يطرقها من قبل ، ثم حفزت هذا العقل على التنقيب والاختراع والابتكار ، وأفسحت له الطريق ليسير بأبحاثه واكتشافاته بعالم

يتيسر للانسان فى يوم ما ، يشهد بذلك ما أنتجته العبقرية الإسلامية فى أسبانيا تحت رعاية الخلفاء وأرباب الدولة الأموية فى أعوام قليلة إذا قيست بعمر التاريخ المديد فى ميدان الحضارة .

ومن الثابت كذلك أن من العناصر الأساسية التى جعلت سرعة الفتوح الإسلامية أشبه ماتكون بالأساطير ، أن العرب كانوا يحملون لواء حضارة جديدة ، تفوقت على حضارة الدول المغلوبة ، فانساب الفتح الاسلامى فى طريقه كالسيل الدافق بين أفريقيا وآسيا ، وحطم دولتين عظيمتين كان بيدهما زمام العالم ومصيره إذ ذاك ، ثم اتجه إلى أوروبا فأمدها بحضارة إنسانية زاخرة ظل يحمل مشعلها فى جميع أرجاء العالم عشرة قرون من الزمان .

الفصل الثانى

التخطيط للهجرة

تمهيـــد :

التخطيط فى عالم اليوم :

إن التخطيط أمر ضرورى لمزاولة أى نشاط بشرى مهما كان نوعه ، يستوى فى ذلك أن يكون القائم به فرداً أو جماعـة ، وأن يستهـدف شأناً من شئون السلم أو من شئون الحرب ، حتى أصبح ملماً بارزاً وطابعاً مميزاً لعالم اليوم ، وإذا كان القرن العشرون يسمى عصر الشعوب وعصر الفضاء كما يطلق عليه أحياناً عصر التكنولوجية ، فإن تسميته بعصر التخطيط لاتعدو الواقع ، بل إنها أقرب من غيرها فى دلالتها على المضمون الفكرى لهذه التسميات . والتخطيط هو عماد التقـــدم فى شتى المجالات ، ومن ثم كان الاهتمام بأبحاثه ودراساته المتطورة حتى أوشك أن يغد علماً قائماً بذاته له قواعده الخاصة به .

وإذا كان التخطيط — اصطلاحاً — من مستحـدثات العصر فإنه — معنى — يضرب بجذوره فى أعماق القدم ، فقد اقترن بحياة الفرد وحياة المجتمع منذ كان الإنسان على الأرض ، فقد شاء الله سبحانه

وتعالى أن يزوده بهذه القدرة المستمدة من العقل لحفظ الجنس البشرى حتى تستمر الحياة عبر مراحل تطورها المتعاقبة ، ولكن الإنسان يعمر الأرض فى كل مكان وزمان ، يأكل من رزقها وينعم بخيراتها ويكشف أسرار الكون من حوله ، ويعيش آمناً من تحديات الطبيعة وشر أعدائه ، مستثمراً جهده وما بلغه علمه فى سبيل تحقيق هدفه ، حياة مطمئنة رزقها رغد .

ومن ثم ، فإن كل امرىء يباشر التخطيط تلقائياً فى جميع خطواته وفى مختلف تصرفاته دون أن يدرى المدلول العلمى لما يقوم به . فالصانع والزارع والعامل كل منهم يخطط ليومه وغده ، إذ يحدد مطالبه والتزاماته ويحدد قدراته على الوفاء بها مستعيناً فى ذلك بحصيلة تجاربه السابقة ومقدراً الظروف الطارئة المحتملة . فهو يخطط لمأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ، ويخطط لعمله ، ويدبر أمره . وهو لا ينى عن إعمال فكره فى كل ما يعن له من أمور . والتخطيط هو ثمرة هذا الفكر ومن هنا كان قبساً من نور الخالق الأعظم الذى جعل العقل أجل النعم .

ونظراً لأن نجاح أى مجهود بشرى يعتمد فى المقام الأول على التخطيط السابق ودقته وتوازن عناصره ، فقد اجتهد الباحثون

فى سبيل تعريف التخطيط السليم وتحديد العناصر المُكَوِّنة ، واتفقوا بادىء ذى بدء على أنه نقيض الارتجال والتخبط وعكس الفوضى . ووضعوا تعريفات كثيرة له بمعناه العام ، يختلف كل منها عن الآخر فى صياغة العناصر التى يتألف منها التخطيط ولكنها جميعا تلتقى عند مضمون واحد . ويرجع تعدد هذه التعريفات إلى تعدد الأشخاص الذين يتداولونه بالدراسة والتحليل ، ويحاول كل منهم من وجهة نظره أن — يحدد ماهيته ومكوناته . ذلك أن التخطيط ليس علماً من العلوم البحتة كالكيمياء والفيزياء وغيرهما ، فلا تحكمه مثلها قوانين ثابتة معلومة تنطبق فى كافة الظروف والأحوال متى توافرت عوامل معينة مثل ضرورة تكوين جزىء من الماء من اتحاد ذرتين من الأيدروجين مع ذرة من الأكسوجين . ومن هنا نلاحظ أن الآراء والنظريات التى طبقها الباحثون الأوائل فى التخطيط العلمى قد تطورت وتغيرت ، كما نلاحظ أن تعاريفه قد كثرت وتعددت . وسوف نورد فيما يلى بعض هذه التعريفات :

مفهوم التخطيط

تدبير يرمى إلى مواجهة المستقبل بخطط منظمة سلفاً لتحقيق أهداف محددة .

عمل افتراضات عما ستكون عليه الأحوال فى المستقبل ،

ثم وضع خطة تبين الأهداف المطلوب الوصول إليها والمناصر الواجب استخدامها لتحقيق الأهداف ، وكيفية استخدام هذه المناصر ، وخط
٢ السير والمراحل المختلفة الواجب المرور بها ، والوقت اللازم لتنفيذ الأعمال .

جمع للحقائق والمعلومات التي تساعد على تحديد الأعمال الضرورية لتحقيق الأهداف والنتائج المرغوب فيها .

رسم وإعداد وسيلة أو خطة أو مشروع يرمى إلى إنجاز هدف محدد ، كما يرمى إلى مواجهة مايحتمل وقوعه من أمور شأنها عرقلة تحقيق هذا الهدف .

عملية وضع خطة أو تطوير طريقة ما من طرق العمل أو إجراء معين أو ترتيب أجزاء معينة بقصد تحقيق هدف معين في يسر وسهولة .

أسلوب علمى وعملى للربط بين الأهداف والوسائل المستخدمة لتحقيقها ورسم معالم الطريق الذى يحدد جميع القرارات والسياسات وكيفية تنفيذها ، مع محاولة التحكم فى الأحداث من طريق اتباع سياسة مدروسة محددة الأهداف والنتائج .

ونخلص من هذه التعريفات جميعاً إلى أن المقصود بالتخطيط هو تحديد الوسائل التي تكفل تحقيق هدف أو أهداف معينة ، بأقل النفقات ، وفي أقصر وقت ، وبأقل جهد ممكن ، أي أنه تنسيق المراحل المستقبلة التي يبتدىء بها تنفيذ عمل معين إذا أريد لهذا العمل أن يقوم بنجاح وأن يتحقق الهدف المقصود منه ، وهو لذلك يحمل معنى التنبؤ بالمستقبل والاستعداد له ، وهذا الإستعداد يكون عن طريق دراسة الماضي ومراقبة الحاضر واستخلاص التجارب النافعة منها ومحاولة تطبيقها على الأعمال المزمع القيام بها لتحقيق أفضل النتائج . ومن الواضح أن التخطيط يجتاز عدة مراحل أولاها التفكير الذي يسبق القيام بأي عمل وخاتمتها اتخاذ القرارات بما يجب عمله وطريقة الأداء ووقت التنفيذ .

فوائد التخطيط

وتأسيساً على ذلك فإن للتخطيط فوائد جمة يمكن إجمالها فيما يأتي :

تحديد الأهداف بوضوح مما يكفل علم جميع الأفراد بها ووضوح الرؤية أمامهم .

رسم الطريق وتحديد الوسائل اللازمة لتنفيذ الأهداف .

بيان وتقدير الإمكانيات البشرية والمادية اللازمة واستخدامها من حيث الكمية والعدد .

المساعدة فى الوقوف على المشاكل المتوقعة ، ومن ثم يمكن تداركها .

تحديد الأوقات المناسبة « التوقيت » للخطوات المراد اتخاذها والوقت اللازم لكل جزء من العمل .

تيسير مراجعة الأعمال ومراقبة التنفيذ وذلك بواسطة الأهداف السابق تحديدها والطريق الذى يسبق رسمه ومواعيد التنفيذ التى حُدِّدت سلفاً .

اجراءات التخطيط

وللتخطيط خصائص معينة يسهل التعرف عليها . ولاشك أن الادراك السليم لهذه — الخصائص ومعرفة العناصر أو الخطوات والاجراءات التى يجب أن يمر بها يساعد على إعداد الخطة التى تحقق أفضل النتائج . ومفهومٌ بداهةً أن الخطــة تنبت أولا من مجرد فكرة تنبثق فى خيال واضعها . فإذا لم يقدر لهذه الفكرة أن تمر بالخطوات الأساسية التى ترتقى بها إلى مستوى الفاعلية ، كان مآلها

الإخفاق . ويمكن أن تحصر هذه — الخطوات التى تتكون منها قواعد عملية التخطيط فيما يلى :

إيضاح مدى الحاجة إلى الخطة وضرورتها وتحديد أهدافها .

فينبغى — قبل التفكير فى وضع الخطة — التأكد من أن ثمة مشكلة حالة أو مقبلة تحتاج إلى حل ، وأن يتخذ قرار تمهيدى للقيام بعمل ما إزاء هذه المشكلة ، وأن يكون هذا العمل المرسوم مؤديا إلى تحقيق الهدف المنشود .

القاء الضوء على المشكلة وأسبابها

بعد التأكد من ضرورة وضع الخطة وتحديد أهدافها ، تأتى الخطوة الثانية وهى دراسة المشكلة من جميع نواحيها ، ومعرفة طبيعتها وأسبابها وسوابقها أو الحلول المحتملة لها .

جمع المعلومات

فينبغى ألا توضع خطة ما إلا بعد جمع كافة المعلومات المتعلقة بالمشكلة التى تعالجها ، والاستئناس فى ذلك بآراء الثقاة ، والاستعانة بخبرات المختصين بهذا النوع من المشكلات ، ودراسة كافة المعلومات المتعلقة بمكان المشكلة وظروفها وغير ذلك مما يتصل بها ، ولا ريب أن هذه

المعلومات تهيء الطريق العام أمام واضع الخطة لرسم الخطوط العريضة للسياسة التي توصل إلى تحقيق الهدف المطلوب .

تحليل المعلومات

بعد أن تجمع المعلومات التي أوضحناها ، تدرس وتحلل تحليلا دقيقاً ، وترد إلى عناصرها حتى يمكن استخلاص الحقائق التي تصلح لأن تكون أساساً للخطة .

حصر الامكانيات المتاحة

إن حصر الإمكانيات المتاحة للخطة ضرورة واجبة قبل البدء في التخطيط . وإن قدر هذه الإمكانيات المادية والبشرية هو الذي يوجه إلى نوع الخطة ويحدد وسيلة تنفيذها ودقته . ومن هذه الإمكانات المال والرجال والسلاح ووسائل الاتصال والانتقال .

اعداد خطط متعددة واختيار اكثرها فاعلية

تعتبر الخطوات الخمسة السابقة بمثابة الأعمال التحضيرية لوضع الخطة ، فكلها تعنى بتحليل المشكلة ، وجمع المعلومات عنها واستخلاص الحقائق النافعة منها .

وبانتهاء هذه الخطوات يبدأ في وضع الخطة . ويحسن أن توضع

عدة خطط بديلة تهدف إلى تحقيق الغرض المطلوب ، ثم اختيار أفضل هـذه الخطط من طريق الموازنة والمقارنة بين بعضها وبعض . ومن ميزات وضع عدة خطط أنه قـــد يبدو عندئذ من الأصوب إدماج بعض عناصرها المختلفة فى خطة واحـدة جديدة ، أو أن يصبح من المحتم لظروف طارئة استبدال خطة بأخرى .

الاقناع بأهمية الخطة

من الضرورى أن يشترك فى بحث الخطة جميع المختصين والمشرفين على تنفيذها ، وأن يقتنعوا بأهميتها وجـدواها ، كما ينبغى أن يحاطوا علماً بأى تغيير فى جزئياتها قبـــل تنفيذها ، حتى يمكن التقليل من احتمالات إخفاقها .

الاعداد لتنفيذ الخطة

يتطلب تنفيذ الخطة توفـير حشد القوى المادية والبشرية اللازمة لها ثم إصدار الأوامر إلى الأشخاص المشتركين فيها ، والتأكـد من علمهم بموعد تنفيذ الخطة كالدور الذى يجب على كل منهم القيام به مفصلا تفصيلا دقيقاً .

، تعديل تنفيذ الخطة .

يجب الوقوف أولا بأول على نتائج تنفيذ مراحل الخطة . وفى ضوء النتائج يمكن تقدير ما إذا كان من المستحسن الاستمرار فى تنفيذ الخطة أو تعديلها أو إجراء تخطيط إضافى لها .

اختيار الوقت والمكان

من الاعتبارات الأساسية التى ينبغى مراعاتها قبل تنفيذ الخطة ، لما لها من أهمية بالغة فى التأثير على مدى نجاحها ، اختيار الوقت والمكان المناسبين للتنفيذ .

خصائص الخطط الفعالة :

يجب أن تتوافر فى الخطط الفعالة الخصائص الآتية ضماناً لنجاحها:

أن تكون أغراضها وأهدافها محددة تحديداً واضحاً .

إن الخطة هى قاعدة كل عمل يراد به تحقيق غرض أو هدف معين ومهما كان هذا الغرض صغيراً أو كبيراً ، وسواء تطلب الوصول إليه تخطيطا طويل الأجل أو قصيره ، فإنه يتعين أن يكون الغرض واضحاً محدداً ، متماسكا بلا تنافر أو تضارب فى جزئياته . وإلا فقدت الخطة ركنها الأساسى .

أن تتميز الخطة بالبساطة والوضوح وأن تكون اتجاهاتها مباشرة.

كلما بعدت الخطة عن التعقيد والغموض، وكان طريقها مباشراً ، سهل إدراكها وتنفيذها ، وقلت احتمالات إخفاقها.

أن تكون الخطة مرنة

يجب أن تراعى مرونة الخطة ، بحيث يسهل تعديلها لمواجهة كل تغيير يطرأ على وسائل تنفيذها ، وذلك دون تأثير فى النتائج النهائية المنشودة منها.

أن تكون الخطة محكمة وفى الامكان تنفيذها

يجب أن تكون الخطة قد وضعت على أساس الاعتقاد الراسخ بأنها سوف تحقق الغرض الذى وضعت من أجله ، وألا تترك ثغرات تؤذن بإخفاقها .

أن تعد الخطة وفقاً لمقاييس عملية

تعتبر المقاييس العملية بمثابة معيار التقدير الذى تقاس به المستويات اللازمة لتنفيذ أية خطة . ومن الخطأ أن يعتمد فى وضع هذه المقاييس على المعلومات الشخصية لواضع الخطة لمجرد اقتناعه الشخصى بسلامتها أو لأنه قد أخذ بها فى خطة مماثلة . على أنه فى جميع الأحوال ينبغى جعل المقاييس جزءاً من كل خطة .

التأكد من أن الامكانيات المادية المتاحة تسمح بتنفيذ الخطة .

يجب عند وضع الخطة التأكد من أنه فى الإمكان تدبير الإمكانات اللازمة لتنفيذها وينبغى أيضاً التأكد من سلامة هذه الإمكانات سواء أكانت وسائل انتقال واتصال أم غيرها . كما يجب التأكد من أن الامكانات البشرية – أى الرجال – على مستوى من التدريب اللائق لتنفيذ الخطة وأن مستوى القيادات صالح لقيادة الأفراد نحو الهدف المطلوب تحقيقه .

أن يلاحظ أثر الخطة على العمليات المستقبلة .

يجب دراسة مدى تأثير الخطة على العمليات المستقبلة للجماعة ومدى تأثير بعض العمليات الأخرى عليها .

أن تكون الخطة ضرورية .

يجب مراجعة الخطة قبل تنفيذها للتأكد من ضرورتها .

أسباب فشل الخطة :

قد تفشل الخطة نتيجة لعدم توافر عناصر النجاح لها ، وقد سبق عرض الخصائص التى يجب توافرها فى الخطة حتى يكفل لها الفاعلية وتحقيق الهدف. وهناك أسباب أخرى تؤدى إلى فشل الخطة نذكر منها

عدم الاستعانة بالخبراء فى العمل الإدارى الذى يجرى التخطيط له . فمهما كانت قدرات القائم بالتخطيط فلا بد من الاستعانة بالخبراء ذلك أن نظرة الإدارة — تكون عادة نظرة شاملة للأمور ، ولكنها غير دقيقة فى كل جزء من الجزئيات ، بعكس الخبير الذى يتعمق عادة فى الفرع الذى يتخصص فيه ويلم بجميع نواحيه ، ويشبه ذلك بقائد الفرقة الموسيقية الذى لابد منه لكى تعزف الفرقة لحناً متناسقاً جميلا ، ورغم ذلك فقد لا يستطيع العزف الجيد على كل الآلات كما زفها الخبير المختص .

عدم الاستعانة بالأشخاص الأكفاء للقيام بعملية التخطيط ظناً أن كل شخص قادر على القيام بهذا النوع من العمل وهذا ظن خاطىء .

عدم دقة البيانات أو المعلومات التى اعتمدت عليها الخطة أو تفسيرها تفسيراً خاطئاً نتيجة عدم توخى الدقة فى معرفة دلالاتها .

انفصال عملية التخطيط عن التنفيذ ، ويتم ذلك فى حالة قيام جهة بعيدة كل البعد عن طبيعة العملية بالتخطيط لها ، وقيام جهة أخرى بالتنفيذ .

خطة الهجرة

إذا استعرضنا العناصر المكونة للتخطيط وهى تحديد الهدف أو الأهداف المبتغاة ، وإعداد وتنظيم الوسائل اللازمة لتحقيق تلك الأهداف ، ورسم أسلوب التنفيذ ، ومحاولة التنبؤ بالمستقبل للسيطرة ما أمكن — على مسار الأحداث بما يكفل الوصول إلى النتائج — اذا استعرضنا هذه العناصر الأربعة ، تبينا أن الهجرة عمل مجيد قام على أساس من التخطيط وما يتطلبه من تدبير وإحكام وبعد نظر . فلقد حدد النبى الكريم هدفه من الهجرة ، وكان الأسلوب الذى اتبعه فى رحلته كفيلا بتحقيق هذا الهدف. فقد أعد من الوسائل البشرية والمادية ما يلائم الظروف القائمة ويتفق مع الظروف المحتملة ، ونظم هذه الوسائل تنظيما محكما ، ثم نفذها بأسلوب واقعى سديد ، فنجحت خطته وأدرك غايته .

(اولا) الهدف والدوافع :

فأما الهدف فهو مغادرة الرسول وأبو بكر معه مكة وبلوغهما المدينة آمنين ، ليستكمل النبى رسالته فى أرض صالحة لنشر دين الله ، وكفالة حرية العقيدة . فهذا هو السبيل لبعث الأمن والطمأنينة فى

نفوس المسلمين حتى لا يؤذوا بسبب إيمانهم ، ولضمان الأمن أيضاً لمن يرغب من العرب فى دخول الإسلام .

ذلك كان الدافع الأساسى للهجرة ، أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم أن من اتبع الهدى ودخل فى دين الله هو بمأمن من أن يصيبه الأذى، وبذلك يزداد المؤمنون إيماناً ، ويقبل على الإيمان المتردد والخائف والضعيف .

ولقد استخلص النبى هذا الهدف من واقع تجارب الماضى وعبره، فكان درساً مستفاداً من تقييم تلك المرحلة التى قضاها عليه الصلاة والسلام فى مكة والتى بلغت ثلاث عشرة سنة متتابعة لقى فيها وصحابته العذاب ألواناً ، واحتملوا أذى قريش واضطهادهم لهم لأنهم آمنوا بالله الواحد القهار كما كان درساً مستفاداً من قصص الأنبياء السابقين التى جاءت فى كتاب الله .

فكانت غاية الرسول الأولى والأخيرة هى هذه الرسالة التى عهد الله إليه فى تبليغها والدعوة إليها والإنذار بها ، والتى حاربها أهل مكة من يوم بعثه إلى آخر يوم له بينهم قبل هجرته — أشد الحرب ، فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها وكل النفوس إيماناً بها من خوف مساءة قريش وعدوانها .

فكان لامناص من التماس أرض أخرى دفاعاً عن حرية الدعوة إلى الدين وتمكيناً له من الانتشار، وتأميناً لمن اتبعوه. فليس للمؤمن أن يخضع أو يضعف أو يستسلم إذا كان في وسعه أن يرحل إلى مكان بعيد من سلطان الظلم والطغيان .

« قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

« ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما » .

وفي الأرض منأى للكريم من الأذى
وفيها لمن رام العلا متحول

ذلك كان دافع رسول الله إلى الهجرة من مكة ، فما أنبله وأعظمه من دافع ، لم يهاجر في سبيل مال أو جاه أو تطلعاً لمجد يتطاول به على عباد الله . لم يهاجر حقداً على ظالميه من أهل مكة ، أو حنيناً إلى منصفيه من أهل المدينة ، بل كان دعاؤه :

« اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون » وكانت هجرته حباً للبشرية بأسرها .

وكيف يكره المقام فى مكة وهى أرض مولده ومنبته ، وملعب صباه ، ومهوى فؤاده ، حيث المسجد الحرام ، وقرة عينه حيث منازل أهله وعشيرته ، ومنزل وحيه حيث غار حراء .

وحبب أوطـــان الرجال إليهـــو
مــآرب قضــاها الشباب هنالـــكا
إذا ذكروا أوطـانهم ذكرتهـــو
عهـود الصبـا فيهـا فحنـوا لذلـكا

فالهجرة إذن كانت تضحية وجهاداً فى سبيل دعوة الحق ، ولا غرو أن يخرج محمد من مكة وهو يودعها قائلا :

« والله لأنت أحب بقاع الأرض إلىّ ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت » .

ولم يهاجر رسول الله خوفا على نفسه ، أو إيثاراً لعيش وادع هانىء فى المهجر ، وإنما كانت هجرته حلقة فى سلسلة كفاح متصل فى سبيل أداء الرسالة التى ائتمنه الله عليها ، رسالة السماء للأرض ، رسالة الأمن والحرية والإخاء بين الناس جميعاً .

وكان الهدف الذى تبلور فيه هذا الدافع هو الوصول إلى المدينة

فراراً بعقيدته مما يتهددها في مكة ، والتماساً لأرض جديدة تصلح للدعوة الكبرى التي نادى بها مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وإيماناً بالحرية ، وتأميناً لها وحفاظاً عليها ، حرية الدعوة إلى التوحيد ، حرية العقيدة . فما أجله من هدف : هجرة إلى الله . وفي ذلك يقول المهاجر العظيم :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

اختيار المكان . لماذا يثرب ؟

فلما أوحى الله إليه بالهجرة ، كان سبيله إلى تحقيق ما أوحى إليه إعمال الفكر والتدبير حتى يضمن نجاح مهمته ، ولم يكن ثمة بد من وضع خطة لتوقي العقبات وكفالة الانطلاق إلى الهدف المرسوم . فكان للهجرة مقدماتها الضرورية ، وفي مستهلها اختيار المكان الذي يقصد إليه الرسول . ووقع اختياره عليه الصلاة والسلام — بوحي من الله على المدينة ، لوفائها بمقصده وتناسبها مع الهدف من هجرته . إذ كانت له بها صلة قربى ، فهؤلاء بنو النجار أخوال جده عبد المطلب من قبيلة الخزرج بيثرب ، وفيها قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب الذي

كانت تحج إليه أمه آمنة مرة فى كل عام ، كما كان يحج جده . ولقد زار النبى مع أمه قبر أبيه فى يثرب وهو فى السادسة من عمره ، وماتت آمنة أثناء عودتها فى الطريق بين يثرب ومكة : كما كان — عليه الصلاة والسلام — يتجه ناحية يثرب حين يصلى جاعلا قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس.

كانت هذه هى عوامل اختيار يثرب داراً يهاجر إليها النبى صلى الله عليه وسلم يضاف إليها عاملان آخران على قدر كبير من الأهمية. أما العامل الأول فهو أن يثرب كانت فى مقدمة مدن الجزيرة العربية غنى بمائها وزرعها وثروتها التجارية ، وعماراً بدورها ، ومنعة بحصونها ، وسيادة وسلطانا بأهلها من الأوس والخزرج . وكانت طريق تجارة مكة إلى الشام ، ومن ثم فإن موقعها الاستراتيجى الحيوى — إذا أقام فيها المسلمون يهدد مصالح قريش بالخطر إن سولت لها نفسها التعرض للمسلمين والصد عن دين الله .

وأما العامل الثانى فهو الأثر الروحى الذى نشأ عن جوار الأوس والخزرج لليهود وهم أهل كتاب ودعاة وحدانية ، ومن شأن هذا أن يجعل أهل يثرب من العرب. أكثر استماعاً للحديث فى الشئون الروحية وفى سائر شئون الدين من غيرهم من العرب وكان من نتائج هذا الأثر الروحى أن أسلم بعض أهل يثرب بعد أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاسلام

حين كانوا يفدون إلى مكة للحج أو للتجارة أو لالتماس الحلف من قريش. وهكذا ضمت يثرب أخوال رسول الله كما ضمت أتباعاً لدينه من أهلها.

ولقد كان اختيار المدينة أرضاً للهجرة - فضلا عن منطقيته ورجاحته لما قدمنا من عوامل وأسباب متعددة — استخلاصاً للعبرة من تجربة مريرة سابقة مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلك هي مسيرته إلى الطائف يحمل بيده مشعل الدعوة للحق، وفى قلبه الدعاء لله أن يهدى القوم إلى نوره الوضاء.

ذلك أنه عليه السلام كان يعرض نفسه على القبائل ليمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه، ولم يقبله أحد منهم. وكلهم كان يقول له: قومه أعلم به، وكيف يصلحنا من أفسد قومه. فلما مات أبو طالب اشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلجأ إلى قبيلة ثقيف رجاء أن يؤووه. وكان هذا الخروج فى ليال باقية من شوال سنة عشر من النبوة.

فوجد ثلاثة نفر هم سادة ثقيف وهم إخوة: عبد ياليل بن عمرو، وحبيب بن عمرو، ومسعود بن عمرو. وكان أحدهم متزوجا من امرأة من قريش، ولعله لذلك ولأنهم كانوا زعماء قومهم اختار الرسول لقاءهم والحديث إليهم ودعوتهم إلى الإسلام.

وعرض النبى نفسه على أولئك الزعماء، وأعلمهم بما لقى من قومه

فقال أحدهم مستنكراً مستهزئاً : أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط . وقال الآخر مكذباً : أعجز الله أن يرسل غيرك . وقال الثالث متحدياً مغلظا فى القول : لا أكلمك بعد مجلسك هذا ، ولئن كنت رسول الله لأنت أعظم حقاً من أن أكلمك ، ولئن كنت تكذب على الله لأنت شر من أن أكلمك .

وأفشوا فى قومهم ما راجعوه به ، وأقعدوا له صفين من سفهائهم وصبيتهم فى طريقه . فلما مر عليه السلام بينهم أخذوا يرمونه بحجارة كانوا أعدوها له من قبل حتى أدموا عقبيه ، وشدخوا رأسه ، وجرحوا وجهه ، وسال الدم على ثوبه ، وأغمى عليه . فخلص منهم وعمد إلى بستان من بساتينهم عليه جدار : فاستظل فى ظل نخلة أو شجرة عنب منه ، وهو فى محنته مكروب تسيل قدماه ووجهه بالدماء ، وهو يقول : ما بال أقوام خضبوا وجه نبيهم بالدم : ورفع رأسه إلى السماء داعياً ربه متضرعاً إليه قائلا :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى

أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك، أو يحل علىّ غضبك، فلك العتبى حتى ترضى » .

وقد بلغ من سوء ما استقبل به محمد عليه الصلاة والسلام فى الطائف، وما لقيه من أذى وإهانة ، أن هذه التجربة ظلت ماثلة أمام عينه حاضرة فى فؤاده . إذ حدثت عائشة رضى الله عنها ، قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : لقيت من قومى ما كان أشد ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف .

ومن ثم ، لم تكن الطائف أصلح من مكة موطناً للرسالة ، بل كانت مثلها تربة مجدبة لا تنبت فيها الدعوات إلى الحق ولا تؤتى ثمارها فلتكن المدينة إذن مقصد صاحب الدعوة ووجهته ، لعل الله أن يجعل بها من بعد عسر يسراً ، وتلك آيات نجاح الرسالة فيها تشرق من بعيد

(ثانيا) التمهيد للهجرة

غير أن هذه الظروف المشجعة على الهجرة إلى يثرب ، والحافزة على اتخاذها موطناً للعقيدة ودولة للاسلام ، وقد ساندتها بعض التدابير التى قام بها النبى عليه الصلاة والسلام فى سبيل تأليف قلوب أهل المدينة وعقد معاهدة صداقة ودفاع معهم ، حتى إذا ما قدم بدينه إليهم وحل مع صحبه فى ديارهم ، طاب فيها مقامه وعز مسكنه ، وكان له من رجالها

عوض عن الأهل ، ومن بقاعها بديل عن الوطن الذى أكره على تركه والنزوح بعيداً عنه ، ووجد فيها المناخ الملائم لدعوته ، والقلوب الصادقة المناصرة له .

أما هذه التدابير التى قام بها النبى فكانت تمهيداً أخيراً تمهيداً لتنفيذ خطة الهجرة ، فهى بيعة العقبة الأولى ، وبيعة العقبة الثانية ، وبيعة العقبة الثالثة .

١ – التحالف مع أهل المدينة

(١) بيعة العقبة الأولى

ذلك أنه فى موسم الحج كانت تقام فى مكة الأسواق المشهورة مثل عكاظ ، وكان العرب يفدون على مكة من جميع أنحاء الجزيرة وتنزل كل قبيلة فى منزل بها خاص . وقد اتى رسول الله فى الموسم عند العقبة — وهى مكان مرتفع شرقى مكة على يسار الطريق للقاصد منى من مكة — ستة رجال من الأنصار كلهم من الخزرج ، فدعاهم إلى الاسلام ، فكان من صنع الله لهم أنهم كانوا من جيران اليهود ، فكانوا يسمعونهم يذكرون أن الله تعالى يبعث نبياً قد أظل زمانه . فقال بعضهم لبعض : هذا والله الذى تهددكم به يهود ، فلا يسبقونا إليه . فأسلموا وآمنوا به وبايعوه . وقال هؤلاء القوم : إنا قد تركنا قومنا ، بيننا وبينهم حروب ، فننصرف وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه فعسى الله أن يجمعهم بك . فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك . فلا

أحد أعز منك . وانصرفوا إلى المدينة ، فدعوا إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ب) بيعة العقبة الثانية

وقد واعد النبي هؤلاء الرجال الستة الذين آمنوا برسول الله وبايعوه أن يقابلوه في الموسم القادم في نفس الموضع . فلما حل هذا الموسم جاء من المدينة أثنا عشر رجلا ، عشرة من قبيلة الخزرج منهم خمسة من الستة الذين بايعوا في العقبة الاولى، واثنان من قبيلة الأوس، وقابلهم رسول الله ، وأسلموا جميعاً ، وبايعوه على السمع والطاعة . وهذه هي بيعة العقبة الثانية أو الصغرى .

وكانت البيعة ألا يشرك أحدهم بالله شيئاً ، ولا يسرق، ولا يزنى، ولا يقتل أولاده، ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصيه في معروف ، فإن وفى ذلك فله الجنة، وإن غشى من ذلك شيئاً، فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر .

وواضح من هذه البيعة أنهم لم يبايعوا الرسول على القتال دفاعا عن الإسلام وإنما على الدخول في الإسلام ، ومن ثم سماها بعض كتاب السيرة بيعة النساء .

فلما انصرفوا أنفذ رسول الله معهم ابن أم مكتوم ، ومصعب ابن عمير يعلم من أسلم منهم القرآن وشرائع الإسلام ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام . فأسلم على يد مصعب بن عمير خلق كثير من الأنصار على رأسهم سعد بن معاذ سيد الأوس وأسيد بن حضير من زعمائها وأسلم بإسلامهما جميع بنى عبد الأشهل فى يوم واحد الرجال والنساء لم يبق منهم أحد إلا أسلم حاشا عمرو بن ثابت بن وقش فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم واستشهد . ولم يكن فى بنى عبد الأشهل منافق ولا منافقة ، كانوا كلهم حنفاء مخلصين ، رضى الله عنهم أجمعين ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها مسلمون عدا قلة قليلة أسلموا فيما بعد .

وقد ازداد الإسلام بعد هذه البيعة انتشاراً بيثرب . وأقام مصعب بين المسلمين من الأوس والخزرج يعلمهم دينهم . فلما آذنت الأشهر الحرم أن تعود قفل راجعاً إلى مكة وقص على رسول الله خبر المسلمين بالمدينة وما هم عليه من منعة وقوة ، وأنهم سيجيئون إلى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عدداً وأعظم بالله إيماناً ونصراً لأمره ولكلمة الحق..

جـ - بيعة العقبة الثالثة

ثم سعى النبي إلى بيعة ثالثة لاتقف عند الدعوة إلى الإسلام على نحو ما ظل هو يدعو إليه ثلاث عشرة سنة متتابعة فى رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعاً، وتكون حلفاً يدفع به المسلمون عن أنفسهم العدوان بالعدوان. وقد دعاه إلى التفكير فى ذلك ازدياد أتباعه فى يثرب فى بيعة العقبة الأولى انتشارا وقوة فاتصل سرا بزعماء أهل المدينة القادمين للحج وعرف استعدادهم. ووفق رسول الله فى مسعاه إذ وفد على مكة فى موسم الحج جماعة من يثرب بلغت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين، منهم أحد عشر من الأوس. فوعدهم النبي أن يقابلهم ليلا عند العقبة، وكتم مسلمو يثرب عن المشركين أمرهم وانتظروا حتى إذا مضى ثلث الليل من يوم موعدهم مع النبي خرجوا من رحالهم يتسللون مستخفين حذر أن ينكشف سرهم. فلما كانوا عند العقبة تسلقوا الشعب جميعاً وتسلقت المرأتان معهم وأقاموا ينتظرون مقدم صاحب الرسالة. وأقبل رسول الله ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب، وكان مايزال على دين قومه. لكنه عرف من قبل من ابن أخيه أن فى الأمر حلفاً، وأن الأمر قد يجر إلى حرب، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد من بنى المطلب وبنى هاشم أن يمنعوا محمداً فليستوثق لابن أخيه ولقومه حتى لاتكون كارثة يصلى بنو هاشم

وبنو المطلب نارها ، ثم لا يجدون من هؤلاء اليثربيين نصيراً . لذلك كان العباس أول من تكلم فقال :

« يا معشر الخزرج ، إن ابن أخى لم يزل فى منعة من قومه . حيث لم يمكنوا منه أحداً ممن أظهر له العداوة والبغضاء ، وتحملوا من ذلك أعظم الشدة ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم . وإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه بين عشيرته فإنهم لبمكان عظيم » :

فقام إليه البراء بن معرور سيد قومه وكبيرهم ، وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى وقام بكل ما يفرض الإسلام ، وقال :

« والله لو كان فى أنفسنا ما ننطق به لقلناه . ولكن نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله » .

واتجه الجمع بحديثه إلى الرسول مستوضحين شروطه قائلين : « خذ لنفسك ولربك ما أحببت » فقال :

« أشترط لربى أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم . فقال له الهيثم :

« يارسول الله إن بيننا وبين الرجال عهوداً وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك أن ترجع إلى قومك وتدعنا » فابتسم الرسول وقطع العهد على نفسه قائلا :

« بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، وأنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . فبايعوه على ذلك قائلين :

« بايعنا على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأن نقول الحق أينما كنا ، لانخاف فى الله لومة لائم » .

ويروى المؤرخون فى هذا الصدد أن البراء بن معرور كان أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الثالثة وقد أخذ بيده عليه السلام ، ثم قال عقب قوله : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أزرنا – أى أعراضنا – فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة – الدروع – ورثناها كابراً عن كابر .

وتدل وقائع هذه البيعات الثلاث والظروف التى اكتنفتها على مبلغ الاحكام فى التخطيط لها ، إذ كان نجاحها بمثابة نجاح لمرحلة تحضيرية للهجرة ، وذلك أن النبى عليه السلام كان يتحين الفرصة المناسبة لعقد المعاهدة حتى لا يستلفت إليه النظر ، فكان يختار موسم الحج

وكان المتعاهدون يخرجون من مكة حيث يغص الموسم بالجموع المتزاحمة إلى بقعة بعيدة هادئة هي العقبة ، كما كانوا يختارون الليل موعداً للقائهم مع رسول الله ، فيتسللون واحداً بعد آخر من رجالهم للتجمع في المكان المحدد ، خلال ساعة من الليل محددة .

ومن تمام التدبير أن رسول الله كان يدعو الرجل ممن لم يكن قد أسلم منهم إلى الإسلام متوخياً أن يتم ذلك سراً ممن حضر من كفار قومه . وكان يبدأ بدعوة سادة القوم بوصفهم يتولون القيادة التي يحتذيها سائر الناس .

وفي العقبة الثالثة اختار النبي من المبايعين السبعين اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، مما يدل على سداد التدبير ، فالنقيب هو الأمين المصدق على طائفته المطلع على أسرارهم والعارف بطرق أمرهم ، المخاطب عنهم في بعض الحالات .

وجاء في بعض كتب السيرة أن النبي عليه الصلاة السلام قد اختار من المبايعين اثنى عشر رجلا قال لهم :

« أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي » .

والكفالة هنا تؤدى معنى رقابة القائد أو الرئيس على أفراد الجماعة بقصد ضمان تنفيذ كل منهم لالتزاماته ، وهو مبدأ من أهم المبادىء التى يقوم عليها علم الإدارة .

ومن رجاحة التخطيط أيضاً مراعاة التدرج فى تنفيذ الخطة بمعنى إنجازها على مراحل بحسب مقتضيات الحال ، أو وضع خطط جزئية تندرج فى إطار الخطة العامة وتنفذ واحدة بعد أخرى . ذلك لأن الطفرة قد تؤدى إلى الإخفاق فى الوصول إلى الهدف المنشود . ومن ثم فإن المخطط الكفء يضع فى تقديره جميع الظروف المحيطة ويحدد الوسيلة المناسبة . وقد تحقق ذلك فى بيعات العقبة إذ اقتصرت الأولى على دخول وفد اليثربيين فى الإسلام ، وكذلك كانت الثانية ، وأضيف إليها بعث مصعب بن عمير إلى المدينة مع الوفد للدعوة فيها إلى الاسلام ، وقد أسلم على يده خلق كثير مما مهد للبيعة الثالثة التى تجاوزت الدخول فى الإسلام إلى عقد حلف دفاعى بمعنى القتال مع النبى ضد مشركى مكة دفعاً للعدوان بالعدوان .

٢ — موجات المهاجرين من المسلمين

بلغ قريشاً نبأ الحلف الذى عقده رسول الله مع الأوس والخزرج ،

فغشيهم الفزع لما قد يصيبهم ذلك من أذى ويصيب تجارتهم إلى الشام في أثناء مرور قوافلهم على طريق المدينة – حيث محمد – في ذهابها أو عودتها .

ذلك كان رد الفعل الذى أحدثته بيعة العقبة في المعسكر المعادى لرسالة السماء. أما معسكر النور والسلام والحق فلقد سار قدماً في وجهته، لا يستبد به ترهيب ولا يثنيه ترغيب . فقد حث النبي أصحابه في مكة أن يهاجروا إلى المدينة نجاة بأنفسهم وعقيدتهم من أذى الكافرين وتعزيزاً للاسلام في الأرض الجديدة ، وبدأت طلائع الهجرة تترى إلى يثرب ، مما يصح معه القول أن هذه الهجرة ، شأنها في ذلك شأن بيعة العقبة ، كانت تمهيداً لخطة هجرة النبي .

وكان أمر رسول الله للمؤمنين أن يخرجوا من مكة متفرقين ، وأن يلتزموا الكتمان ، حتى لا يجلبوا عليهم نقمة قريش ، فما أحكم التدبير والتخطيط . وكانت المسيرة من مكة – المخرج الصدق – إلى المدينة – المدخل الصدق – في سبيل اللحاق بالأنصار محفوفة – برغم احتياطات الأمن – بالآلام وصنوف العذاب . ولكن لاضير فإن الهجرة باب من أبواب الجهاد ، فالمهاجر مجاهد وله أجره ، ومن ثم قال العلماء في حكم الهجرة : كانت الهجرة شرطا في الاسلام »

فمن لم يهاجر ولا عذر له ومات على ذلك مات كافراً . وقيل : بل كانت واجبة مؤكدة من قواعد الدين .

كانت هجرة المسلمين إلى يثرب جهاداً حافلا بالتضحيات، فكم خرج مؤمن فى ظلمات الليل إلى الصحراء وحيداً مكرهاً على ترك امرأته فى مكة ، وظل مقيما فى دار الهجرة شهوراً امتدت أحيانا إلى سنة حتى استطاعت أن تلحق به بعد ذلك كان شأن أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى أول من خرج وحبست عنه زوجته . وكم تركت جماعة من المؤمنين مساكن لها وأموالا بمكة ، فعدا عليها باغ من قريش فاغتصبها بعد هجرة أصحابها . ذلك كان شأن بنى جحش وقد عدا أبو سفيان على دارهم وذلك كان شأن هشام بن العاص بن وائل وقد واعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه ففطن لهشام قومه فحبسوه عن الهجرة .

وجن جنون العصبة الباغية إذ عجزت عن صد موجات المسلمين المهاجرين من مكة يحملون بذور الدين الجديد إلى المدينة ليغرسوها فى تربتها الخصبة فيزداد شأنهم قوة ، ويصبح دينهم مصدر تهديد دائم لقريش ، وتغدو المدينة بهم مكمن خطر لقوافل قريش .

ويمارس المشركون كل ما وسعهم من ضغط على المسلمين ، وكلما هاجرت موجة ممن آمنوا برسول الله اشتد غيظهم ، واشتطوا فى نكالهم .

وقد بلغ من ذلك أنهم لم يقفوا عاجزين يائسين إزاء هجرة رجال من ذوى قرباهم وبلوغهم المدينة آمنين . إذ هاجر عياش بن أبى ربيعة وكان أخا أبى جهل والحارث بن هشام لأمهما وابن عمهما، فتعقباه وأتيا إلى المدينة حيث أدركاه وأخبراه : أن أمة قد نذرت أن لا تغسل رأسها ولا تستظل حتى تراه . فرقت نفسه وصدقهما وخرج راجعاً معهما ، فكتفاه فى الطريق ، وبلغا به مكة ، فحبساه بها مسجوناً ، إلى أن خلصه الله بعد ذلك بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قنوت الصلاة: « اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين . اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » .

وخابت قريش فى خداعها وإفكها كما خابت فى وسائلها الأخرى وزادها ذلك حقداً ، فتمادت فى عدوانها شأن المتغطرس الباغى المهزوم يأكله الغيظ حتى يموت . ولا شك أن خوف قريش على أموالها كان الدافع إلى عدوانها المستمر على المسلمين ومنعهم من الهجرة إلى المدينة ، إذ

كان انتشار الاسلام نذيراً بالقضاء على مصالحهم وزوال دولتهم. ولقد تمخضت هذه الاحقاد الكامنة عن رغبة وحشية فى الانتقام ممن يشكلون تهديداً لهم، والانتقام منهم فى الأنفس والأموال، وتجريدهم من كل ما عسى أن يستخدموه فى مقاومتهم.

ومن ذلك أن صهيب بن سنان — وكان ذامال — هاجر إلى المدينة — فاتبعته قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله. فلما أشرفوا عليه ونظر إليهم ونظروا إليه قال لهم: قد تعلمون أنى من أرماكم رجلا ووالله لاتصلون إلى أو يموت منكم من شاء الله أن يموت. قالوا: فاترك مالك وانهض. قال. مالى خلفته بمكة وانا أعطيكم أمارة فتأخذونه، فعلموا صدقه، وانصرفوا عنه إلى مكة بما أعطاهم من الأمارة. فأخذوا ماله. فنزلت فيه الآية:

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ».

وظلت القافلة تسير والكلاب تنبح، وأرض المدينة تشرق بنور ربها وقد ازدادت خطراً بالمسلمين وازدادوا بها منعة وعزة « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » فليجيء الحق وليزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

ولم يحل اضطهاد المشركين لأصحاب الرسول وصدهم لهم عن الرحيل دون تتابع موجات الهجرة حتى خلت مكة من المسلمين ، لم يبق بها منهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلى ، أقاما معه بأمره . وحبس قوم كرهاً ، حبسهم قومهم ، فكتب الله لهم أجر المجاهدين بما كانوا عليه من حرصهم على الهجرة .

ومن الواضح أن أمر النبى لأبى بكر وعلى بالبقاء معه فى مكة كان تدبيراً من تدابير الهجرة وتخطيطا لأعمالها ، مثله فى ذلك كعقد الحلف مع أهل المدينة ، ودعوة المسلمين فى مكة إلى اللحاق بالأنصار ، إذ كان ذلك العقد ، وتلك الدعوة ، وهذا الأمر ، مقدمات للهجرة مما يطلق عليه فى المصطلح الحديث الإجراءات التمهيدية التى تسبق تنفيذ الخطة .

(ثالثا) الأعداد للهجرة

مؤامرة العدو

ها هى ذى المدينة تبدو على الأفق هدفاً محدداً غير بعيد ، ولقد مهد المهاجر العظيم لرحلته الكبرى بما وسعه ووفقه الله إليه من تدابير . فمتى تكون بداية التنفيذ . لقد حانت الساعة الموعودة إذ هاجرت الكثرة الغالبة من المسلمين ، ولم يبق إلا من حبس فبقى بمكة مغلوباً على أمره . فما مقام النبى بأرض يقف أهلها لدينه بالمرصاد

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾

وعزم رسول الله على الخروج، وأخذ بعد ذلك الوسائل اللازمة لتحقيق الهدف، ويرسم طريقة التنفيذ. وطرأ عامل جديد على الموقف فرض نفسه على أسلوب الهجرة وتوقيتها واقتضى مزيداً من التدبير والإحكام. فقد رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة، وقد دخل أهلها فى الإسلام. وفشل بذلك كل ما وضعته من خطط وما ابتدعته من أساليب، وأدركت أن محمداً لاحق لامحالة بصحبه وحلفائه فى يثرب. فقالت: هذا شر شاغل لا يطاق. وأخذت تفكر فيما تعمل لتحبط ما قام به محمد ولتمنعه من اللحاق بأنصاره. ولما رأت أنها استنفدت جعبتها ولم يبق بها إلا سهم واحد عمدت إلى تجربته وياله من سهم غادر تطلقه يد آثمة.

ولم يكن هذا السهم إلا نسج مؤامرة لقتل محمد. وكان مسرح المتآمرين دار الندوة وأشخاصها أعدى أعداء الإسلام، وهدفها ارتكاب أبشع جريمة، ووسيلتها التربص للاغتيال عمداً فى جنح الظلام بيد مجموعة من الفتية الهوج الضالين.

هناك اجتمع عملاء الشيطان أمثال أبى سفيان، وأبى جهل، وأبى لهب، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود،

وخالد بن الوليد ، وعقبة بن أبي معيط ، وأمية بن خلف ، وحكيم ابن ، حزام ، والحكم بن أبي العاص ، وأبي البحتري بن هشام ، والأسود بن ربيعة، وقد أكلهم الحقد على محمد،والخوف على مصالحهم الاقتصادية والطبقية من ذيوع رسالته التي تدعو إلى العدالة الاجتماعية والمساواة بين الناس .

وفي تحليل العوامل التي أدت إلى هذه المؤامرة ، والملابسات التي أحاطت بها ، والمشاورات التي دارت في دار الندوة ، يقول المرحوم محمد حسين هيكل :

وإذا بقي محمد بمكة وحاولوا منعه الخروج منها فهم معرضون إلى مثل هذا الأذى — قطع طريق التجارة إلى الشام عليهم — من جانب اليثربيين دفاعا عن نبيهم ورسولهم . فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصب . لكنهم إن قتلوه طالب بنو هاشم وبنو المطلب بدمه.وأوشكت الحرب الاهلية أن تنشو في مكة فتكون شراً عليها مما يخشونه من ناحية يثرب . واجتمع القوم بدار الندوة يفكرون في هذا كله وفي وسيلة اتقائه .

قال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهير والنابغة ومن

مضى منهم ، حتى يصيبه ما أصابهم . لكن هذا الرأى لم يلق سميعاً. وقال قائل : نخرجه من بين أظهرنا و ننفيه من بلادنا ثم لا نبالى بعد ذلك من أمره شيئاً . لكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة وأن يصيبهم ما يفرقون منه . وانتهوا إلى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً وأن يعطوا كل فتى سيفاً صارما بتاراً فيضربوه جميعاً ضربة رجل واحد ، فيفرق دمه بين القبائل ، ولا تقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً . فيرضوا فيه بالدية وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها وفرق قبائلها شيعا . وأعجبهم هذا الرأى فاطمأنوا إليه ، واختاروا فتيانهم ، وباتوا يحسبون أن أمر محمد قد فرغ منه ، وأنه بعد أيام سيوارى وتوارى دعوته فى التراب ، وسيعود الذين هاجروا إلى يثرب إلى قومهم والى دينهم وآلهتهم ، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العرب وحدتها التى تمزقت ، ومكانتها التى تضعضعت أو كادت .

خطة مضادة .

ولم يكن ثمة بد من وضع خطة مضادة لما دبرته عصبة قريش. فلقد حزم النبى أمره على الهجرة ، وأعد لها مقدماتها . وقد نما إليه نبأ المؤامرة الدنيئة ولم يبق إلا أن يوحى إليه الله أن يهاجر . وجاءه أمر ربه فوضع لتنفيذه خطة تتناول عدة مراحل ، أولاها إعداد

مستلزمات الرحيل . والثانية الخروج من بيته . والثالثة الاستخفاء عن أعين قريش فى الطريق الصحراوى بين مكة والمدينة .

أسلوب العمل : الكتمان

وكان الأسلوب الذى اتبعه رسول الله لتنفيذ هذه الخطة هو الكتمان ، ولاغرو أن يتخذ هذا الأسلوب وهو القائل : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » والعدو محيط به من كل جانب ، يرصد حركاته ولاتغفل عنه عينه ، وهو يملك كثرة العدد والعدة كما يملك الحيلة والدهاء ، والمعركة فاصلة ، معركة حياة أو موت لكل من الطرفين .

والتزاماً بمنهج السرية التامة ، أخفى النبى عزمه على الهجرة عن أصحابه جميعاً فيما خلا أبا بكر وعلى بن أبى طالب، بل إنه لم يحطهما علماً بالأمر إلا قبل التنفيذ مباشرة أما على بن أبى طالب فقد أمره إليه النبى فى ليلة الهجرة -- وفتيان قريش يحاصرون داره فى الليل خشية فراره — أن يتسجى رداءه وأن ينام فى فراشه حتى يقع فى وهم المتآمرين أن الرسول ما يزال نائماً لم يبرح داره ، فاذا استبانوا جلية الأمر فى ضحى الغد كان هو على مسافة بعيدة عنهم . وصدع على بالأمر .

وأما أبو بكر فقد خرج النبى إلى داره فى الثلث الأخير من الليل — وهو موعد غير مألوف — وذلك فى غفلة من شبان قريش الذين كانوا ينظرون من فرجة إلى مكان نومه فيرون فى الفراش رجلا فتطمئن نفوسهم إلى أنه لم يتغير . وخرج محمد وصاحبه من خوخة فى ظهر دار أبى بكر — زيادة فى الاحتياط — وانطلقا فى الصحراء . وكان أبو بكر قد أعد راحلتيه ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط الذى وقع عليه الاختيار دليلا فى الرحلة .

الطريق

ومثلما أحكم رسول الله تدبيره باختيار رفيق الرحلة ، ودليلها ، وخليفته فى بيته، رسم مخططه على أساس أن قريشاً سوف تتبعه مقتفية خطاه هو وصاحبه بعد أن تعلم بخروجهما من مكة، فاعتزم أن يتخذ الطرق غير المألوفة مسلكا ومساراً . وهكذا اختار الطريق الذى يتفق مع الظروف ، كما اختار من قبل المكان الذى يهاجر إليه ، والزمن الذى يخرج فيه . فسار مع أبى بكر جنوباً إلى غار ثور ، لأن اتجاههما نحو اليمن لم يكن متوقعا .

التخطيط فى سير الأنبياء والمصلحين

إن هذه الحضارة الإسلامية التى انتقلت بها البشرية من الظلمة

إلى النور ، وخطت بها أشواطاً طوالا فى مسيرتها إلى الأمام ، لم تكن لتزهر وتؤتى ثمارها لولا قيامها على أساس من الفكر الحر المستنير . فلا غرو أن كان التخطيط سبيلها وكان عمادا للتقدم العلمى فى الإسلام ، لأنه لايعدو كونه خلاصة للتفكير والتدبير ، وأسلوبا للعلم الحق والمعرفة الصحيحة . ولقد انتهج أصحاب الرسالات السماوية أسلوب التخطيط فى دعوتهم وجهادهم ، كما طبقوه فى معاملاتهم وفيما اضطلعوا به من مهام وأعمال . فأقاموا عليه نظام مجتمعاتهم سواء فى المجال العقدى أو المجال الاجتماعى أو المجال الاقتصادى ، سواء أكان ذلك فى السلم أم فى الحرب .

ولا غرابة فى أن يخطط الرسل والأنبياء للدعوة وللعمل ، لأن الأديان السماوية جميعها تحث على إعمال الفكر فى أحوال الطبيعة وفى شئون النفس لمعرفة الخالق وإدراك حقيقة الوجود والموت ، والإلمام بالعالم المحيط بالإنسان فى سبيل استخدامه لصالح البشرية .

فالفكر القائم على التأمل والتجربة معا هو مصدر المعرفة، والمعرفة هى أساس السلوك السوى فى علاقة الإنسان بالخالق والمخلوق ، وصلاح العالم رهن بهذا السلوك فى كل مكان وزمان . والرابطة بين التفكير

والتخطيط رابطة عضوية لا تنفصم ، لأن التفكير عماد التخطيط وهو عمل مضاد للجزافية .

ومن هنا كان التخطيط ركيزة أساسية يقوم عليها الدين وتبدو الأهمية البالغة لهذه الركيزة إذا عرفنا أن التفكير السليم هو الطريق إلى العلم ، وأن العلم هو الطريق إلى معرفة الحق والخير والعدل،وهذه المعرفة كفيلة بدورها بتحرير البشرية من الباطل والبغى والعدوان .

إن الأديان السماوية تستهدف إعادة تشكيل الإنسان لتحقيق حياة أفضل عن طريق التفكير والتدبر والتدبير،فهذا الطريق وحده هو الذى يقود الإنسان إلى الإيمان بالحقيقة ، وكشف زيف الرجعية ، وتحطيم صروح الطغيان وإرساء مبادىء المساواة والعدالة بين العالمين.

والتفكير يسبق العمل،لأنه يوضح هدفه ويحدد خطواته ، وبالعلم والعمل تتفتح أمام الأفراد والجماعات آفاق رحيبة ، وتتفجر الطاقات الخلاقة ، وتزول المغالق والسدود التى تقف حائلا بين الفرد وبين تطوير نفسه وتطوير مجتمعه وتطوير عالمه .

فإذا تأملنا سير الأنبياء والمرسلين ، تبين لنا أن التخطيط المحكم كان دستوراً التزموا به فى مختلف مراحل دعوتهم ، التزموه فى إقناع الناس بالحق وفى فل سلاح المضللين ، كما اتبعوه فى سياسة الحكم

وإدارة شئون مجتمعاتهم . وتبين أن القدرة على وضع الخطة المناسبة موهبة أودعها الله إياهم. فالرسل والأنبياء هم قادة البشرية ، والتخطيط هو أبرز سمات القيادة الحكيمة .

الخطة الاقتصادية ليوسف عليه السلام

ومن ذلك تلك الخطة الدقيقة التى وضعها يوسف عليه السلام فى مجال الاقتصاد، لتكون منهاجاً يهتدى به الناس ودستوراً يلتزمون به ، وأسلوباً ينظم حياتهم فى معيشتهم .

ذلك أن ملك مصر قد رأى فى منامه رؤيا أثارت فزعه،فاستدعى أهل العلم والرأى وطلب منهم تفسيرها .

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » .

وكذلك أعلن وزراء الملك وعلماؤه عجزهم عن تفسير رؤياه . وكان عند الملك خادم يسقى ماء ، وكان رفيقاً ليوسف فى السجن ، فتذكره وذكر وصيته له أن يذكره عند سيده . « وقال الذى ظن

أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك ، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين » .

فقال الخادم للملك : إن فى السجن فتى يقال له يوسف، عالم بتأويل الأحلام وتفسيرها ، واستأذن أن يذهب إليه ليأتى بالخبر اليقين . فلما دخل على يوسف قال :

« يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » .

وفسر يوسف البقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر بسبع سنوات خصبة ، تأتى بخير كثير يعم الأرض ومن عليها إذ يفيض النيل ، فتكثر المحصولات الزراعية ، ويزدهر الرخاء فيسعد الناس .

وفسر السبع العجاف والسبع اليابسات بسبع سنين مجدبة تقل فيها مياه النيل ، فتصاب البلاد بالقحط ، وتأتى هذه السنوات الجدباء فى أعقاب سنوات الخير ، فيأتى الناس على ما تبقى من المحاصيل ولا يجدون بعدها شيئاً ، فيعم البؤس والمسغبة . ثم يأتى من بعد ذلك عام يغيث الله الناس مما هم فيه من جوع ، وفقر وتكثر الخيرات وتفيض النعم .

وطلب يوسف من رسول الملك أن يوصيه باتباع النظام الذى سوف يضعه يوسف للبلاد حتى يستطيع أن ينقذها من آثار القحط فى تلك السنين السبع الجدباء فقال :

« تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

وإذا تأملنا ذلك النظام الذى نصح به يوسف عليه السلام ، تبينا أنه خطة طويلة المدى تستهدف مصلحة الجميع ، حتى لا يستأثر بفائض أموال المجتمع فرد مسيطر مستبد أو قلة طامعة مستغلة ، خطة تقوم على أساس واقعى ، مستفيدة من دروس الماضى وعبره ، آخذة فى حسبانها احتمالات المستقبل .

فها نحن أولاء نتبين خطة متكاملة استمرت خمسة عشر عاما وازن فيها يوسف عليه السلام بين الإنتاج وتقييد الاستهلاك والادخار وإعادة الاستثمار ، واستطاع أن يحل بها صورة من صور « المعادلة الصعبة » وهى ضرورة زيادة الإنتاج لمواجهة زيادة الاستهلاك . فالحل هنا هو العمل الدائب وادخار بعض العائد لاستهلاكه فى السنوات

التى تنذر بالقحط ، وما يستتبعه من قلة ثمرات الإنتاج ، وبالتالى العجز عن تلبية الاحتياجات .

إن عناصر الخطة الاقتصادية المحكمة تتجلى فى هذه الآيات القرآنية بمضمون عصرى كامل ، ولا اختلاف إلا فى المصطلحات التى وضعها علماء الاقتصاد المحدثون ، فالعمل هو الزراعة ، والإنتاج هو الحصاد ، والادخار والاستهلاك يعبر عنها بقوله تعالى : « فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون »[1] .

---

(١) جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم الذى وضعته لجنة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وأصدره المجلس فى القاهرة ١٣٨٧هـ — ١٩٦٨م ص ٣٣٩ ما يأتى تفسيراً لهذه الآيات البينات:

قال يوسف: تفسير هذه الرؤيا أنكم تزرعون الأرض قمحاً وشعيراً سبع سنين متواليات، دائبين على العمل فى الزراعة ، فما تحصدونه احفظوه فاتركوه فى سنبله ، الا قليلا مما تأكلونه فى هذه السنين ، مع الحرص على الاقتصاد . والرؤيا كما جاء فى الآية السابقة :

(يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) وتتفق هذه الآيات مع ما وصل اليه العلم الحديث من أن ترك الحب فى سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات ، وفوق ذلك يبقيه محافظا على محتوياته الغذائية كاملة . وأن ذلك الإلهام كان لنبى من أنبياء الله وهو يوسف عليه السلام .

وإذا عقدنا مقارنة بين المفهوم الحديث للتخطيط الاقتصادى وهو وضع خطة لتنظيم وتنسيق وتخصيص الموارد وتعبئتها لتحقيق هدف متفق عليه بتوقيت زمنى يلتزم المواءمة بين الموارد وبين الأهداف — إذا عقدنا مقارنة بين هذا المفهوم وبين التخطيط كما ورد فى القرآن على لسان يوسف عليه السلام،أدركنا تطابق المفهومين فى الخطوط العامة، ومن ثم فإن الخطة التى وضعها يوسف عليه السلام منذ آلاف السنين لاتصدر إلا عن رجل سبق عصره بفضل ماأبداه من حصافة العقل ونضج الفكر وسداد الرأى وبعد النظر وصواب الفهم ، وهى تمثل الصفات التى ينبغى أن تتوافر فيمن يتصدى لمسئوليات التخطيط .

فلا غرو أن يدعو الملك يوسف عليه السلام ليتقلد منصب وزير مالية مصر واقتصادها فيلبى يوسف تلك الرغبة ، ويستجيب لحاجة البلاد إلى كفايته وذكائه ، وسياسته وحكمته ، وحسن تصرفه فى الأمور ، وتدبيره لشئون الرعية ويضرب يوسف المثل الرائع للمخطط الكفء إذ يشرف على جباية الأموال ، وتنمية الثروة ، ومضاعفة الدخل ، ومبادلة السلع ، وزيادة الإنتاج، وإتاحة فرص العمل للأيدى العاطلة ، واستثمار جميع الجهود والثروات .

وجاء الإسلام، فكان رسالة الدين القائم على حقائق الحياة والمستهدف هداية الفرد إلى طريق الحق وإصلاح المجتمع في كافة جوانبه. ولم يكن ثمة سبيل إلى تحقيق هذه الغاية إلا العلم، فلا جرم أن يغدو العلم — كما بينا فيما سبق — ركناً ركيناً في المجتمع الإسلامي. ولما كان العلم والتخطيط صنوين متلازمين، فإن التخطيط يعد بدوره أساساً من أسس هذا المجتمع.

والإسلام دين ودولة، وإذا كان الدين يقوم على الفكر المتحرر من الأوهام والخرافات، فإن دولة الإسلام تتخذ من الفكر عماداً لنهضتها، ولهذا كان التخطيط منهجاً أساسياً لها.

وليس أدل على ذلك مما أجمع عليه الباحثون والمنصفون على اختلاف عقائدهم من أن التنظيمات الفكرية والعلمية كانت الدعامة القوية التي استندت عليه الدعوة الإسلامية في الوصول إلى هدفها، وهو إقامة مجتمع جديد يقوم على ربط الأرض برسالة السماء من طريق صلاح النفس وصلاح المجتمع — كما ذكرنا آنفا — كما كانت الدعامة القوية التي قامت عليها الدولة الإسلامية في عصور ازدهار الإسلام.

والإسلام هو دين العمل، فالعمل واجب على كل فرد، وهو

قيمة أساسية فى نظام الإسلام ، شأنه فى ذلك شأن سائر القيم التى يدعو الإسلام إلى اعتناقها ، وهو أصل يتفرع منه كثير من المثل العليا ، لأنه السبيل إلى تحرير النفوس من ذلة المسألة والاعتماد على الغير ، بمعنى أنه السبيل إلى تكوين الشخصية المستقلة ، شخصية الفرد وشخصية الأمة .

ولا يمكن تصور العمل بغير تخطيط له ، ولذلك كان التخطيط أساساً فى الإسلام ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع أو على مستوى الدولة .

وتأسيساً على ذلك ، فان التخطيط كان أحد الأسباب الجذرية التى أدت إلى تثبيت عقيدة الإسلام القائمة على العلم والعمل ، وانتشار حضارته فى معظم أنحاء العالم ، وكان حجر الزاوية فى البناء الفكرى الإسلامى سواء فى المجال العقدى أو المجال الحضارى ، فلا غرو أن نعده أساساً لما بلغه المجتمع الاسلامى من تطور شامل فى مجالات الادارة والاجتماع والاقتصاد والحرب وغيرها .

التخطيط تكليف للكافة بحكم القرآن :

إن التخطيط هو إعداد العدة للمستقبل . والإسلام إذ يشرع قواعده ويرسى قيمه ومثله ، إنما يرمى إلى تحقيق مستقبل أفضل للبشرية ، وشعاره فى ذلك : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً

واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ».

لذلك فقد دعا الإسلام إلى الأخذ بالتخطيط وجعله نظاماً لحياة المسلمين لأنه ضرورة لا غنى عنها . والحث على التخطيط أمر صريح ينص عليه قوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) .

وبهذا الأمر يدخل التخطيط في نطاق التكاليف الموجه إلى الكافة

التخطيط في السنة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ـ بنت النخلة ـ فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر » .

والمتأمل في معنى هذا الحديث الشريف يدرك المنزلة الرفيعة التي خص بها النبي ـ عليه السلام ـ التخطيط ، فليس ثمة دعوة إلى انتهاج التخطيط أبلغ من هذه الدعوة ، إذ يستفاد من مضمون الحديث أن التخطيط للعمل واجب على المسلم بغض النظر عما إذا كانت فائدته ستعود عليه شخصياً أو لا تعود . فالمسلم الحق هو الذى ينجز العمل

الذى استعد له من بدايته إلى نهايته طالما وسعه ذلك ، لا ينظر إلى منفعته الخاصة وإنما ينظر إلى قيمة العمل ذاتها .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث المسلم الذى انعقد عزمه على غرس نخلة ، وأعد عدته لهذا العمل ، فجهز البذرة واختار بقعة الأرض المناسبة للغرس ، ولكنه لم يكد يدخل فى مرحلة التنفيذ حتى ظهرت علامات يوم القيامة – وهى النهاية المحتومة للحياة الدنيا – إن الرسول الكريم يحث المسلم فى هذا المقام على إتمام الخطة التى أعدها إن استطاع ذلك ، على الرغم من أنه لن يستفيد هو أو غيره من الجيل منها كما يبدو من ظاهر الأمر .

ويحفز النبى المسلم على الاستجابة لتلك الدعوة بما سوف يناله من أجر على فعله ذلك . ولا شك فى أن هذا الحفز دليل على الأهمية البالغة للمبدأ الذى يشرعه رسول الله عليه الصلاة والسلام على التزام المسلمين به .

الفصل الثالث

التنظيم فى الهجرة

تمهيد :

يحظى التنظيم بالأهمية المتزايدة التى أصابها التخطيط ، إذ أنهما - من حيث موقعهما فى الحضارة الحديثة - أشبه بوجهين لعملة واحدة، وهو يعد فى مقدمة الفروع التى ينظمها علم الإدارة العامة ، الذى تشعبت دراساته وتعددت فروعه ، بحيث أصبح كل فرع منها يكاد يؤلف علماً قائماً بذاته ونظراً لأهمية التنظيم فإن بعض العلماء والباحثين يستخدمون كلمتى التنظيم والادارة كلفظين مترادفين. ويرجع ذلك إلى أن التنظيم هو الأداة التى تستخدمها الادارة لتنفيذ سياستها وهو بهذا المعنى لب الادارة وجوهرها ، إذ لا يتصور قيام الادارة الرشيدة بغير أداتها . وطالما وجدت مجموعة من الأفراد فلا بد أن يكون هناك تنظيم . ولسهولة إيضاح معنى التنظيم يمكن القول بأن تعريفه لايخرج عن المعنى الدارج للكلمة نفسها والتى تدل على وضع كل شخص فى مكانه وترتيب كل شىء فى مكانه ، مع ربط الأشخاص بعضهم ببعض والأشياء معاً من أجل خلق انسجام وتوافق تام.

تعريف التنظيم :

ويعرف بعض العلماء التنظيم بأنه تجميع جهود الأفراد الممثلين للقوى البشرية العاملة وفقاً لصلاحياتهم وقدراتهم ومواهبهم وتخصصاتهم المختلفة . ثم تنسيق هذه الجهود داخل الهيئة التي تجمعهم ، لتيسير مهمة الادارة وتمكينها من رفع كفاية العاملين ، وتحقيق الهدف المشترك .

كما يعرف التنظيم بأنه اتحاد مجموعة من الأفراد لتحقيق هدف مشترك ، عن طريق حصر وترتيب وظائف الجهاز الادارى الذى يعمل لانجاز غاية معينة ، وتحديد السلطات والمسئوليات الخاصة بالأفراد الذين يمارسون هذه الوظائف .

وثمة تعريف آخر للتنظيم وهو أنه ترتيب العلاقات المتبادلة بين الجماعات والأفراد الذين يتعاونون معاً على مستويات مختلفة فى هيئة معينـة ، لتحقيق غرض عام ، وتربطهم سلسلة من الروابط الهيكلية والوظيفية المختلفة . والقصد من وراء ذلك هو ضمان أكمل استخدام للموارد المادية والبشرية المتاحة ، وكذلك الحد — ما أمكن — من أسباب استنفاد الجهود وضياعها سدى .

ومن تعريفات التنظيم أنه ربط جهود وإمكانيات الأشخاص

والجماعات الذين يقومون بعمل مشترك بغية تحقيق الأهداف المرجوة بأقل جهد وأوفر إرضاء لأولئك الذين يؤدون هذا العمل والذين يؤدى العمل من أجلهم .

كما عرفه بعض علماء الإدارة بأنه يدل على معنى أكثر من الجهاز الادارى للمؤسسة ، فهو ليس الجهاز الادارى فحسب بل هو جسم ينبض بالحياة ويقوم بجميع الوظائف التى يتطلبها العمل من دورة دموية ونبض وضربات قلب وتنفس وحركة وحيوية للوحدة التنظيمية .

ويمكن أن يعرف التنظيم فى النهاية بأنه التصميم أو الإجراءات التى تتخذ بغرض تحديد السلطات والمسئوليات وتنظيم العلاقات حتى يتسنى للأفراد أن يعملوا عملا مشتركا بتناسب كامل وانسجام تام لتحقيق الهدف المنشود .

فوائد التنظيم :

لاشك فى أن للتنظيم أثره الفعال فى أداء العمل وتنفيذه وتحديد اختصاصاته ، وكذلك تحديد المسئولية من هذه الاختصاصات تمكن من الإشراف على التنفيذ ، ومتابعة نتائجه ، وتقدير مدى كفاية وسائل أدائه ، الأمر الذى ييسر على الهيئة القيادية أن تباشر أعمالها

فى التخطيط والاشراف والتوجيه وتدارك الملاحظات ، وعلاج المصاعب وحل المشكلات التى تعترض تنفيذ خطة العمل ، سعياً وراء بلوغ أقصى درجات النجاح .

ويمكن تحديد فوائد التنظيم فى النقاط الآتية :

— يقلل من الاحتكاك والتضارب بين الأشخاص ، وذلك بتحديده للمسئوليات والسلطات تحديداً دقيقاً واضحاً يكفل لكل فرد معرفة الحدود التى لا يجوز له تجاوزها ، وكذا الحدود التى يلتزم غيره بالعمل .

— يجعل المجموعة تعمل فى تناسق كامل وبتعاون كبير لتحقيق الهدف .

— يكفل الاستخدام الأمثل للطاقات البشرية والامكانيات المادية .

— يشيع حالة من الرضى والارتياح فى نفوس جميع المشتركين فى الجهد الجماعى .

— يمكن من الرقابة الفعالة على جميع الأعمال ومحاسبة كل فى حدود اختصاصه .

— يكفل الاستفادة من التخصص ، وذلك بوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب .

— يكفل التوجيه الدائم للأفراد وتصحيح الانحرافات فى حينها نظرا لما يتطلبه من ضرورة النظر فى نطاق الاشراف الملائم لكل مشرف .

مبادىء التنظيم

استقر علماء الادارة على أن من أهم مبادىء التنظيم وطرق العمل تحديد وتعريف السياسة التى يلتزم الجميع بتنفيذها وإعلانها لهم ، وتقسيم العمل وتخطيطه ووضع برامج تنفيذه ، وضرورة اقتران المسئولية بالسلطة المناسبة لها ، وعدم جواز تلقى الفرد الواحد أوامر من أكثر من رئيس، وتنظيم العلاقات بين العاملين، وتوفير القيادات الرشيدة ، وتحقيق التنسيق بين جميع التنظيمات من الأفراد .

فإذا أردنا إنشاء مشروع فان خطوات العمل التى ينبغى أن نتبعها لحسن تنظيم هذا المشروع وضمان نجاحه هى :

أولا : تحديد الهدف أو الأهداف التى يسعى إلى تحقيقها .

ثانياً : تحديد مكونات ذلك المشروع .

ثالثاً : بيان خطوات السلطات وحدود المسئوليات فيه .

وتتم الخطوة الثانية على مراحل تبدأ بمرحلة اختيار الأفراد الذين يقومون بالأعمال المؤدية إلى بلوغ الهدف، وإسناد العمل المناسب إلى كل منهم بحسب قدراته وخبراته، أو بعبارة أخرى تقسيم العمل بينهم وفقاً لتخصصاتهم، وتحديد سلطاتهم وواجباتهم، ثم توجيههم والإشراف عليهم لكفالة سيرهم فى الطريق الصحيح بأعلى قدر من الكفاية والتزامهم بالتوجيهات وتعاونهم فيما بينهم. ومن أهم واجبات رب العمل فى هذا الصدد توعية الأفراد بدور كل منهم منفرداً ودورهم مجتمعين فى ضوء الرسالة المنوط بهم القيام بها، ورفع معنوياتهم وإثارة حوافزهم، وحسن معاملتهم، ومكافأة المجد منهم، وإرشاد المخطىء إلى مواضع خطئه ليتقيها فيما بعد.

أما الخطوة التالية لتنظيم الدعامة الانسانية أو القوة البشرية فهى إعداد وتنظيم القوة المالية والمادية ويعنى بها الأموال والموارد والآلات اللازمة للمشروع.

عوامل نجاح التنظيم:

هناك عدة قواعد يجب مراعاتها فى التنظيم حتى تكفل لها النجاح

١ — الملاءمة: يجب أن يكون التنظيم ملائماً تماما للعملية المراد القيام بها، ويجب أن تدرس كل عملية من العمليات المراد القيام بها بوضوح، وهذا تكفله الخطوة السابقة من خطوات الادارة.

ب — الواقعية : يجب أن يكون التنظيم واقعياً ، ومن الميسور تطبيقه وتنفيذه على ضوء ظروف كل عملية على حدة ، فالاعتماد على النظريات وحدها فى هذا المجال قد يعرقل التنظيم عند تنفيذه .

ج — الشرعية : يجب أن يتمشى التنظيم مع القوانين والقيم التى تحكم المجتمع .

د — البساطة والوضوح : يجب أن يكون التنظيم واضحاً حتى يسهل لكافة الأفراد المشتركين فى العمل فهمه ويجب أن يكون بسيطاً فى مستوى إدراك أقل الأفراد فى الجماعة ثقافة وعلما حتى يحظى بقبولهم .

تلك هى أصول التنظيم العلمى ومبادئه وضمانات نجاحه كما حددها العلماء والباحثون فى هذا العصر . ويستبين منها أن جوهر التنظيم هو تنسيق الجهود وتوزيع العمل ، فهو يحدد الخطوات التى ينبغى اتخاذها كما يتناول العنصر البشرى واضعا له النظام الذى يكفل تحقيق الخطة المحددة . وإذا لاحظنا تلك المبادىء الأساسية فى الإسلام ، أدركنا سر اهتمامه بالتنظيم بوصفه الوسيلة المثلى لادارة شئون الجماعة على النحو الذى يكفل تحقيق غايات الاسلام ومقاصده .

إن سر نجاح الاسلام فى نشر معتقداته هو قدرة الطلائع من قادته على تشكيل الصفوف وتعبئة الجهود فى سبيل إنجاز الهدف الذى اتفق عليه المسلمون وهو إقامة مجتمع متماسك يقوم على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وانشاء دولة تقوم على الحق والمساواة والعدالة

ولقد اهتدى هؤلاء القادة الأعلام بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلكوا مسلكه فى تنظيم المسلمين وادارة شئونهم على أساس قواعد سليمة محكمة .

فالنظام أساس فى الاسلام ، لأن غايته هى الارتفاع بمستوى الانسان فكرياً واجتماعياً واقتصادياً ، ولا سبيل الى هذه الغاية إلا بتنظيم القوى الانسانية تنظيما سديداً يحدد فيه موقع كل فرد من الجماعة التى ينتمى إليها ، ويحدد الدور الذى يضطلع بأدائه ، ويوضح حقوقه وواجباته .

ولقد انتصر الإسلام فى مواقعه الكبرى ضد أعدائه بفضل حشد الطاقات البشرية التى يملكها على أساس من التنظيم الادارى السليم ، فثمة هدف مرسوم معلن للجماعة هو تثبيت أركان الدولة الإسلامية الناشئة ، وثمة قيادة قادرة على تحريك الجماعة نحو تحقيق هذا الهدف . والأسلوب الذى اتبعته هذه القيادة هو التنظيم بما يتضمنه ترتيب للجهود

وتنسيق بينها ، وتدرج للسلطات على قدر المسئوليات، وتقسيم للأعمال تقسيما يقوم على أساس وضع الشخص فى موضعه الصحيح ، ورفع روحه المعنوية .

الهجرة عمل جمعى منظم

فإذا درسنا هجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى وقائعها المتتابعة المتكاملة ، تبين لنا أنها عمل جمعى هادف تتوافر فيه تلك الأصول والمبادىء والضمانات ،وأن جميع الخطوات التى اتبعها محمد رسول الله تتسق مع خطوات العمل بحسب مفهوم علم التنظيم وطرق العمل الحديث . وأول ما يسترعى النظر فى هذا العمل الدينى الإنسانى الذى يمثل مرحلة انتقال كبرى فى الإسلام وحدثا من أجل الأحداث فى تاريخ الديانات والحضارات ، أن رسول الله لم يقم به منفرداً ، إذ شاءت إرادة الله عز وجل أن يقوم به متعاونا فى ذلك مع قلة من الرجال والنساء ، وكان سبحانه قادراً أن يجعله وقفاً على رسوله صلوات الله وسلامه عليه لا يسانده إلا عون الله وتأييده ولعل الحكمة الإلهية فيما اختاره لصفيه من عمل جمعى لا فردى أن يكون ذلك نواة للعمل فى سبيل إنشاء المجتمع الإسلامى الكبير فى الجزيرة العربية ثم فى سائر أنحاء العالم ، لما يتطلبه هذا الهدف من قدرة على التنظيم

لاتتأتى إلا بالتدريب واكتساب الخبرة من خلال التجارب العملية

الاختيار وتقسيم العمل فى الهجرة :

ولما كان تنظيم الجماعة يعتمد فى المقام الأول على قاعدتين أولاهما حسن اختيار الأفراد المنوط بهم التنفيذ، والثانية وضع كل منهم فى الموضع الذى يتفق مع موهبته وقدرته، فسوف نتناول فيما يلى شخصيات أصحاب رسول الله ومعاونيه فى الهجرة للتدليل على توافر هاتين القاعدتين

(أولا) اختيار أبى بكر

فلقد اختار رسول الله لمرافقته فى رحلته الكبرى أبا بكر الصديق دون سائر أصحابه عليه السلام ، فكان اختياراً موفقاً أجل توفيق ، لأن أبا بكر كان أصلح الصحابة للقيام بهذه المهمة ، كما أن هذه المهمة لم تكن تصلح إلا به، وتاريخ أبى بكر قبل الإسلام وبعده يؤيد هذه الحقيقة ويرشحه لهذا الاختيار النبوى فلقد كان قبل أن يدخل الإسلام مثالا لحسن الخلق رحب الخير والعطف على المحتاجين . ومن أجل ذلك كله احترمه الناس .... وعظموه وجعلوه موضع ثقتهم وإجلالهم ومشورتهم، وكان صاحباً للنبى صلى الله عليه وسلم قبل رسالته، وكان كل منهما يعز الآخر ويخلص له . فلما نزل الوحى على سيدنا محمد كان أبو بكر أول رجل تحدث إليه النبى بما

أوحى إليه ، ودعاه إلى عبادة الله بعده ، فلم يتردد أبو بكر لحظة واحدة ، وآمن بمحمد وصدقه ، فكان أول رجل دخل الإسلام ، ولم يشاركه فى هذا السبق غير على بن أبى طالب رضى الله عنهما . ولما أسلم أخذ يحبب الإسلام إلى أصدقائه ويدعوهم إلى الإيمان بمحمد وعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، فاستجاب له رجال لهم مكانتهم العظيمة ، وشهرتهم الواسعة فى طريق الإسلام .

أسلم عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص،هؤلاء وغيرهم أسلموا اقتداء بأبى بكر، ثم كانوا قدوة لغيرهم ، لتتابع الناس من بعدهم يدخلون فى دين الله ويؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . فكان ممن أسلم أبو عبيدة بن الجراح ، وعمر بن الخطاب ، ثم أسماء وعائشة ، بنتا أبى بكر ، وكان إسلامهما دليلا على تحمس أسرة أبى بكر لدين محمد وهديه القويم .

فلا غرو أن يكون أبو بكر — وقد سماه النبى الصديق لأنه أول من صدقه من الرجال حين دعاه إلى الإسلام . أنسب أصحابه لصحبته فى مسيرته العظمى من مكة إلى المدينة ، ذلك التناسب بين العمل والرجل الذى تشهد بصحته ودقته صفات أبى بكر . فلقد

كانت هذه الصفات تتفق مع طبيعة العمل الذى يرشحه له الرسول وهو الإعداد للهجرة ومرافقته فيها أجل ، كانت ملامح شخصية الصديق تؤهله أكثر من غيره لهذه الدور الخالد فى تاريخ الإسلام ، دور الشريك فى الجهاد والرفيق فى رحلة الخلاص من اضطهاد المشركين . وكان أهم هذه الملامح أن أبا بكر كان أعظم الناس إخلاصا وحبا لرسول الله وجدارة بثقته ، وأهلا للشرف الذى أسبغه عليه ، شرف صحبته . ولا شك أن التجاوب بين رجلين واتفاقهما فى المنازع والأهداف ، وتفانيهما فى سبيل أداء الرسالة التى أؤتمنا عليها هى الضمان الأكيد لنجاح هذه الرسالة .

تلك هى عوامل اختيار الرسول لصاحبه فى الهجرة . وثمة عامل آخر يضاف إليها وهو شجاعة أبى بكر وقوة احتماله وغير ذلك من صفات الثبات والجلد وكتمان السر ، والتضحية بالنفس والنفيس التى تقتضيها مثل هذه المهمة الشاقة ، ويتطلبها مثل هذا الموقف البطولى فضلا عن القدرة على إعداد متطلبات الرحلة من وسائل الركوب وغيرها ، وتقديم القوة البشرية التى تمثلت فى أولاده وخادمه . وليس بدعاً أن تتكامل تلك المناقب والقدرات فى شخص الصديق رضى الله عنه وهو الذى صدق الرسول حين أخبره بأن الله أسرى به من المسجد

الحرام إلى المسجد الأقصى ، وقد كذبه كثير من قريش حين قالوا لأبي بكر « صاحبك يحدث الناس في المسجد ، ويزعم أن أسرى به إلى بيت المقدس ، وكيف يذهب إلى بيت المقدس ويرجع إلى مكة في ليلة واحدة » .

فقال لهم أبو بكر : « والله إن كان قاله لقد صدق ، وما العجب في ذلك .

فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ينزل عليه من السماء إلى الأرض ساعة من ليل أو نهار فأصدقه إذا أخبرني أنه أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » . فقال النبي « أنت الصديق يا أبا بكر » .

وأبو بكر هو الذي دافع عن رسول الله في المحنة كما لم يدافع عنه أحد من قومه ، معرضاً نفسه لنقمة قريش واضطهادهم ، واضعا ماله الوفير وجاهه العريض وحياته موضع التهديد ، قائلا حين رأى بعض الكفار يسخرون من النبي ويستهزئون به ، ويقوم نفر منهم فيلتفون حوله يلومونه أن عاب دينهم وسفه عقولهم وحارب أصنامهم ، ويجذبونه من ردائه جذبة قوية ، ويلفون ثوباً حول عنقه ويخنقونه خنقاً شديداً . هنالك أشفق أبو بكر على صاحبه رسول الله ، وعز عليه أن يعذب على هذه الصورة ، فنهض مسرعاً ودفع الكفار عن

الذى ، وحال بينهم وبين تعذيب الرسول وإيذائه ، وقال وهو يبكى برآ بالرسول وشفقة عليه : «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله» .

هذا هو الصديق العظيم أبو بكر الذى نزل فيه قوله تعالى إذ حرر الأرقاء فأعتق من أعتق من صغار القوم لايريد بذلك - كما قال إلا وجه الله تعالى ورضاه : « فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى »

فلم يكن من المستغرب إذن أن يختاره رسول الله لمشاركته تجربة الرحلة العظمى من مكة إلى يثرب ، كما اختار موسى أخاه هارون ليشد الله به أزره ويشركه فى أمره وكانت الحكمة من وراء هذا الاختيار وهى ملاءمة الصديق لهذه التجربة من جانب ، ومكافأة له إذ ينال هو الشرف وتلك النعمة ومايكتب لصاحبها عندالله من أجر وفى تاريخ الإسلام من درجة رفيعة من جانب آخر .

وفى رأيى أن هذه المشاركة كانت تأهيلا وتدريباً لأبى بكر على خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم . ذلك أن القائد الحق هو الذى يختار له خليفة أو رجلا ثانياً وفقاً لمصطلحات علم الإدارة وبعده لتولى مسئولياته من بعده وسد الفراغ الذى يتركه ، وليس كمثل الهجرة حدث عامر بالدروس المفيدة فى الحاضر والمستقبل . واختيار الرسول

أبا بكر للقيام بتلك المهمة الجليلة إيحاء للمسلمين بأنه أصلح الصحابة لخلافته عليه السلام وحث لهم على اختياره لاستكمال رسالة الإسلام بعد أن يختار الله لرسول إلى جواره . ومثل هذ مافعله الرسول حين أناب عنه أبا بكر ليؤم المسلمين فى الصلاة حين أقعده عنها المرض وأحس بدنو الأجل فإن اختياره عليه السلام لاصديق دون غيره من الصحابة فى هذا المقام إشارة إلى أنه الأصلح والأجدر ، واستخلاف له على أمة الإسلام .

ونظرا لما اقتضه خطة الهجرة من تكتم وما اقتضه فى الوقت ذاته من إعلام أبى بكر ليعد لها العدة ، فلقد أبلغ الرسول الأمر إلى أبى بكر تلميحاً لاتصريحاً. وذلك أنه لما أذن لأصحابه أن يهاجروا من مكة إلى المدينة طلب أبو بكر منه أن يأذن له فى الهجرة ، فقال رسول الله : « لاتعجل يا أبا بكر ، لعل الله يجعل لك صاحباً » .

وفهم أبو بكر من هذه الجملة أنه قد يصاحب الرسول فى هجرته فاستعد ، وجهز راحلتين تنقلانه هو والرسول إلى المدينة . فلما أذن الله للنبى بالهجرة وأخبر أبا بكر بذلك ، فاضت دموع الصديق من فرط السرور وأخذ يقول : « الصحبة يارسول الله الصحبة يارسول الله » . فقال الرسول « الصحبة يا أبا بكر » فبكى أبو بكر من شدة الفرح .

وخرجا سراً فى ظلام الليل ، وسارا يقطعان عرض الفلاة حتى اختبآ ثلاث ليال بغار فى جبل ثور . وهنا نلتقى بآية من آيات الحب العميق الذى ربط بين قلبى الصاحبين . فلقد جد الكفار فى البحث عن محمد وصاحبه إلى أن وقفوا على باب الغار ، فقلق أبو بكر خوفاً على حياة الرسول وقال له : « لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا » .

فقال النبى : « يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا ، يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

فهدأت نفس أبى بكر ، وعاد إلى قلبه الاطمئنان ، وفى ذلك نزل قوله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها » .

وهكذا يضع محمد عليه السلام الرجل المناسب فى المكان المناسب باختياره أبا بكر رفيقاً له فى الهجرة من قبل أن يضع علماء التنظيم الإدارى تلك القاعدة بنحو أربعة عشر قرناً .

اختيار على بن أبى طالب

وإذا حللنا شخصية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، تبينا دقة اختيار محمد عليه الصلاة والسلام له فى المهمة التى ناطها به فى الهجرة وتطابق تلك القاعدة الحديثة مع ذلك الاختيار التاريخى الخالد .

ذلك أن قريشاً لما رأت أن المسلمين يهاجرون أفواجاً إلى المدينة ، وأن أهل المدينة يدخلون فى الاسلام ، خشوا أن يزداد انتشار دعوة محمد عليه السلام ، وأن يفلت الزمام من أيديهم ، وخاصة أن المدينة كانت فى طريق قوافلهم التجارية إلى الشام فقالوا : هذا شر شاغل لا يطاق وأجمعوا أمرهم على قتل النبى صلى الله عليه وسلم بعد مشاورات لهم بدار الندوة كما سلف البيان . وكانت المؤامرة التى دبروها أن تقوم مجموعة من قريش تتألف من كل عشيرة فيها ، بحيث تنتدب عنها شاباً فتياً ، ويعمد هؤلاء إلى محمد عليه السلام فيضربونه بسيوفهم — شلت أيديهم — ضربة رجل واحد ، وبذلك يتوزع دمه فى جميع العشائر ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حربهم . فلما كانت الليلة

التى عزموا فيها على تنفيذ المؤامرة تربصوا قرب داره ، منتظرين الفرصة الملائمة لاغتياله .

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب أن ينام على فراشه قائلا « نم على فراشى ، وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم » . ودعا الله عز وجل أن يعمى عليهم أثره ، فطمس الله على أبصارهم ، فخرج وقد غشيهم النوم فوضع على رؤسهم ترابا ونهض » (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) . فلما أصبحوا خرج عليهم على بن أبى طالب وأخبرهم أن ليس فى الدار ديار ، فعلموا أن الرسول قد فات ونجا . ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كانت تبيته قريش من قتل الرسول فى قوله تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .

ويقول عز وجل : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين » .

تلك هى المهمة التى عهدها النبى إلى على ، أن يتسجى برداءه ،

ويبيت على فراشه كى يطمئن المتآمرون إلى أن محمداً عليه السلام لم يبرح داره ، على حين يكون هو وصاحبه الصديق يغذان السير فى الصحراء إلى يثرب آمنين من مطاردة الكفار لما بضع ساعات يكونان قد قطعا خلالها بعض الطريق وأويا إلى مأمن . ويتطلب نجاح هذه المهمة أن تسند إلى رجل تتوافر فيه الصفات الآتية مجتمعة :

أولا : الانتماء الى أهل بيت النبى :

فلا يسوغ أن يبيت على فراش النبى رجل من غير أهل بيته مهما ارتفعت مرتبة صحبته له وسمت مناقبه وتوافرت فيه الصفات الأخرى التى يحتاجها هذا الموقف .

ذلك أن المبيت فى فراش الرسول عليه السلام من شأنه الاطلاع على أدق أسرار البيت بالبصر والسمع ، والبيت حرم الرجل ، والعربى أشد الناس حرصاً على حرماته الشخصية .

وفضلا عن ذلك ، فإن دخول رجل من غير أهل بيت رسول الله ليبيت فى فراش النبى من شأنه أن يسترعى نظر المتآمرين فيرتابوا فى الأمر .

ومن ثم كان على بن أبى طالب أصلح الصحابة لهذا الموقف ، بل أصلح الرجال من ذوى قرابة النبى ، فهو ابن عمه أبى طالب الذى كفل رسول الله بعد وفاة جده عبدالمطلب ، وعاش محمد وعلى وإخوته فى كنف أبى طالب يضمهم بيت واحد ، وكان على صبياً فى ذلك الحين . ولما مات أبو طالب أقام فى بيت محمد عليه السلام فكان رفيقه ولقد تزوج على فاطمة بنت ابن عمه رسول الله بعد الهجرة إلى المدينة ، فأصبحت له بذلك صلتان : آصرة القربى ورابطة المصاهرة . وكان من أهل البيت النبوى الذين نزل فيهم قوله تعالى :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما نزل قوله تعالى : «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » : قالوا : يارسول الله من قرابتك الذين وجبت علينا محبتهم ؟ قال : على وفاطمة وابناهما ـ الحسن والحسين ـ . كما روى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خلق الناس من أشجار شتى ، وخلقت أنا وعلى ابن أبى طالب من شجرة واحدة ، فما قولكم فى شجرة أنا أصلها ،

وفاطمة فرعها ، وعلى لقاحها ، والحسن والحسين ثمارها ، وشيعتنا أوراقها ، فمن تعلق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة ، ومن تركها هوى إلى النار» .

ومن الأشعار التى تنسب إلى على رضى الله عنه قوله :

محمد النبى أخى وصهرى ... وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يضحى ويمسى ... يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى ... مشوب لحمها بدمى ولحمى
سبقتكمو إلى الإسلام طراً ... صغيراً ما بلغت أوان حلمى

ثانيا قوة الايمان

إذ بمقدار أو بعمق إيمان من ينتدب لذلك العمل يكون درجة توفيقه فى أدائه . ولقد كان على رضى الله عنه فى طليعة الصحابة قوة إيمان وكلهم أقوياء الإيمان بالله ورسوله ورسالته فهو أول من آمن بالله ورسوله . إذ يقول أكثر أهل العلم إن أول من آمن كان على بن أبى طالب وخديجة بنت خويلد زوجة النبى عليه السلام . ويقول بعض الرواة إن أول من آمن — غير خديجة — على وأبو بكر ، واختلف فى الأول منهما والأكثر منهم يقولون على ، واختلفوا فى سنه يومئذ بين ثمانى سنين وخمس عشرة سنة ، وفى ذلك يقول ابن هشام : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمه إليه ، فلم يزل معه حتى بعثه

الله تبارك وتعالى نبياً ورسولا ، فلبى على دعوة رسول الله واتبعه وآمن به وصدقه .

وعن جابر بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : سمعت على ابن أبى طالب رضى الله عنه ينشد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع هذه الأبيات :

أنى أخو المصطفى لا شك فى نسبى
جدى وجد رسول الله منفرد
صدقته وجميع الناس فى ظلم
من الضلالة والإشراك والنكد
فالحمد لله شكراً لا شريك له
البر بالعبد والباقى على الأبد

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : صدقت يا على

ثالثا الاخوة وتبادل المحبة والثقة .

كيف ينوب عن رسول الله – فى مثل هذا الموقف الصعب غير أخ حميم يعطى الأخوة حقها فى الشدة كما يعطيها حقها فى الرخاء ، يعطيها المحبة والوفاء والإخلاص والتضحية ، بل

يؤثر أخاه على نفسه . وكان ذلك الرجل هو على بن أبى طالب الذى وصفه رسول الله بأنه رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، وقال فى خطبة ابنته فاطمة الزهراء له : « زوجتك سيداً فى الدنيا والآخرة ، وإنه أول أصحابى إسلاماً ، وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حلماً » .

فى قدوم النبى الكريم إلى المدينة وبعد - أو أثناء - بنائه المسجد آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة والحق ، فكانوا يتوارثون بذلك دون القرابات حتى نزلت الآية الكريمة : «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » فآخى يومئذ بين على ونفسه صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أنت أخى فى الدنيا والآخرة» ، وفى رواية : أنت أخى وصاحبى . وكان على يقول : والله إنى لأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم ووليه .

وفى غزوة بدر كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعون بعيراً يعتقبونها ، فكان عليه السلام هو وعلى ومرثد ابن مرثد يعتقبون بعيراً .

وكان على - كما قال رضى الله عنه - ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفيه وكاتبه ومستودع سره ومحل ثقته - كان كاتب صحيفة رسول

الله فى الحديبية . وبلغ من حبه رسول الله وإكباره له وإيمانه بدعوته أنه حين اعترض سهيل بن عمرو ، مندوب قريش فى توقيع المعاهدة على كتابة « من محمد رسول الله » فى صدر صحيفة الصلح وأصر على أن يكتب « باسمك اللهم » فقال النبى لعلى لمسح ياعلى وا كتب : باسمك اللهم . وأبى على أن يمحو بيده : رسول الله فقال له النبى « اعرض على » ، فأشار اليه فمحاه بيده وأمره أن يكتب (من محمد بن عبد الله) وكان على وكيل رسول الله ونائبه وخليفته فى أهله وأمينه على ودائعه . ففى غزوة تبوك وهى آخر غزاة غزاها عليه السلام بنفسه خرج وضرب عسكره على باب المدينة واستعمل — أى خلف عليها على ابن أبى طالب . فقال المنافقون استثقله . فذكر ذلك على لرسول الله فقال : كذبوا إنما خلفتك لما تركت ورائى . فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، فأنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى .

وفى سنة تسع من الهجرة أمر رسول الله أبا بكر بالخروج إلى الحج وإمامته الناس ، فخرج أبو بكر لذلك ، ونزل صدر سورة براءة بعده — فقيل للنبى : يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر يقرأها على الناس فى الموسم . فقال له : إنه لا يؤديها عنى إلا رجل من أهل بيتى . ثم دعا علياً فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن

بها فى النـاس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى . وأمره بمـا ينادى به فى الموسم : ألا يحج بعد اليـوم مشرك ، ولا يطـوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته ، مع سائر ماأمره أن ينادى به فى كل موطن من مواطن الحج .

وفى حجة الوداع أشركه الرسول فى نحر الهدى - أى الأضاحى التى يقدمها الحاج للذبح - وآكله من لحمها وشاربه من مرقها .

وفى مرض الوفاة كان على والعباس بن عبد المطلب أقرب الناس إليه ، وقد غسله عليه السلام أخوه وحبيبه على بن أبى طالب .

وفى حياته صلى الله عليه وسلم كان على ينفرد فى رد الأمانات . ومن ذلك أنه أقام بمكة بأمر رسول الله بعد هجرته إلى المدينة حتى أدى ودائع كانت عنده صلى الله عليه وسلم أمره بأدائها إلى أهلها ثم يلحق به . ففعل على ذلك ثم لحق به بالمدينة فنزل مع النبى بقباء حيث بنى الرسول مسجدا . ونستدل من ندب على لأداء الودائع فى مكة أن ذلك كان الهـدف الثانى من ندبه ليتوسد فراشـه فى بيته بمكة صلى الله عليه وسلم .

وكان على أمين رسول الله فى دفـع الديات . ففى أعقاب

فتح مكة بعث لرسول السرايا حول مكة يدعو إلى الاسلام ولم يأمرهم بقتال . وكان خالد بن الوليد أحد أمراء تلك السرايا ، فخرج إلى بنى جذيمة بن عامر فقتل منهم وسبا من أسر - وكانوا قد أسلموا ولم يقبل خالد قولهم وإقرارهم بالاسلام . فوادهم - أدى اليهم الدية - رسول الله إذ بعث على بن أبى طالب بمال اليهم ، فودى لهم جميع قتلاهم ، ورد إليهم ما أخذ منهم . وقال لهم على : انظروا إن فقدتم عقالا لأدينه ، فبهذا أمرنى رسول الله .

فعلى هو نائب رسول الله ومندوبه فى السلم وفى الحرب ، وهو أخوه ومأموره ، المطيع الواف الذى يبادر إلى تلبية مايدعو إليه ، قرير العين ، هانئاً بهـذا الاختيار ، معداً له بطبيعته ، وبحكم صلته برسول الله صلى الله عليه وسلم .

رابعا : الشجاعة وروح الفداء :

فلقد كان مبيت على فى فرش النبى ثم طلوعه على المتآمرين صباحا يخبرهم بما يتضمن أن رسول الله قد غادر البيت ، أمراً محفوفا بالمخاطر التى تصل إلى حد القتل من هـذه العصابة انتقاماً منه ، ولا سيما إذا لاحظنا أى خيبة أمل أصابتهم بعد إخفاقهم فى مؤامرتهم وما ترتب عليها من خزيهم بين الأعراب جميعاً .

لقد كان هذا الموقف يتطلب بطلا فدائياً ، وكان على رضى الله

عنه هو ذلك البطل ، رشحته لهذا نفس مطبوعة على الاستبسال ، مفطورة على الشجاعة ، مشحونة بالتحديات ومواجهة الأحداث الجسام . وقد صقلها الايمان منذ الصبا الباكر ، فضاعف من قوتها وأرهف من عزيمتها ، وجعل الحياة تصغر لديها أمام جلال المقاومة وروعة الجهاد فى سبيل الله ورسوله والمؤمنين .

وإلى جانب هـذه الصفات النفسية ، توافرت لدى على بن أبى طالب الصفات الجسمية التى أهلته لمواقف النضال والتحدى ، وهى سلامة البنية وقوة التحمل .

وفى هذه الصفات جميعا يقـــــول الكاتب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه عبقرية الصديق : « المشهور عن على أنه كان أول هاشمى من أبوين هاشميين ، فاجتمعت له خلاصة الصفات التى اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها فى كثير من أعلامها المقدمين ، وهى فى جملتها النبل والشجاعة والمروءة والذكاء عدا المأثور فى سماتها الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عـدة من أولئك الأعلام .

وان ترى فى الملا أما كفاطمة   وان ترى كعلى فى الفخار أبا

وربما صح من أوصاف على فى طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء سابقاً لأنداده فى الفهم والقدرة . ويقول :

« نشأ رضى الله عنه رجلا مكين البنيان فى الشباب والكهولة حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين » . وقد عرف فى خلافته بالزهد والتقشف والورع والحرص على مال المسلمين ، يوزعه بالعدل والقسطاس المستقيم . دخل ذات يوم إلى بيت المال ، فوجد الذهب والفضة ، فقال يا صفراء ، اصفرى ويا بيضاء ابيضى ، وغرى غيرى ، لا حاجة لى فيك . وكان لايحابى أحداً ، ويحاسب الولاة على ماينفقون وما تحت أيديهم ، حتى أنه لم يعف ابن عمه ابن عباس . وكان يأكل الشعير وخزائن الدولة تحت يده وهو أمير المؤمنين . ويقول : (لقد رأيتنى وإنى لأربط الحجر على بطنى من الجوع ، وإن صدقتى اتبلغ فى اليوم أربعة آلاف دينار) .

وأخرج أبو نعيم عن على بن الأرقم عن أبيه قال : رأيت علياً وهو يبيع سيفاً له فى السوق ، ويقول من يشترى هذا السيف منى ، فو الذى فلق الحبة ، لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان عندى ثمن إزار ما بعته .

كما ذاعت شهرته بالمروءة حتى فى معاملة الخصم ، والحلم وسعة الصدر والصفح ، والعلم . وصدق فيه رسول الله : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » .

وكان على شأن قادة الإسلام معتزاً بنفسه ، واثقاً بها ، يسعى نور علمه وفضله بين يديه .

ويقول المرحوم العقاد فى تحليل شخصية على بن أبى طالب : «آداب الفروسية هى مفتاح هذه الشخصية النبيلة ، كانت القوة طبعاً فى على فطر عليه ، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية ، نشأ فيه ، وعادة من عادات الفروسية العملية التى يتعودها كل فارس شجاع ، متغلب على الأقران » .

وكانت الشجاعة عند على مقترنة بالثقة ، أو الاعتداد ، أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ، ولا سيما فى مواقف النزال . كان مدار هذا الخلق فى ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيه ، لم تفارقه منذ صار ودرج ، قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شىء فى هذه الدنيا ، وأنه قوة لها جدار مكين يركن إليه المستجير .

لو كان لعلى أن يرتاع فى مقام نجدة أم مقام عزيمة لارتاع يومئذ

ين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ، ودفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع ، ولكنه كان علياً فى تلك السن الباكرة ، كما كان علياً وهو فى الخمسين أو الستين فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب « أنا نصيرك ».

ذلك هو على بن أبى طالب المحارب الفذ والقائد الحربى العظيم تشهد بهذا بعد الهجرة غزوات النبى صلى الله عليه وسلم . ففى غزوة بدر الثانية « بدر الكبرى » دفع الرسول لواء جيش المسلمين إلى مصعب ابن عمير ودفع الراية الواحدة إلى على والثانية إلى رجل من الأنصار .

وصار رسول الله حتى نزل قريباً من بدر ، وركب مع رجال من أصحابه مستخبراً فلما أمسى بعث علياً والزبير بن أبى وقاص فى نفر إلى بدر يلتمسون الخبر ، فأصابوا إبلا لقريش فيها غلام بنى حجاج السهميين وأبو يسار غلام سعيد بن العاص بن أمية ، فأتوا بهما ورسول الله قائم يصلى ، فما بعث علياً والزبير إلا لثقته فى صلاحيتهما لتلك المهمة صلاحية تنبع من قوة إيمانهما وفرط شجاعتهما وما وهبهما الله من روح فدائية تستعذب اقتحام الخطر ذوداً عن الإسلام لا تخشى بأساً لقريش ولو اجتمع فرسانها جميعاً ولا ترهب عدداً ولا عدة .

وبدأت الحرب ، فخرج عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد

ابن عتبة يطلبون المبارزة ، فخرج إليهم من الأنصار عوف ومعوذ ابنا عفراء ، وعبد الله بن رواحة الأنصارى فقالوا استم لنا بأكفاء وأبوا إلا قومهم – المهاجرين – فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلى بن أبى طالب ، فقتل الله عتبة وشيبة والوليد ، وسلم حمزة وعبيدة وعلى . وروى كُتاب السيرة أن على بن أبى طالب قتل عتبة بن أبى ربيعة والعاص بن سعد بن العاص ، وأنه قتل الوليد ابن عتبة وقيل بل قتله عبيدة بن الحارث ، وقيل اشترك على وحمزة فى قتل عتبة والوليد وشيبة . وقتل على عتبة بن أبى معيط صبراً بأمر الرسول . كما قتل كثيرا من المشركين فى تلك الغزوة .

فإذا لاحظنا أن قريشاً كانت قد عبأت كل قواها البشرية والمادية لتلك المعركة الفاصلة ، وأنها اختارت خير فرسانها لقتال المسلمين ، وأن هؤلاء كانوا رؤس قريش وسادتها وقد سقطوا صرعى فى ساحة القتال ، ادركنا أى مقاتل عبقرى كان على بن أبى طالب حتى سمى فارس الفرسان . وقيل له : كيف تقتل الأبطال ؟ قال : لأنى كنت ألقى الرجل فأقدر أنى اقتله ، ويقدر هو أنى قتلته ، فأكون أنا ونفسه عونا عليه .

وفى غزوة أحد أبلى على وحمزة بلاء حسناً ، وقتل بعض الكفار

ولما جرح رسول الله فى وجهه وأكبت الحجارة عليه حتى سقط فى حفرة كان أبو عامر الراهب قد حفرها مكيدة للمسلمين ، فخر عليه السلام على جنبيه ، أخذ على يده واحتضنه طلحة حتى قام . .

ذلك هو المعدن الأصيل يتوهج فى الشدائد والأزمات نجدة وافتداء وبطولة لاتوهب إلا للشوامخ الأعلام فى تاريخ البشرية . وها هو ذا رسول الله يجمع شمل المسلمين فى الوطن العصيب ، ويعطى علياً الراية بعد أن قتل مصعب بن عمير وهو يدافع عن رسول الله حين وصل إليه المشركون ، ويقود فارس أهل البيت جند الإسلام حتى تنجلى الغمة قيادة محارب خبير بفنون القتال كفء المعارك غير هياب ولا وجل .

وفى غزوة الخندق تيمم بعض فرسان قريش مكانا ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فصاروا بين الخندق وبين سلع . فيا للخطر المطبق على المسلمين بالمدينة . ومن الذى يتصدى لمواجهة العدو المقتحم ورده على أعقابه مدحوراً حتى لايتبعه الآخرون . لقد انبرى على بن أبى طالب ـــ كشأنه فى الملمات الجسام وخرج معه نفر من المسلمين حتى أخذوا على فرسان قريش الثغرة التى اقتحموا منها . وأقبل هؤلاء نحوهم ونادى عمرو بن ود : هل من مبارز ؟ وما أسرع أن قبل على تحدى فارس الأعداء ، فبرز له وتنازلا ولقى عمرو مصرعه بسيف على .

وهاهم بنو قريظة ينقضون العهد ، فيأمر النبى بغزوهم ويعطى عليا الراية ، فيصدق فى المهمة التى ندب لها ، مشرق الجبين ، رائع السمت رحمة للمؤمنين ونقمة على المنافقين وينتصر جيش النبى بقيادة على ويحقق أهدافه فيطهر المدينة من عصابات العدو والخيانة .

ولكن ثمة عصابات أخرى فى خيبر تضمر العداء للاسلام ، وقد بدأت تطل برؤسها وتتحالف مع أعدائه . ويخرج النبى إلى خيبر دافعا رايته البيضاء إلى على . وهنا يروى التاريخ واقعة من أعظم ما سجل فى تاريخ الحروب دلالة على البأس وقوة الشكيمة التى لا تبارى . فقد امتنع على المسلمين فتح حصن من الحصون ، فأعطى النبى رايته أبا بكر ، وكان ينشد ذلك الشرف فنهض بها وقاتل واجتهد ولم يفتح عليه . ثم أعطاها عمر وكان يطمح إلى تلك الغاية فلم يفتح له فقال النبى : (لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، ليس بفرار ، يفتح الله عز وجل على يديه ، ودعا عليا وكان أرمد فلثم عينيه ثم قال : خذ الراية فاقصد بها حتى يفتح الله بها عليك فلما دنا على من الحصن خرج إليه أهله وقاتلهم فضربه رجل من اليهود ، فألقى ترسه من يده ، فتناول على بابا كان عند الحصن ، فاتخذ منه ترسا يدفع عن نفسه . فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده . ويقول الرواة إن ثمانى

رجال من المسلمين جاهدوا فى سبيل قلب ذلك الباب فما انقلب على حين أن علياً رضى الله عنه حمله وحده وحارب به ، وتلك آية على ما وهبه الله من بأس وقوة .

وفى غزوة خيبر قاتل على مرحباً اليهودى حين خرج يخطر متحديا بسيفه وفروسيته قائلا :

قد علمت خيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهب

وقال فارس الإسلام على :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المنظره
أوفيهمو بالصاع كيل السندره

وتبارز الخير والشر ، فانتصر الخير إذ فلق على رأس مرحب بالسيف . وكان فتح حصون خيبر على يده رضى الله عنه .

وفى فتح مكة نزع رسول الله الراية من سعد بن عبادة لأنه كان ذا حدة فى الطبع ، ودفعها إلى على . وفى غزوة حنين حملت قبيلة هوازن من مكمنها فى جنبتى الوادى فى غبش الصبح على المسلمين حملة رجل واحد ، فانهزم جمهور المسلمين ولم يلو أحد على أحد . وفى هذا الموقف العصيب ثبت مع رسول الله أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ومن أهل بيته على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وآخرون واشتدت الحرب حين عاد الجنود المسلمين على أثر استنهاض النبى

هممهم وتذكيرهم بدينهم الذى يحث على الجهاد. وكثرة الطعن والجلاد وقال النبى : الآن حمى الوطيس وضرب على عرقوب جمل صاحب راية الأعداء أو فرسه ، فصرعه ، ولحق بعلى رجل من الأنصار فاشترك فى قتله . وأخذ على الراية وانهزمت هوازن وثقيف بفضل حسن قيادة رسول الله واستبسال على القائد الحربى المغوار الذى يصدق فيه قول المتنبى :

وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم

فلا غرو أن يكون على — وقد تكاملت فيه كل تلك المناقب والقدرات كما ظهرت آياتها قبل الهجرة مبشرة باستمرارها بعد الهجرة هو مختار محمد قائد الأمة الإسلامية ليتوسد فراشه فى تلك الليلة الخالدة وذلك هو وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، كما اصطلح علماء التنظيم الادارى الحديث .

ولقد كان رسول الله يعد علياً بتدبه لهذه المهمة لقيادة الدولة الإسلامية مع الصفوة من الصحابة بعد أن يكمل النبى رسالته ويختاره

الله إلى جواره . ذلك أن إعداد القيادات ـ ذلك المبدأ الحديث الذى تزايد الاهتمام بوضعه موضع التطبيق ـ كان من الأعمال التى حفل بها تاريخ النبى الكريم بغية أن تستمر الرسالة من بعده حتى تبلغ الناس جميعا وأن تعمق فى نفوس الكافة ، وأن تحقق آثارها فى كل زمان ومكان .

كان الرسول يدرب على بن أبى طالب ـ صفيه وصاحب رايته وأمينه فى الودائع والديات ـ على الاضطلاع بالمسئوليات الجسام ـ ومواجهة الأخطار وتحدى العقبات والاستهانة بالموت فى سبيل الدفاع عن العقيدة والوطن والعرض ، وفى سبيل دفع أعلام الحق والفضيلة والمساواة والخير والسلام فى كل موقع وعلى كل سارية . وليس كمثل أمر على بالمبيت فى فراش الرسول ليلة هجرته صلى الله عليه وسلم تدريب على تلك المسئوليات .

فإذا تأملنا الأدوار الأخرى التى حددها رسول الله لمن اشتركوا معه فى إنجاز الهدف الجليل وهو الهجرة إلى المدينة ، تبينا بوضوح دقة اختياره لكل شخص حيث يكون أكثر فائدة وتحقيقاً للغرض من سواه وفى وسع الباحث المعاصر ـ مسلما كان أو غير مسلم ـ طالما كان الوصول إلى الحقيقة غايته أن يتأكد من تمام تطبيق تلك القاعدة الادارية إذا تصفح تاريخ كل من شارك رسول الله فى الاعداد للهجرة

وتنفيذها ، فالتاريخ خير شاهد على موهبة التنظيم الادارى التى منحها لرسوله بما يرويه من وقائع ومعاملات تثبت توافر الصفات الكفيلة بنجاح الفرد فيما ندبه له الرسول وخصصه له .

اختيار قلة من الأعوان :

لقد اختار النبى ـ بادىء ذى بدء ـ جماعة يرتبط كل من أفرادها بأبى بكر الصديق بصلة وثيقة أو يكون موضع ثقته على أقل تقدير . فلقد كانت « السرية » شرطاً ضرورياً لتحقيق الهدف ، فلو ندب فرد واحد لا تتوافر فيه صفة الكتمان لما تحقق الغرض .

ومن ثم كان اختيار أسرة الصديق للمعاونة فيما تتطلبه المسيرة العظمى من شئون اقتضاها التخطيط المحكم القائم على إعداد العدة قبل التنفيذ .

وفضلا عن ميزة اختيار جماعة تربطها قرابة من حيث كتمان العمل المتفق عليه ، فإن ثمة ميزة أخرى لهذا الاختيار وهى ضمان الانسجام بين أفراد الجماعة وما يؤدى إليه من تعاون وثيق ، إذ يصبح الجميع كأنهم رجل واحد ، ولا يخفى ما يسفر عن ذلك من إيثار الفرد للصالح العام على المصلحة الشخصية . بل إن كلتا المصلحتين تندمجان ،

فتلتهب الحماسة ويتضاعف الجهد . ومن ثم يركز علماء التنظيم الادارى على أهمية توافر روح الجماعة فى نفوس العاملين بوصفها الدعامة الأولى للنجاح .

تقسيم العمل .

وقسم النبي عليه الصلاة والسلام العمل بين أفراد هذه الأسرة المؤمنة تقسيما يتفق مع أحدث أصول التنظيم وطرائق العمل ، وهو التقسيم على أساس حرية الاختيار والخبرة ، والتخصص .

وكانت الأسرة تتألف من عبدالله بن أبى بكر وأختيه عائشة وأسماء ومولاهم عامر بن فهيرة .

الدليل : عبد الله بن أريقط :

وقبل أن نحلل مهمة كل منهم وتناسبها مع طبيعته وصفاته وإمكانياته ، يجدر بنا أن نذكر أن اختيار النبي وأبى بكر قد وقع على رجل من كفار قريش هو عبدالله بن أريقط - ويقال ابن اريقط الديلى - ليكون دليلهما فى الطريق إلى المدينة ، وقد يثور تساؤل عن أسباب اختياره - وهو كافر - للقيام بتلك المهمة الدقيقة . ألم يكن ثمة مسلم يصلح للقيام بهذه المهمة ؟ ألم يكن من المحتمل أن يعمد هذا الرجل إلى الوشاية بمحمد وصاحبه إلى قومه المشركين من قريش ؟

والإجابة على ذلك فى ضوء العلوم والتجارب المصرية أن الخبير الذى لا غنى عنه ، وليس ثمة بديل يقوم مقامه ، لا مفر من استخدامه ولو لم يكن على دين من اختاره طالما كان موضع ثقته الشخصية . ومثال ذلك أن الدولة الإسلامية الحديثة تستخدم خبراء أجانب غير مسلمين للاستفادة بهم حيث تندر الطاقات البشرية المحليـــة . وقد أثبتت هذه التجربة نجاحها فلم يلحق بهذه الدولة ضرر من ذلك ، بل حققت هدفها من هذا الاستخدام . أما الخطأ فهو الاستعانة بخبير من غير أهل الدين على حين يوجد مثيله بين المسلمين . والقاعدة الشرعية أن الضرورات تبيح المحظورات ، والإسلام شريعة ودولة ، فهو يستند فى أحكامه إلى الواقع والمصلحة دون تعصب أو تعقيد .

ولقد استعانت الدول الاسلامية قديماً بالخبراء الأجانب فى سبيل الانتفاع بعلومهم وخاصة فى عصر النهضة العلمية أيام الخلفاء العباسيين . فكان ذلك من أسباب ازدهارها وبلوغها مبلغاً عظيما فى مضمار الحضارة . مما سجله التاريخ فى صفحات من نور . ولا يعترض على ذلك بأن الاستعانة بهؤلاء الأجانب كانت من أسباب تفسخ الدولة العباسية وانحلالها . فالواقع أن ترك الحبل على الغارب للشعوبيين ، وعدم تحرى الدقة فى اختيار هذه الفئة رغم كثرتها ، هما بعض تلك الأسباب.

والعوامل ، ولا تكمن العلة فى استخدام الخبراء ذاته . بل إن استخدام الخبير بعد اختياره ، والرقابة الخفية عليه فى أثناء عمله ، مع حسن معاملته ، قد يكون سبباً فى إسلام ذلك الخبير كما حدث فى حالات لا يحصرها العد إبان ازدهار الدولة الاسلامية ، وكما يحدث أحيانا فى عصرنا الحاضر ، فثمة شرطان أساسيان للاستعانة بخبير من غير الملة أولهما أن يكون موثوقا به ، والثانى أن يكون اختياره حتميا بمعنى ألا يوجد من أهل الملة مثيل له . وقد توافر هذان الشرطان فى عبد الله بن أريقط . إذ يقول كتاب السير إنه كان كافراً لكن النبى وصاحبه وثقا به ، وكان دليلا بالطرق . وجاء فى الحديث الصحيح أنه كان هادياً خريتاً - أى حاذقا يعرف مضايق الطرق ولو مثل خرت ثقب الإبرة . لذلك دفع رسول الله وصاحبه راحلتيهما إليه واستأجراه ليدلهما إلى المدينة . ويأخذ الفقهاء من ذلك جواز الاعتماد على الكافر فى الأمور الخطيرة إذا غلب على الظن أنه لا يخون ، كالاعتماد على الكافر فى علاج أمراض العيون ، وعلى النصارى فى الطب والكتابة والحساب . ونحو ذلك من الشئون العلمية والادارية والمالية ، مالم تكن ولاية فيها عز ، فلا يجوز الاعتماد عليهم فيها . ولا يلزم من مجرد كون الخبير كافراً ألا يوثق به فى شىء . فإنه لا شىء أخطر من الدلالة فى الطرق ، ولاسيما فى مثل الهجرة . ومع ذلك فقد اعتمد رسول الله

فيها على هذا الرجل وهو كافر وحمدت العاقبة فى ذلك . والدليل على حسن هذا الاختيار أن ابن أريقط قد سلك بالنبى وصاحبه طريق الساحل ، الأمر الذى لم يرد على خاطر قريش إذ لم يكن طريقاً مألوفاً فى ذلك الحين .

ومن ثم فإن اختيار عبد الله بن أريقط مرشداً ودليلا كان وضعاً للرجل المناسب فى المكان المناسب .

عبد الله بن أبى بكر

أما عبد الله بن أبى بكر فقد كان دوره هو استطلاع أخبار قريش بمكة ، والوقوف على رد الفعل الذى أحدثه خروج النبى سراً ، وما عسى أن يدبره زعماؤها لوقف مسيرته عليه السلام ، وبذلك يكون رسول الله وصاحبه على بينة مما يحاك خلفه من مؤامرات ، فيستطيع أن يتقيها ويبلغ مأمنه فى يثرب . ومن ثم تبدو أهمية العمل الذى أسند إلى عبد الله بن أبى بكر وحساسيته وخطورته ومدى تأثيره فى تحقيق الهدف ، ومثل هذا العمل يتطلب فيمن ينهض به توافر عدة صفات أساسية ، أن يكون قوى العقيدة موثوقاً به ، قادراً على أداء هذا العمل ، أو بعبارة موجزة يكون صالحاً لمهمة الاستخبار .

وكان عبد الله بن أبى بكر هو الرجل الذى يصلح لتلك المهمة لاجتماع هذه الصفات فى شخصه . فأما قوة عقيدته وأهليته بالثقة ، فيكفى دليلا عليهما انصياعه لأمر أبيه راضياً قرير العين حين ندبه لتقصى أخبار الفئة الباغية من قريش بمكة نهاراً ثم إبلاغها إلى الرسول وصاحبه ليلا فى مأمنهما على الطريق من مكة إلى يثرب ، وأما قدرته على أداء ما ندب له ، فإنها ترجع إلى رباطة جأشه وثباته وحسن تصرفه ـ وتلك صفات ورثها عن أبيه ، وإلى أنه لم يكن موضع ريبة من قريش فتظن به الظنون إذا جلس فى مجالسها أو حام حولها ، إذلم يلازم لرسول مثل أبيه ولم يكن من أهله ، ففرصته فى استقاء الأنباء وتقصيها أوفر من غيره ، كما أن حبه أباه وإيمانه بالله ورسوله حافزله على بذل جهده فى سبيل خدمتهما .

ولا ريب فى أن مثل هذا العمل الذى عهد إلى عبد الله بن أبى بكر القيام به كان يتطلب روحاً فدائية . ولقد كان عبد الله مسلماً فدائياً ، وقد ظلت شعلة التضحية متقدة فى دمه طوال حياته القصيرة ، وأبى إلا أن يكون مقاتلا تحت راية رسول الله فى الغزوات ، وكان من شهداء الإسلام فى حصار الطائف إذ أصابه سهم فاستمر منه مريضاً حتى مات فى خلافة أبيه رضى الله عنهما .

أسماء بنت أبي بكر

وكان دور أسماء بنت أبى بكر الصديق فى الهجرة أن تأتى النبى وصاحبه بالماء والزاد إبان اختفائهما عن أعين قريش . وظلت على ذلك ثلاث ليال متعاقبة ، تقتحم الصحراء الموحشة فى رهبة الظلام وهى بعد صغيرة ، ولا تبالى العيون . والأرصاد التى تبعثها قريش فى الطريق من مكة إلى المدينة لتظفر بمحمد ، وتنقل إلى أبيها وصاحبه فى الغار ما علمت من أخبار قريش مستهينة بكل خطر فى سبيل الله ورسوله .

ويشهد تاريخ حياة أسماء منذ عصر النبى عليه السلام حتى عصر خلفاء بنى أمية بأنها نموذج يندر مثيله بين النساء : قوة إيمان وقوة إرادة تتجسدان فى مواقف الصمود والتضحية بكل غال فى سبيل الحق والثبات على المبدأ .

لقد بادرت أسماء إلى الإسلام حين أسلم أبوها الصديق وهى فى الرابعة عشرة من عمرها فكانت من أول الناس إيماناً بالله ورسوله وصارت من أفضل الناس خلقاً وعلماً بحكم اهتدائها بهدى الإسلام واكتمال نشأتها فى ظله .

وكان أبوها الصديق العظيم يرشحها لأعظم الأعمال . فحين ذهب النبى فى بيته ليحدثه بأمر الهجرة إلى المدينة بعد أن أذن الله تعالى له بها ، وقال له : « أخرج عنى من عندك » (يريد أن يخلو ليحدثه سرا) قال أبو بكر : يارسول الله، إنما هما أبنتاى (يريد أسماء وعائشة) فأخبره الرسول خبر الهجرة فى حضورهما مما ينبىء عن أعظم الثقة بهما . فلا غرو أن يعهد أبو بكر إلى ابنته دوراً مؤثراً لا يستطيع أداؤه إلا من توافرت فيه قوة الإيمان والطاعة والثقة والشجاعة والصلابة والمقدرة فحين خرج مع النبى إلى الغار ، واختفيا فيه ثلاثة أيام والكفار يبحثون عنهما فى كل مكان ، فكانت أسماء تخرج كل ليلة فى السواد الحالك تحمل لهما الطعام ، وتنقل إليهما ما علمت من أخبار قريش غير مبالية — وهى ما زالت صغيرة السن — بوحشة الليل ، ورهبة السرى فى الصحراء المترامية ، وعدوان الكفار ، مستهينة بكل خطر فى سبيل الله ورسوله ، فأى معدن أصيل من النساء كانت تمثله أسماء .

ولما هم الصاحبان بالرحيل إلى المدينة جاءتهما أسماء بما يحتاجان إليه فى رحلتهما من زاد وماء وهمت بتعليقه فى رحل البعير ، فلم تجد رباطا فحلت نطاقها وشقته نصفين ربطت بأحدهما الزاد وانتطقت

بالآخر ، فقال لها الرسول : « أنت ونطاقاك فى الجنة » ، وسميت بعد ذلك بذات النطاقين .

وجاءتها قريش عقب خروج أبيها مع النبى مهاجراً تسألها عن أبيها ، فقالت : لا أدرى أين يكون ، فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها، واحتملتها فى سبيل الله . وأقبل جدها أبو قحافة مهموماً يقول لها فى غضب وحزن لقد فجعكم أبو بكر فى نفسه وفى ماله فقالت أسماء: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيرا . وصارت تحرك يده على جرة ملأتها حجارة وغطتها لتوهمه أنها مملوءة بالمال وما زالت به حتى اطمأن وهدأ غضبه . وتروى أسماء هذه الواقعة فتقول : « لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل ماله كله معه — خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم — فانطلق بها معه ، فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . فقلت . كلا يا أبت ، إنه ترك لنا خيراً كثيرا . ومن ثم أخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة البيت حيث كان أبى يضع فيها ماله ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فقلت : ضع يا أبت يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه وقال : لا بأس ، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاء لكم . . فلا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك » .

وفى تلك الواقعة دلالة على ما اتسمت به أسماء من إصرار على الموقف وقدرة على المقاومة وذكاء فى التصرف مما كانت تقتضيه طبيعة المهمة التى وكلت إليها .

وليس ثمة شك فى أن أبا بكر الصديق إذ ناط بابنته أسماء ذلك العمل الشاق المحفوف بالمخاطر ، كان يدربها على الاضطلاع بالمهام الكبرى فى مستقبل حياتها ، الأمر الذى أكد التاريخ نجاحه فيما روى عنها من صفحات مجيدة تمثل ملحمة بطولية يعتز بها تاريخ النساء فى الإسلام .

فقد تزوجت أسماء فى صدر الإسلام من الزبير بن العوام أحد أصحاب رسول الله ، وكانت — وهى ربيبة النعمة والثراء فى بيت أبى بكر الصديق — تقوم بنفسها بخدمة بيتها وكانت تعلف لزوجها فرسه وتسقيها حين عجز أن يستأجر خادماً لها . وبحكم ما تلقفته أسماء من مبادىء الدين وتعاليمه منذ صغرها ، وما أخذت عن أبيها من علم ، وما سمعت من النبى عليه الصلاة والسلام من حديث ، فقد كانت من الصحابيات اللائى روين الحديث ، ونشرن العلم فى صدر الإسلام . وتروى كتب السنة عن أسماء كثيرا من الأحاديث ، ومنها استنبط العلماء والفقهاء الأحكام الفقهية ، والمسائل الدينية .

ولقد عاشت أسماء أكثر أيامها الأخيرة مع ابنها عبد الله بن الزبير ، وشاركته حياته العاصفة ، وكف بصرها فى آخر حياتها ، ولكنها ظلت حاضرة الذهن ، عامرة القلب بالإيمان والإخلاص والصلابة فى الحق .

وثمة موقف — ماأروعه من موقف — سجلت فيه أسماء صفحة مجيدة من الدفاع عن الحق والتضحية بكل عزيز فى سبيله ، صفحة كتبت بمداد الحق وسطرت بدم الشهداء ، ولقد بلغت بها أسماء أسمى ما تبلغه النفس البشرية فى معارج البذل والفداء .

ذلك أن ابنها عبد الله قد خرج على يزيد بن معاوية الخليفة الأموى ، وشجعه على ذلك أهل الحجاز الذين بايعوه أميراً عليهم لعلمه وخلقه ومكانته . وعجز الأمويون عن إخضاعه سنوات برغم ما اشتهروا به من شدة فى معاملة الخارجين عليهم وقمع لخصومهم ، فلما تولى عبد الله بن مروان أرسل إلى عبد الله بن الزبير الحجاج بن يوسف — وكان أداته فى البطش بالخصوم لما عرف به من قوة وغلظة ، لحاصره بمكة نحو ثمانية أشهر ، واستخدم كل وسائل الإغراء والإرهاب لصرف أعوانه عنه ولما اشتد الحصار على عبد الله وبدأ أنصاره يضيقون ذرعاً بما عانوه من ويلات ، دخل عبد الله

على أمه أسماء يستشيرها قائلا : ياأماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟

قالت أسماء : « أنت والله يا بنى أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو فامض له . فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قتل معك .

وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين . وكم خلودك فى الدنيا . القتل أحسن . والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة بسوط فى ذل » .

قال : « إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى » .

قالت قولتها المشهورة : « يا بنى ، إن الشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها » .

وخرج عبد الله ، فقتل فى يومه ، وماتت أمه بعده بأيام .

فيالأسماء من أم خالدة . تحث ابنها على الاستشهاد فى سبيل الحق ، وتحفزه إلى مواصلة القتال ، وقد علمت أنه لن يعود من ساحة الجهاد.

حياً ، وأنه لن يبقى لها فى الحياة بعد مصرعه أحد . ولكن الحق أقوى من غريزة الأمومة فى نفسها : إنها باسم الحق تدفع ابنها دفعاً إلى الموت فى سبيله ، وتعلن أنها بريئة منه وهو فلذة كبدها إذا تقاعس وآثر الحياة الدنيا ، فكيف ينكص عن رسالته وقد دفع أصحابه حياتهم فداء لها . ولا غرو فهى بنت أبى بكر الصديق صاحب رسول الله ورفيقه فى هجرته إلى المدينة .

إن هذا الموقف التاريخى الفدائى هو نبت موقفها من أبيها ومن رسول الله فى رحلتهما الكبرى التى تغير بها وجه التاريخ . لقد أعدها موقفها ذاك بكل جليل من المواقف ، وأمدتها روح النبى وصاحبه بفيض من القوى الروحية : قوة الإيمان والاصرار والثبات على المبدأ التى تتزلزل دونها كل القوى المادية . فالقتل عند أسماء خير من العيش على مذلة ، وطالما أن الموت حق ولا بقاء لحى ، فإن ضربة بالسيف فى عز أحب من ضربة بالسوط فى هوان :

وإذا لم يكن من الموت بد   فمن العار أن تعيش جبانا
غير أن الفتى يلاقى المنايا   كالحات ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحى   لعددنا أضلنا الشجعانا

عائشة بنت أبي بكر

ولقد شاركت أسماء دورها الخالد فى الهجرة أختها عائشة ـ كما تروى معظم كتب السيرة ـ وكانت لا تزال طفلة دون العاشرة ، فخاضت بذلك تجربة أكبر من سنها الصغيرة ، مما أكسبها نضوجا فكريا ونفسيا مبكراً ، أتاح لها القيام بأدوار كبرى فى مستقبل حياتها . ولعل هذا ماحدا بأبيها الصديق إلى الإذن لها ـ وهى غر لم تشب بعد بصحبة أختها في تلك المسيرة المباركة . وليس يعجم عود الإنسان ويهذب طبعه ويجعله أصلا لعظائم الأمور خير من الجهاد فى سبيل الله . ولقد كان اقتحام ابنتى أبى بكر ظلمات البيداء حاملتين لأبيهما وصاحبه رسول الله حاجتهما من الماء والطعام غير مباليتين بما قد يصيبهما من أذى ، بلاء أى بلاء وجهاداً أجل جهاد .

فلا غرابة أن تكون هذه الخبرة عنصراً أصيلا من مكونات شخصية عائشة ، وأن تثمر أسمى القيم والمبادىء ، وفى مقدمتها قوة الإيمان ، والاخلاص ، والتعاون ، والشجاعة ، والتضحية ، فترشحها بذلك لتكون من أمهات المؤمنين ، ومن راويات حديث رسول الله ، ومن ألمع الشخصيات النسائية فى تاريخ الاسلام . إنها بنت

الصديق العظيم والنموذج الإنسانى الكامل فى الوفاء للصديق والتضحية فى سبيل الانتصار لدعوته ونشرها .

كان صاحب النبى قبل البعثة فلما دعاه إلى الإسلام كان أول من آمن من الرجال ، وظل رفيق رحلة العمر ورسالة الحق ومعترك الجهاد . لازم النبى فى كل الغزوات وعاونه بجهده وماله . ولما حث النبى المسلمين على الصدقة لإعداد الجيش وتموينه فى غزوة تبوك إذ كان الجهاد اختيارا وتطوعا لا إلزاما، كان أبو بكر أول المتصدقين جاد بماله كله ، فقال له الرسول : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . وفى فضل أبى بكر يقول رسول الله « ما نفعنى مال أحد قط مثل ما نفعنى مال أبى بكر » .

ولقد غرست أصول شخصية أبى بكر فى عائشة ، مثلما غرست فى سائر أبنائه ، قوة عقيدة ، وسداد رأى ، وثباتا على الموقف ، وإخلاصا للاسلام ، وجهادا فى سبيله

ولقد ارتضاها رسول الله زوجة له ، بعد أن ودع خديجة إلى الرفيق الأعلى ، وأراد أن تزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الاسلام مكانة وقربى . فخطبها إلى أبيها ، ولما كانت لا تزال طفلة فى التاسعة من عمرها عقد عليها ولم يبن بها إلا بعد سنتين حين

بلغت العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها ، وهكذا كانت مسيرتها ليالى الهجرة مقدمة كرحلة حياتها مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته الكبرى ، وكان تعاونها معه فى رحلة العمر والجهاد امتداداً لهذا التعاون النبيل الذى قامت به تلك الليالى مشاركة أباها وأخويها عبد الله وأسماء ومولاهم عامر بن فهيرة .

وظل المسير متصلا والطريق واحداً ، والرفيق أب بار عطوف وزوج مشفق أحبها وظل يحبها طول حياته . ورضى الله عنها حتى برأها فى كتابه المجيد مما رماها به أهل الافك فى أعقاب غزوة بنى المصطلق فى السنة السادسة من الهجرة ،وكانت قد شهدت تلك الغزوة ولما تزل فى السادسة عشرة . فنزل القرآن ببراءتها وذلك فى الآيات العشرة بسورة النور: «إن الذين جاءوا بالأفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » إلى قوله تعالى « وأن الله رؤوف رحيم »

ولقد كان موقف عائشة فى تلك المحنة منبثقاً من مكونات شخصيتها التى ذكرناها والتى كانت خبرتها فى ليالى الهجرة عنصراً منها ، موقف إيمان وقوة تحطمت على جنباتهما كل القوى وعنت

لجلالهما كل الوجوه ، واستحقت صاحبتهما تكريم الله تعالى إذ برأها في آياته البينات .

وظل النبي يسكن إلى عائشة وهو يحمل مشعله الوهاج فيبدد ظلمات الليل . واستمر المشعل مضيئاً بأيدي خلفائه بعد أن اختاره الله إلى جواره ، واستمرت عائشة تعيش بمنزلها في الحجرة المجاورة لحجرة النبي ، سعيدة بهذا الجوار الكريم ، ثم دفن أبوها الصديق لما مات إلى جوار النبي وظلت الأنوار تغمر كل الآفاق ، وتنشر الإيمان في كل القلوب ، وعائشة مقيمة بدارها مع النبي والصديق ، مع الحق والوفاء ، مع المحبة والإيثار ، مع الايمان والتضحية .

عامر بن فهيرة

ويأتي بعد ذلك دور عامر بن فهيرة الذي يمر به المؤرخون عبراً برغم ما يستحقه من وقفة اهتمام وتقدير . فلم يكن آخر الأدوار ولا أقلها شأناً في الهجرة ، بل كان حلقة قوية من حلقاتها وعنصراً أساسياً من عناصرها ، اقتضاها حسن التنظيم ، واختيار الرجل المناسب في المكان المناسب .

لقد كانت المهمة التي عهد بها إلى عامر بن فهيرة مهمة مزدوجة

أن يرعى غنم أبى بكر نهاراً ، فإذا أمسى قصد إلى الغار واحتلب للنبي وصاحبه وذبحا ـ شربا من لبنها وأكلا من لحمها ـ وأن يتبع بالغنم مسار عبد الله بن أبى بكر بعد عودته من غار ثور إلى مكة فيعفى على ما تركته أقدامه من آثار فى رمال الصحراء .

ومن الواضح أن تلك المهمة لم تكن بالهينة اليسيرة ، المهاجر العظيم وصاحبه فى رحلتهما المضنية ولئن كانت أسماء وعائشة تأتيانهما بالزاد والماء ، فلقد كان ما يقدمه عامر تتمة ينتفع بها أكبر الانتفاع فى مثل تلك الظروف . أما الشق الثانى من دوره وهو طمس آثار عبد الله فتبدو أهميته إذا ذكرنا مدى شهرة العرب قديما بقص الأثر ، وما كان يحتمل من ضرر للرسول والرسالة لو لم يكن هناك من يؤدى بكفاءة هذا الدور ، ولا سيما أن قريشا جن جنونها بعد أن علمت بخروج محمد وأبى بكر من مكة ، فحشدت كل ما وسعها من وسائل بشرية ومادية وغيرها مثل اقتفاء الأثر للظفر بهما ، وبالتالى الحيلولة بين محمد وبين بلوغ المدينة وتحقيق هدفه فى اتخاذها دارا ومنبرا للأسلام بعد أن يئس من مكة .

ومن ثم كانت مهمة عامر بن فهيرة بشقيها أمراً لا غنى عنه ولا بديل له وكان عامر يمثل الشخصية المناسبة لتلك المهمة ، فهو مولى

أبى بكر وموضع ثقته ، وهو مهيأ بطبيعته وبحكم ظروفه ، ونشأته وخبرته للقيام بهذا العمل مما يجعله أصلح له من غيره .

ولنا أن نتساءل عما إذا كانت قـلة احتفال المؤرخين ولا سيما المعاصرين منهم بدور عامر هذا رغم أهميته وتجنبهم إلقاء الضوء على صاحبه ، حتى لقد خلت منه فهارس الأعلام فى المؤلفات الإسلامية الحديثة ، حتى إن كثيرا من القراء يجهلون تاريخه ، نظرا إلى مركزه الاجتماعى فى ذلك الحين ، إذ كان مولى من الموالى ، فانسحبت أهميته المحدودة إلى شخصه وتاريخ حياته .

وفى رأينا أن تخلف عامر بن فهيرة فى مركزه الاجتماعى لم يكن الدافع الحقيقى وراء هذا الموقف الذى يستلفت النظر ، ذلك أن الإسلام قد شن حربا شعواء منذ ساعة نزوله على التفرقة والعبودية . بل أن المساواة فى مقدمة أهدافه الأساسية ، وإنما تـكمن العلة فى أمور ثلاثة : أولها : عدم تقييم الدور الذى قام به فى الهجرة فى ضوء علم التنظيم . والثانى عدم تقدير هذا الدور على أساس مبادئ الإسلام فى المساواة ، والثالث عدم تقصى أنباء عامر بن فهيرة فى المراجع التاريخية .

ومن ثم ، رجعنا إلى كتب السيرة فوجـدنا بعض أخبار عن

الرجل متناثرة هنا وهناك ولكنها تقدم رؤية واضحة له ، وتسفر عن شخصية لاتقل شأنا عن غيرها من الشخصيات التى تلقى إعجاباً واهتماما من المؤرخين لعصر النبى والصحابة .

وأول مايعثر عليه من معلومات عنه أنه ينتمى إلى الأزد وسمى لذلك بعامر بن فهيرة الأزدى ، ونسب إلى أمه فهيرة مولاة أبى بكر . ويستفاد من ذلك أنه نشأ فى بيت الصديق منذ نعومة أظفاره .

وكان عامر راعيا لغنم أبى بكر ، الأمر الذى أتاح له فرصة الاضطلاع بالمهمة التى كلفه بها النبى وصاحبه ، فنهض بمسئوليته وقام بواجبه خير قيام ، إذ أمد المهاجرين الجليلين بحاجتهما من المأكل والمشرب ، وأزال من طريقهما كل أثر قديم يدل عليهما حتى غادر الغار بعد ثلاث ليال .

ويروى ابن عبد البر فى كتابه الدرر فى اختصار المغازى والسير أن عبد الله بن أريقط أتى رسول الله وصاحبه براحلتيهما بعد خروجهما من الغار ، فركباها وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة . ويستدل من هذه الرواية على أن عامرا قد صحب الرسول وأبا بكر فى رحلتهما إلى المدينة ، وهى صحبة تضع الرجل فى منزلة لاتدانيها منزلة ، مما يشهد له بالفضل والسبق .

ومفهوم بداهة أن عامر بن فهيرة لم يكن ليحظى بهذا الشرف لولا ما عرف به لدى النبي والصديق من قوة العقيدة ، والاستعداد للتضحية ، والقدرة على التحمل ، فضلا عن الإخلاص والوفاء .

وفى بعض الروايات أن عامر بن فهيرة هو الذى كتب بأمر رسول الله كتابا لسراقة بن مالك وكان موكلا من قريش بمطاردة النبي وأبى بكر ، ولما أدركهما بالصحراء فى موقع يدعى مديد إذ اتخذ الرسول إلى طريق الساحل ، ورآه رسول الله دعا عليه ، فساخت يدا فرسه فى الأرض ، ثم استقل فأتبع يديه دخان ، فعلم أنها آية فناداهم : قفوا وأنتم آمنون فوقف لرسول الله حتى لحق بهم . ثم هم به فساخت يدا فرسه فى الأرض فقال له : ادع الله لى فلن ترى منى ما تكره فدعا فاستقلت فرسه ورغب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب له كتابا ـ أى كتاب أمن ـ فأمر أبا بكر وقيل عامر بن فهيرة فكتب له . ويستدل من هذا على أن عامرا كان قارئا وكاتبا مما يستوجب إدراجه فى قائمة كتاب رسول الله ، وتلك ميزة أخرى تضاف إلى ميزاته الأخرى التى سبق بيانها .

ولما بلغ رسول الله المدينة ونزلها آخى بين المهاجرين والأنصار على الحق والمساواة ، فآخى بين عامر بن فهيرة والحارث بن الصمة .

وقد حارب عامر بن فهيرة مع أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار فى غزوة بدر ، وهى أعظم المشاهد فضلا لمن شهدها ، ومن ثم كان من البدر بين أصحاب السبق والفضل فى الجهاد .

وختمت حياة عامر بن فهيرة أعظم ختام ، إذ استشهد هو والحارث بن الصمة - أخوه فى دار الهجرة - فى بعث بئر معونة ، وكان رسول الله قد أرسلهما فى وفد من المسلمين على رأسه المنذر بن عمرو الساعدى ، وقد بلغت عدتهم أربعين رجلا . وجاء فى البخارى أنهم كانوا ثلاثين وقيل سبعين من خيار صحابته يسمون القراء كانوا يحطبون بالنهار ويصلون بالليل ، وأمرهم رسول الله بالسير إلى نجد ودعوة أهله إلى الإسلام ، استجابة لمطلب أبى براء عامر بن مالك الكلابى - حين وفد على النبى فى المدينة - وتعهده بحمايتهم . وكان عامر هذا من فرسان قومه وشجعانهم حتى عرف بملاعب الأسنة ، وهو عم عامر بن الطفيل كبير النجديين وعدو المسلمين كما عرف عنه أنه لا يخاف من عدوان أحد عليه .

وخرج ركب أصحاب رسول الله من المدينة فى طريقهم عبر الصحراء إلى نجد ومعهم كتاب منه إلى عامر بن الطفيل زعيم أهل نجد يدعوه فيه إلى الإسلام . ونزلوا موقعا يسمى بئر معونة بين أرض

بنى عامر وأرض بنى سليم فعسكروا فيه .

وأوفدوا من هناك واحداً منهم وهو حرام بن ملحان يحمل إلى ابن الطفيل كتاب النبى . فلما أتاه لم ينظر فى كتابه بل وثب عليه فقتله غيلة وغدراً . ثم استصرخ بنى عامر إلى أصحاب الرسول كى يقتلوهم ، فأبوا أن يجيبوه ، وقالوا : لن نخفر ذمة أبى براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا . فاستصرخ قبائل من بنى سليم : عصية ورعلا وذكوان فأجابوه إلى ذلك . وخرجوا فى وفرة من العدد والعدة لقتال المسلمين . وكان هؤلاء قد استبطأوا صاحبهم حراما ، فأقبلوا فى اثره وماأن لقيتهم عصابة ابن الطفيل حتى أحاطت بهم فى رحالهم فاستلوا سيوفهم ثم قاتلوا الكثرة الباغية الغادرة حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق ، فحمل من المعركة جريحاً إلى المدينة وعاش حتى قتل شهيدا يوم الخندق رحمه الله .

ولقد سجل أصحاب رسول الله ومنهم عامر بن فهيرة فى هذه الواقعة موقفا من أعظم مواقف العمل الفدائى فى تاريخ الإسلام بل فى تاريخ العالم بأسره . فقد أبوا إلا أن يدافعوا عن عقيدتهم فى موطن لا مفر فيه من الموت باذلين دماءهم حتى آخر قطرة فى العروق ثمناً

رخيصاً فى سبيل المبدأ والكرامة ، راغبين أن يفوزوا بالشهادة ضاربين المثل الأعلى فى إيثار الجماعة على الفرد والتضحية فى سبيل العقيدة .

ومن ذلك أن المنذر بن عمرو قائد السرية عرض عليه ابن الطفيل وعصبته أن يبقوا على حياته قائلين : إن شئت أمناك . فأبى وقاتلهم حتى قتل . وفى هذا الشهيد الخالد قال رسول الله : أعنق ليموت ، يعنى أنه تقدم على الموت وهو يعرفه .

وذلك الموقف الذى روى عن المنذر بن محمد بن عقبة وكان يصحب المسلمين مع عمرو بن أمية الضمرى - وكانا قد عهد إليهما بالقيام على مطيهم التى تركوها ترعى - أى حراسة إبلهم - إذ شاهدا طيرا تحوم على موضع بالصحراء فقالا والله إن لهذه الطير لشأنا . وسارا يستطلعان الأمر ، فاذا أصحابهم فى دمائهم ، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة . فقال المنذر لعمرو : ماترى . فقال : أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر . فقال المنذر ما كنت لأرغب عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو . ثم قاتل حتى قتل .

أما مصرع الشهيد عامر بن فهيرة ، فيروى أن عمرو بن أمية وهو الوحيد الذى نجا من المسلمين إذ اقتاده المجرمون أسيرا ثم أطلقه عامر ابن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رغبة زعم أنها كانت من أمه .

يروى أن عمرو افتقد عامر بن فهيرة من بين القتلى ، فسأل عنه عامر ابن الطفيل فقال : قتله رجل من بنى كلاب يقال له جبار بن سلمى . ولما طعنه قال: فزت والله . ورفع إلى السماء علوا فأسلم قاتله، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الملائكة وارت جثته وأنزل عليين وحزن النبي على شهداء بئر معونة أشد الحزن . وبلغ من حزنه أنه ظل شهرا كاملا يدعو على قتلتهم بعد الركعة من الصبح ، فكان يقول : اللهم اشدد وطأتك على مضر . اللهم سنين كسنى يوسف . اللهم عليك ببنى لحيان وعضل والقارة وزعب ورعل وذكوان وعصية فانهم عصوا الله ورسوله .

ويمثل استشهاد عامر بن فهيرة والمنذر بن عمرو والمنذر بن محمد وسائر إخوانهم فى تلك الفاجعة أبلغ الآيات والشواهد على قوة إيمان جنود النبي وثقتهم بالله ورسوله والمؤمنين ، وصلابة إرادتهم فى أداء الرسالة أو الموت دونها . تلك القيم الروحية الرفيعة التى بثها الإسلام فى نفوسهم فجرت فيها مجرى الدماء . ولا عجب أن تصدر هذه الآيات عنهم ، فهم أصحاب المعلم الأعظم فى تاريخ البشرية ، وهم الطلائع الاسلامية المجاهدة التى نشرت فى العالم عقيدة الطهارة والايمان والتضحية .

وكذلك شاءت حكمة الله تعالى أن يعيش عامر بن فهيرة بطلا ويموت بطلا ، وأن تكون حياته القصيرة جهادا متواصلا فى سبيل الله ، وآية على سمو النفس واحتمال الألم مرضاة لله ولرسوله ولصاحب رسول الله ، رضى الله عنه .

ومن استعراض تاريخ حياة عامر بن فهيرة ورفقائه البطولية يمكن أن نستخلص أن اختياره لمباشرة العمل الذى أسند إليه فى الهجرة كان وضعا للرجل المناسب فى المكان المناسب وأن العوامل والأسباب الجذرية التى تقف خلف النجاح الذى حققه هذا الصحابى الجليل هى التنشئة البيئية والاجتماعية والنفسية والتربية العقائدية التى أثرت فى تكوين عامر بن فهيرة وجعلت منه شخصية فدائية .

فلقد نشأ الرجل فى بيت من أكرم بيوت الإسلام ، بيت بُنِىَ على الإيمان بالله والوفاء لرسول الله والتضحية فى سبيل الإسلام ، فكان طبيعيا أن تغرس هذه القيم الروحية فى نفسه منذ طفولته ، وأن يعمقها فى نفسه حسن معاملة أبى بكر له ، معاملة لا تختلف عن معاملته لأبنائه، لما عرف به الصديق من رحمة بالضعفاء ، وتضحية بالمال فى عتق

الجوارى والعبيد الذين اعتنقوا الإسلام وعانوا بسببه العذاب ألواناً من الكافرين .

ولقد دعاه أبو بكر إلى الاسلام فلبى الدعوة ، وكان من أوائل المؤمنين ، ثم حرره الصديق ، وأولاه ثقته ، نخصه بشرف معاونة رسول الله فى مسيرته العظمى ، مستأمنا إياه على سره مسويا فى ذلك بينه وبين أبنائه ، فكان هذا التحرير وتلك الثقة حافزا له على المزيد من الاخلاص والتفانى ، وهل جزاء الاحسان إلا الاحسان .

وقد دعم هذا الاتجاه فى نفس عامر بن فهيرة موقف الإسلام من كل المستضعفين والفقراء والكادحين المطحونين فى قريش ، وسياسته فى تحرير الأرقاء ، تلك السياسة التى تنبع من طبيعته بوصفه دعوة عالمية للحرية والمساواة ، كما أنه دعوة للخير والسلام . فالإسلام حق ، والحق هو الرحمة للعالمين . ومن ثم كان موالى قريش من أسرع الناس استجابة للاسلام . وكان محمد صلى الله عليه وسلم فى نظر المسلمين جميعا وفى نظر هؤلاء الموالى بوجه خاص نبى التحرر من العبودية والثورة على الظلم والظالمين .

ولقد سطر المسلمون ممن كانوا أرقاء لقريش وحررهم الإسلام أروع صفحات التضحية والفداء فى تاريخه ، ويكفى أن نذكر فى ذلك

بلال ابن رباح محاربا وخازنا ومؤذنا للرسول — وكان مولى حبشيا نشأ فى بنى جمح وأسلم ، وسيم صنوف العذاب فما ارتد ، وأعتقه أبو بكر الصديق ، وفى ذلك قال عمر بن الخطاب : «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .

ولاشك فى أن تلك السياسة التى انتهجها الإسلام فى نظام الرق، ووضعها النبى والصحابة موضع التطبيق العملى بتحرير الأرقاء ، وتكليفهم القيام بأعمال لم تكن توكل إلا إلى السادة ، كانت تربية روحية لهم ، وتدريبا على التصدى للمسئوليات الجسام ، وتدعيما لبناء الدولة الإسلامية الناشئة .

ولقد نضج هؤلاء جميعا فى ظل المجتمع المثالى الذى أنشأه رسول الله فى دار الهجرة ، مجتمع العزة والحرية والتوحيد ، مجتمع القوة ، قوة الله ، قوة الحق والخير والمساواة .

الفصل الرابع

التخطيط والتنظيم فى دار الهجرة

خطة من واقع الظروف الجديدة:

كانت كل خطوة تقرب المهاجر العظيم وصاحبه من المدينة علامة على طريق النصر تدنو بهما من الهدف وتقصى عنهما الخطر. وبينما يقطعان آخر أشواط رحلتهما الشاقة ، كان رسول الحق لا يعنى بغير التفكير فى وضع خطة جديدة - بوحى من الله - للمرحلة القادمة ، لا يشغله عن ذلك عناء المسير أو وعثاء البيداء ، ولا تصرفه أعباء الحاضر عن النظر فى احتمالات المستقبل .

وها هى ذى المدينة على مدى البصر ، لم يبق غير فرسخين على بلوغها . فليخلد النبى العظيم وصاحبه إلى بعض الراحة بعد أن تزايل الخطر حتى يستطيعا أن يستأنفا بعدها المسير فى قوة نشاط . ولتكن تلك البقعة الصحراوية التى نزلا بها والتى يطلق عليها قباء محطا لا لتقاط الأنفاس والتفكير فيما يتخذ من تدابير للغد المرتقب .

لقد كان الهدف من الهجرة هو الوصول إلى المدينة، وكان المقصد تأمين الإسلام والمسلمين واستكمال الرسالة فى أرض صالحة . ومن ثم فإن الخطة المنشودة فى الهجرة تستهدف تحقيق هذا الغرض وهو نشر

الدعوة كما هو الشأن فى الخطة التى اتبعها الرسول فى مكة . غير أن الأسلوب والوسيلة اللازمين للتخطيط فى المدينة يختلفان بالضرورة عما اتخذ فى مكة ، فضلا عن أن إنشاء دولة فى المدينة دينها الإسلام كان هدفا رئيسيا آخر للنبى لا ينفصل من الهدف الأول .

وكان الإسلام فى مكة غريباً ، وكان المسلمون مضطهدين لأن الدعوة جاءت بما يخالف مألوف قريش فى عقائدها ومناسكها وعاداتها ولأنها كانت تؤذن بزوال الزعامات القرشية التى كانت لأبى لهب وأبى سفيان وأمثالهم وهم حريصون جد الحرص على تلك الزعامات التى توارثوها ، ولأن قبائل العرب كانت تتهيب مناصرة الدعوة وتأييدها لمكانة قريش منها ، ولأن هذه الدعوة الجديدة كانت تهدد بالسقوط مصالح قريش المادية ونظامها الطبقى القائم على استغلال الإنسان للانسان .

ونظراً لوفرة عدد الأعداء وقوة سلطانهم وشدة حقدهم ، فقد كانوا يمسكون بزمام المبادرة فى أيديهم ، فهم الذين يهاجمون ، النبى وأصحابه وميزان القوى فى صالح الكثرة المستبدة المسيطرة. لذلك ستطال أمر ظهور الإسلام ، واستمر رسول الله فى موقفه

ثلاث عشرة سنة متوالية يجاهد لإعلاء كلمة الحق ، وهو محاصر بظلمات من الباطل بعضها فوق بعض طبقات .

أما في يثرب فإن الوضع مختلف ، فقد كان المسلمون يزدادون بها كل يوم عدداً وسلطاناً ، ولا يجدون من أذى المشركين ولا من أذى اليهود ما يجده إخوانهم بمكة من أذى قريش . وصارت المدينة داراً عزيزة منيعة للاسلام تجمع بين القوة الروحية التى تذكيها عقيدة التوحيد ، والقوه المادية القائمة على خيرات يثرب من زرع ونخيل وأعناب ولقد تكاملت هاتان القوتان فى الحلف الذى عقده رسول الله مع أهل المدينة ، فمن اسلموا أطلق عليهم الأنصار .

وهكذا تغيرت الحال ، ورجحت كفة الإسلام فى الميزان أو أصبحت - على الأقل - معادلة لكفة قريش ، فأصبح من الطبيعى أن تجد الدعوة فى يثرب متنفساً ومنطلقا بعد أن انجابت أمامها صعوبات كانت تقف فى طريقها بمكة . وأصبح ميسوراً لمن يريد الدعوة الجديدة أن يتصل بصاحبها فى حرية وأمن .

حتمية أسلوب المجابهة :

فلا غرو أن يكون الأسلوب المناسب للخطة الجديدة نابعاً من تلك الظروف ، متسقاً معها . فإذا كان موقف النبى وأتباعه بمكة يتسم

بالصبر على الأذى والصمود والمقاومة بالنظر إلى قوة قريش ، فسوف يصبح بعد الهجرة موقف القوى القادرة على رد القوة بالقوة والعدوان بالعدوان .

ولئن كانت الظروف من قبل قد فرضت عليه التزام موقف الإحسان إلى المسيء علّه يرعوى عن غيه ، واحتمال الأذى من المعتدى لعل الله أن يهديه، فسوف يستطيع فى يثرب أن يتخذ موقف المبادرة فيحاصر هو قريشاً ويجاهد بقوته حتى لا تسول لها نفسها أنها قادرة على الاستمرار فى الإيذاء والصد عن الدعوة ، فبالأمس كان كفاحه اصطباراً أما غداً فسوف يكون حرباً على الظالمين حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . والله تعالى يقول : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ .

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ .

﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ .

فقتال العدو حق ، بل هو واجب لنشر الدعوة وتأمين المؤمنين كما أن مجابهة العدو من شأنها أن تفل شوكته وتزيد المسلمين قوة ، فيتاح لهم وقت للتفكير والتدبر فى شئون دينهم والتأمل فى خلق السموات والأرض ، فيتعمق فهمهم للشريعة ويصيرون أقدر على الدعوة لها وتبصير الناس بها ، لايشغلهم عن ذلك أذى يتعرضون له كما كانت الحال بمكة أو تهديد بظلم يخشونه . فالحرية والأمن هما سياج العقيدة والإيمان .

كذلك ، فإن التصدى لقريش وحصرها فى مكمنها ريثما يحين الوقت المناسب لإرغامها على التخلى عن عدوانها بعد أن تأكد عزمها على التمادى فى الباطل ، من شأنه أن يتيح الفرصة لتعمير الأرض ، وتنمية مواردها الاقتصادية ، فتتوافر للمسلمين الكفاية ويرتفع مستوى الفرد والجماعة . فالاسلام دين ودولة ، ولا مناص من خلق الجو الصالح لإقامة دولة إسلامية تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تطبيقاً للشريعة الغراء .

ومن ثم كان قتال المشركين إذا استمروا فى عدوانهم أمراً حتمياً ، فبغير ذلك لا يمكن نشر الدعوة ولا إقامة الدولة وهما المقصد الأصيل للهجرة .

وسيلة تحقيق الهدف : الايمان والوحدة

ووسيلة الوصول إلى هذا الهدف هى توفير القوة للاسلام والمسلمين حتى يستطيعوا مواجهة قريش وقهرها . أما الطريقة الكفيلة بتوفير القوة فهى اتخاذ أنجع التدابير المؤدية إلى ذلك . غير أن قريشاً أكثر عدداً وعدة من المسلمين فى المدينة ، إذ يبلغ رجالها أضعاف عدد المهاجرين والأنصار معاً ، فضلا عن القبائل المتحالفة معها وما تملكه من عتاد، فكيف السبيل إلى التفوق على العدو ، وما هى التدابير التى يمكن القيام بها كى ترجح كافة المسلمين ؟ .

إن التدبير المناسب هو تعميق إيمان المهاجرين والأنصار ، لأن قوة الإيمان كما سنبين تفصيلا فى الفصل التالى هى السلاح المعنوى لذى لا يفله سلاح آخر مادى أو معنوى ، كذلك،فان المسجد فى الاسلام سبيل إلى تثبيت الايمان ودعمه فى النفس ، إذ تقام فيه الصلاة عماد الدين ويلتقى فيه المسلمون صفاً واحداً ويجتمع المسلمون فيه على التوحيد، ويؤمنون بأنه لا إله إلا الله ، والله أكبر فلا خضوع لغير الله. وإنا إلى الله راجعون ، وأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة والموت حق ، فلا خوف اذن من الموت .

والمسجد كما تقدم فى الفصل الأول مدرسة للعلم يتخرج فيها دعاة

الاسلام وينتشرون فى الأرض، فيدعون إليه من لم يسلم، ويبصرون من أسلم بأحكامه. ولما كان المسجد كذلك، سبيلا إلى تدعيم الايمان ونشر تعاليم الدين، فقد كان أول عمل قام به النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن غادر مكة أن أقام بيتاً لله فى قباء التى اتخذ منها محطاً للراحة من عناء الرحلة غير بعيد من يثرب ولم يشأ عليه الصلاة والسلام أن ينتظر حتى يبلغ المدينة ثم يبنى بها مسجداً بل عجل به، وخير البر عاجله وفى ذلك مصلحة الاسلام، فالمعركة الفاصلة بينه وبين الشرك معركة حتمية، وإن يتأخر ميقاتها طويلا فهى واقعة وشيكا لا محالة، وهى معركة حياة، أو موت، السرعة فى تجهيز الوسائل اللازمة لتحقيق الهدف هى وسيلة أساسية من وسائل النصر.

وهكذا أسس النبى مسجده فى قباء خلال الأيام الأربعة التى أمضاها بها مع أبى بكر، وناصره الرحمن فيها بفيض من القوة، فأخذ يعمل بيديه مع صاحبه حتى أتما بناء أول مسجد يقام فى الإسلام

وقد التأم شمل النبى وأبى بكر وعلى فى قباء، إذ بلغها على رضى الله عنه فى أثناء مقام رسول الله والصديق بها، وكان على قد غادر مكة بعد أن رد الودائع التى كانت عند الرسول لأصحابه، وظل يقطع الطريق إلى المدينة وحيداً على قدميه، يسير بالليل ويستخفى بالنهار

طوال أسبوعين كاملين ليلتقى برسول الله وبأصحابه من المسلمين فى يثرب .

أما السلاح الثانى الذى يكفل للمسلمين النصر على قريش بعد سلاح الايمان فهو الوحدة أو دعم الجبهة الوطنية وفقا للمصطلح الحديث . ومن الواضح أن الوحدة تنبع من قوه الايمان ، فهما فى الحقيقة سلاح واحد ، ويمكن القول أنهما جناحا القوة لاتنهض بغيرهما مجتمعين . ولسوف نفصل القول فى الوحدة عند الحديث عنها فى موضعها من الفصل التالى .

تنظيم المسلمين :

أما التدبير الذى يكفل تحقيق الوحدة بعد إنشاء المساجد ، فهو تنظيم المسلمين فى المدينة كوسيلة لخلق جبهة موحدة متقافسة وتعبئتها للمعركة الفاصلة . وما كان أشد حاجة المسلمين فى يثرب إلى الوحده لبناء مجتمع صلب متماسك ، ولإقامة دولة مهيبة الجانب تدين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتقدر على نشر عقيدتها .

وإذا كان الجيش القوى ركناً أساسيا لدولة ، فان وضع تنظيم للمسلمين فى يثرب كفيل بإنشاء جيش قد يكون أقل حجماً من جيش قريش وأشياعها ، ولكنه أكثر فاعلية ، جيش صغير ولكنه

يستطيع أن يواجه الأعداء ، لأن جنوده يتمتعون بما لا يتمتع به جنودها ، فهو جيش عقدى يتبع قيادة واحدة ، وهو واع بأهدافه وأساليبه ، مما يرتفع بمستواه الفكرى إلى درجة كفاءته وقدرته القتالية .

وهذا الجيش يضم كل المسلمين ، بلا تمييز بينهم ، فكل مسلم مكلف بأداء فريضة الجهاد طالما هو قادر عليه . وكل مسلم قوى الإيمان قادر على أن يتحول ساعة الخطر إلى جندى يستطيع أن يواجه مائة من جنود العدو . وموطن القوة فى هذا الجيش مزيج من قوة المقاومة، والعقيدة الراسخة ، والتعبئة الكاملة الشاملة .

فكيف السبيل إلى هذه التعبئة ؟

إن ثمة عقبات تحول دون تحقيق التعبئة، أولاها : العداوة القديمة بين الأوس والخزرج فى المدينة ، تلك التى تحولت بعد إسلامهم إلى منافسة يخشى أن تشتد فتثير الإحن والثارات الكامنة فى النفوس ، فتدب الفرقة فى صفوفهم، الأمر الذى يضعف الجبهة الاسلامية ويفتتها، فلا تقوى على مجابهة العدو الغاشم .

وفضلا من ذلك ، فقد كان شعب يثرب يضم بين جنبيه اليهود

إلى جانب الأوس والخزرج . وكان ثمة تنازع بين الجانبين ، وكثيراً ما أدى هذا التنازع واختلاف المصالح إلى البغضاء ثم إلى القتال . وفى ذلك يقول المرحوم الدكتور محمد حسنين هيكل فى كتابه حياة محمد :

« إن التاريخ ليروى أن المسيحيين فى الشام كانوا يتبعون الدولة الرومانية الشرقيـة ، وكانوا يمقتون اليهود أشد المقت ، لاعتقادهم أنهم هم الذين صلبوا المسيح ونكلوا به ، وقد أغاروا على يثرب ليقتلوا يهودها ، فلما لم يظفروا بهم استعانوا بالأوس والخزرج لاستدراجهم، ثم قتلوا عدداً منهم غير قليل ، مما أنزل اليهود عن مكان السيادة الذى كان لهم ، ودفع عرب الأوس والخزرج إلى مكانة غـير مكانة العمال التى كانوا مقصورين من قبل عليها . وقد حاول العرب من بعد ذلك أن يوقعوا باليهود مرة أخرى ليزدادوا فى المدينـة العامرة بالزراعة وبالماء سلطاناً ، فنجحوا فى غدرهم بعض النجاح ، ثم فطن اليهـود لوقيعتهم بهم .

بذلك تمـكنت العداوة والبغضاء فى نفوس يهود يثرب للأوس والخزرج ، وفى نفوس الأوس والخزرج لليهود . ورأى أتباع موسى أن مقابلة القتال بالقتال قد تهوى بهم إلى الفناء أو قد يجد الأوس

والخزرج حلفاً من بنى دينهم العرب على أهل الكتاب هؤلاء لذلك سلكوا فى سياستهم خطة غير خطة الغلب فى المعارك ، فلجئوا إلى سياسة الوقيعة والتفريق ، إذ دسوا بين الأوس والخزرج وملأوا نفوس هؤلاء وأولئك حفيظة بعضهم على بعض ، مما جعل هؤلاء وأولئك على أهبة مستمرة للقتل والقتال ، وجعل اليهود بمأمن منهم ومن عدوانهم ، يزيدون فى تجارتهم وفى ثروتهم ، ويستعيدون مما فقدوا من سيادة ، ويستمدون ما أضاعوا من دار ومن عقار » .

أما العداء الذى بثه اليهود بين الأوس والخزرج فقد كانت له نتائج وخيمة فى تاريخ المدينة قبل الاسلام ، وكان كل منهم يلتمس الحلف من قبائل العرب ليقاتل الآخر فيشفى صدره من الحقد ويظفر وحده بالسيادة والسلطان . وكان من ذلك أن قدم أبو الحيسر أنس ابن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج وسمع بهم النبى عليه الصلاة والسلام فجلس إليهم ودعاهم إلى الاسلام وتلا عليهم القرآن. فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حدثاً : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم فيه .

وعاد القوم إلى يثرب لم يسلم منهم غير إياس ، لأنهم كانوا فى

شغل بالتماس الحلف استعداداً لوقعة بعاث التي أصطلى الأوس والخزرج جميعاً بنارها بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه من مكة . لكن كلام النبي عليه الصلاة والسلام ترك في نفوسهم بعد هذه الواقعة من الأثر ما دعا الأوس والخزرج جميعاً ليلتمسوا في محمد نبياً ورسولا وحليفاً وإماماً .

وكانت وقعة بعاث بعد قليل من عود أبي الحيسر ومن معه إلى يثرب ، اقتتل فيها الأوس والخزرج قتالا شديداً أملته عداوة متأصلة ، حتى لكأن كل قوم يسائل بعضهم بعضا إذا هم انتصروا أيبقون على أصحابهم أم يستأصلونهم ويجهزون عليهم . وكان أبو أسيد حضير الكتائب على رأس الأوس ، وكان في نفســه من الحقد على الخزرج أشده .

فلما بدأ القتال دارت على الأوس الدائرة فولوا فراراً نحو نجد . فعيرتهم الخزرج فلما سمع حضير تعييرهم طعن بسنان رمحه فخذه ونزل وصاح : واعقراه والله لا أريم حتى أقتل ، فإن شئتم يامعشر الأوس أن تسلموني فافعلوا . فعاد الأوس للقتال وبهم من الألم مما أصابهم ما جعلهم يستبسلون مستيئسين ، حتى انهزمت الخزرج شر هزيمة ، وجعلت الأوس تحرق عليها نخلها ودورها ، حتى أجارها

سعد بن معاذ الأشهلى ، وأراد حضير أن يأتى الخزرج قصراً قصراً وداراً داراً يقتل ويهدم حتى لا يبقى على أحد ، لولا أن منعه أبو قيس بن الأسلت إبقاء على بنى دينهم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب يعنى اليهود .

تلك كانت أحوال الأوس والخزرج قبيل الاسلام .

وظلت المنازعات القبلية بين الأوس والخزرج تحرق شملها، وتثلج صدور اليهود لما تتيحه لهم من تفرغ لشئون المال والتجارة ، على حين يكون أعداؤهم فى شغل عنهم بصراعاتهم الدموية الداخلية ، حتى كانت بيعة العقبة التى ألفت بين قلوب المسلمين من أهل يثرب على دين التقوى والإيمان . غير أن حداثة عهد هؤلاء بالاسلام ، والحاجة إلى وضع تحالفهم مع رسول الله موضع التجربة العملية حين يحين أوان الحرب وهى آتية لا ريب فيها ، يتطلبان تعميقاً لإيمانهم — ومن طريق تفقيههم فى الشريعة وتقديم الأسوة الحسنة لهم — وتأكيداً لأخوتهم — من طريق البحث عن أسلوب أمثل بتوثيقها — حتى يصبحوا جميعاً على قلب رجل واحد ، وتصبح يثرب بهم قلعة متماسكة لا يأتيها الضعف من بين يديها ولا من خلفها .

ولكن جوهر الدين ، وحتمية المعركة ، وضرورة إنشاء الدولة

الجديدة ، كل أولئك يقتضى بناء جبهة عريضة ، لا تقف عند الأوس والخزرج ، بل تمتد لتشمل إخوانهم المهاجرين ، كما تضم يهود المدينة، ذلك أن المواطنة تجمع المسلمين والمؤلفة قلوبهم من أهل الذمة معا ، فلا إكراه فى الدين ، بل لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، طالما لم يجاهروا بالعداوة أو يفتنوا الناس عن دينهم ، والله تعالى يقول : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ .

وقريش قوية بثرواتها البشرية والمادية ، عنيفة فى خصومتها ، مصرة على عدوانها ، ولن يردعها إلا القوة : شعب موحد ، وجيش قوى من أبنائه . والوسيلة لذلك هى تعميق الايمان ، وتدعيم رابطة المواطنة.

الاحتياجات الاساسية :

ومن ثم فإن حاجة الدين والدولة معاً إلى جبهة قوية تستلزم أموراً ثلاثة :

١ — توحيد الأوس والخزرج من طريق صهرهم فى بوتقة واحدة لاستئصال كافة عوامل النفور ورواسب الثارات القديمة .

٢ — توحيد المهاجرين والأنصار من طريق إدماجهم وإذابة الفوارق بينهم .

٣ — تأليف اليهود من طريق عقد معاهدة تحالف معهم، إتقاء لاحتمالات انضمامهم إلى قريش .

تلك هي القواعد التي لا مفر من إقامتها كي يرتفع فوقها بناء الدولة الجديدة ، وهي تتصل جميعاً بوحدة الصف ووحدة الهدف كوسيلة أساسية أولى للقوة . أما الوسيلة الثانية للقوة وهي تعميق الايمان في النفوس ، فإنها تتحقق بالوحدة ، كما تتحقق ببناء بيوت الله في المدينة ليذكر فيها اسمه تعالى في الغدو والآصال ، ولتصبح منارة عالية لدولة الاســـلام الأولى ، ورمزاً لحضارته الناشئة ، بما يمثله المسجد من مجلس نيابي يناقش فيه المسلمون شئون دينهم ودنياهم ويتشاورون على بساط الديمقراطية الحقة .

وهكذا تحددت الخطة وتكاملت عناصرها ، ووضحت طريقة العمل ، خطة وطريقة تكفلان النصر للمسلمين وقهر عدوهم ، وبذلك تنفتح الآفاق لرسالة التوحيد ويغمر نورها العالمين ، ويعود إلى مكة في المدى البعيد أولئك الأبطال المناضلون الذين أكرهوا على ترك

ديارهم وأهليهم وأموالهم ، يعودون إلى بيت الله الحرام مهوى نفوسهم فينشقون فى حماه عبير الوطن الغالى ، ويشفون صدورهم مما برح بها من التحنان هنالك ترفرف أعلام الحق ، وتسقط أصنام الباطل ، وما النصر إلا من عند الله .

واطمأن قلب رسول الله بما أوحى إليه من تخطيط وتنظيم فى دار الهجرة التى أصبح غير بعيد منها . ولم يكد ينتهى مع أبى بكر من بناء مسجد قباء ، حيث حطا فى الطريق حتى استأنفا مسيرتهما إلى المدينة يفيض قلباهما إيماناً وثقة بانتصار الحق ، ويلهج لسانهما بالدعاء إلى الله والحمد لله .

وبلغ محمد يثرب فى يوم مجيد من أيام التاريخ ، فاستقبله المسلمون بها استقبالا ستظل روعته حاضرة فى ذاكرة الأجيال يتوارثون بهجتها جيلا بعد جيل استقبالا تتردد فيه أصداء الأناشيد والأغاريد :

طلع البدر علينـا ... من ثنيات الوداع
وجب الشـكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينـا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينـة ... مرحباً يا خير داع

وبقدر ما برح بهم الشوق إلى رؤية رسول الله الذى آمن الكثيرون منهم بدعوته قبل أن يروه ، كانت حرارة اللقاء . فلطالما سهرت عيونهم الليالى يعدونها ليلة بعد ليلة بعدأن علموا بهجرته إليهم ولطالما خرجوا إلى العراء من ديارهم بعد صلاتهم الصبح يرتقبون مقدمه ولا ينصرفون حتى يرتفع النهار وتتقاص الظلال وتغلبهم حرارة الشمس على أمرهم فى ذلك الصيف القائظ فى الصحراء كأنه سياط اللهب ، ويتلاشى أملهم فى رؤية محمد عليه السلام .

وهتف البشير أن قد جاء رسول الله معبراً عن ذلك بقوله : يابنى قيلة - الأوس والخزرج — هذا جدكم قد جاء (يعنى حظكم) فتدافعت المواكب من كل صوب ، وقد استبدت بها اللهفة إلى رؤيته وأفعم حنايا ها فرط السرور . وصدق صاحب البشرى ، فلقد كان النبى فى ذلك الوقت قد بلغ مشارف يثرب وكان المكان ديار بنى سالم فتلقوه ، فمر بالقلوب قبل الأيدى والعيون ، وقيل إنه نزل على سعد ابن خيثمة ، وقيل إنه نزل على كلثوم بن الهدم . ونزل أبو بكر على خبيب بن اساف ، وقيل بل نزل على خارجه بن أبى زهير ، وكلاهما من بنى الحارس من الخزج.

وكان فيمن خرج لينظر إليه قوم من اليهود وكان فيهم عبدالله بن

سلام . قال عبد الله بن سلام : فلما نظرت إليه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول ما سمعت منه : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام .

ثم خرج رسول الله من ديار بنى سالم ، راكب ناقته متوجهاً حيث أمره الله ، وكان اليوم يوم جمعة ، فلما حانت صلاتها صلاها رسول الله فى بطن الوادى واجتمع أهل المدينة حين دخلها يتشوفون إلى طلعته رافعى رؤسهم مكبرين مهللين . وتنافس الرجال كل منهم يود أن يحظى دون غيره بشرف استضافة رسول الله فى بيته .

وفى ذلك يقول ابن عبد البر فيما كتبه من السيرة النبوية : فخرج إليه رجال من بنى سالم ، منهم العباس بن عبادة وعتبان بن مالك ، فسألوه أن ينزل عندهم ويقيم . فقال : خلوا الناقة فإنها مأمورة . . ونهض الأنصار حوله حتى أتى دور بنى بياضة ، فتلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو فى رجال منهم ، فدعوه إلى النزول والبقاء عندهم . فقال عليه الصلاة والسلام : دعوا الناقة فإنها مأمورة . ومضى حتى أتى دور بنى ساعدة ، فلتقاه سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو ورجال من بنى ساعدة . فدعوه إلى النزول والبقاء عندهم ، فقال صلى الله عليه

وسلم دعوا الناقة فإنها مأمورة . . ومضى حتى أتى دور بنى الحارث ابن الخزرج فتلقاه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة فدعوه إلى البقاء عندهم، فقال : دعوا الناقة فإنها مأمورة . ومضى عليه الصلاة والسلام حتى أتى دور بنى عدى بن النجار وهم أخوال عبد المطلب فتلقاه سليط بن قيس وأبو سليط من بنى خارجة ورجال من بنى عدى بن النجار ، فدعوه إلى النزول عندهم والبقاء فقال : دعوها فإنها مأمورة .

باكورة تدابير الوحدة .

ولا شك أن القرار الذى اتخذه النبى فى شأن اختيار مكان مسجده ومسكنه بالمدينة ، كان باكورة أعمال النبى فى مجال إنشاء وحدة وثيقة بين الأوس والخزرج . فالدلالة واضحة فى عدم قبوله ما عرضه عليه كل من الرجال الذين سبقت الإشارة إليهم من الإقامة بمنزله ، ذلك أن قبول دعوة مسلم ينتمى إلى الأوس دون مسلم آخر ينتمى إلى الخزرج المنافسة لها قد يحمل معنى التمييز بين قبيلة وأخرى وفى هذا ما فيه من احتمالات الانقسام بينهما . ومن ثم قرر النبى أن ينبذ كل عمل قد يوحى بالمفاضلة بين الأنصار بعضهم وبعض ، وأن يتبع خطة حكيمة يكون من شأنها التوحيد بين المسلمين من أهل

المدينة . فكان إباؤه النزول عن ناقته ، وأمره بإخلاء سبيلها حتى تبرك ، دونما توجيه ، فى موضع من المواضع ، يتخذ فيه مقامه سواء كان مالكه من الأوس أو الخزرج وبذلك يقطع الطريق على كل مظنة للتفضيل أو التمييز ، وتتأكد المساواة بينهما فى فضل مناصرة رسول الله ، فتتآلف قلوبهم ويصبحوا بنعمة الله إخوانا .

ويذكرنا ذلك القرار الحكيم فى مغزاه وأسلوبه بقرار مماثل اتخذه الرسول قبل البعثة فى موقف التحكيم بين المكيين فى وضع الحجر الأسود فى مكانه فى الجانب الشرقى للكعبة إذ أتى بثوب فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، فيحملوه جميعاً إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه . وبفضل هذا التفكير السليم انحسم الخلاف وقضى على الفتنة فى مهدها وحقنت دماء لم يكن يعلم إلا الله مبلغ ما كانت ستصير إليه لو لم يضع محمد هذه الخطة السديدة ، ويتخذ هذا التدبير الملائم .

ومما يجدر بالذكر فى هذا المقام ، إباء رسول الله أن يأخذ مربد غلامى بنى النجار إلا بالثمن . فهو موقف مماثل لموقفه حين أبى أن

يأخذ إحدى راحلتى أبى بكر إلا بالثمن ، ضارباً بذلك المثل فيما ينبغى أن يقدمه الحاكم للرعية من أفعال وأقوال تجعل منه أسوة حسنة لهم .

ومضى صلى الله عليه وسلم حتى أتى دور بنى مالك بن النجار ، فبركت الناقة فى الموضع الذى بنى فيه النبى بعد ذلك مسجده وداره . وكان هذا المكان مربد تمر لغلامين يتيمين من بنى مالك بن النجار وهما : سهل وسهيل ، كانا فى حجر - كفالة - معاذ بن عفراء . وكان فيه وحواليه نخل وخرب وقبور المشركين . وبركت الناقة وبقى عليه الصلاة والسلام على ظهرها لم ينزل ، فقامت ومشت قليلا وهو لا يهيجها - ينخسها - ، ثم التفتت خلفها ، فبركت - أقبلت - إلى مكانها ، وبركت فيه واستقرت ، فنزل عليها صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل إن جبار بن صخر بن سلمة ، وكان من صالحى المسلمين ، جعل ينخسها منافسة على بنى النجار فى نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندهم ، فانتهره أبو أيوب بن خالد الأنصارى على ذلك وأوعده . فلما نزل رسول الله عن ناقته أخذ أبو أيوب رحله - متاع الراكب - فحمله إلى داره . ونزل عليه الصلاة والسلام دار أبى أيوب فى الطابق الأرضى منها وبقى مضيفه مع أهله فى الطابق العلوى .

فلما كان بعد أيام سقط شيء من ماء أو غبار على رأس النبي في ذلك البيت . فنزل أبو أيوب فزعا وأقسم على رسول الله متوسلا ليصعدن إلى العلو ، وليهبطن أبو أيوب إلى السفل ، فأجابه النبي إلى رغبته . ولقد أراد الرجل أن ينزل للنبي عن ذلك المسكن ويسكن فيه وحده ، فأبى رسول الله . وكان فعل أبي أيوب هذا مثل فعل أبي بكر حين عرض على رسول الله في الهجرة خير الراحلتين اللتين أعدهما ليمتطياها في الطريق إلى المدينة ، مما ينبيء عن فرط حب الصحابة لرسول الله .

ولم يزل رسول الله مقيما في مسكن أبي أيوب مدة بلغت سبعة أشهر ، كما أورد بعض المؤرخين . وأراد في هذه الأثناء أن يبنى له داراً ومسجداً في البقعة التي بركت فيها الناقة ، وكان قد سأل عن مالك المربد فقيل هو لغلامين كما سبق البيان . فأراد شراءه . فأبت بنو النجار بيعه ، وبذلوه لله ، وعاوضوا اليتيمين بما هو أفضل . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يأخذه إلا بثمن .

كما أن هذا التصرف النموذجي في مضمونه السامي وهو احتمال المشقة والاضطلاع بالمسئولية كاملة وإيثار الصالح العام على الصالح

الخاص ، فما يدعم بناء الشخصية الإسلامية ، ويدعم بالتالى وحدة الجبهة الداخلية ، ويقوى إيمان المسلمين .

إنجاز الخطة

أولا : بناء مسجد النبي بالمدينة:

لم يكد النبي يهبط دار الهجرة ويقيم فى دار أبى أيوب حتى شرع فى بناء مسجد المدينة، فكان يعمل فيه بيديه والمسلمون من المهاجرين والأنصار حوله يشاركون فى ذلك العمل الطليعى الجليل حتى أتموه وأقاموا من حوله مساكن رسول الله .

وما كان بناء المسجد ولا كان بناء المساكن ليرهق أحداً وقد كانت كلها من البساطة بما يتفق وتعاليم محمد . وكان المسجد فناء فسيحاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجر والتراب ، وسقف جزء منه بسعف النخل وترك الجزء الآخر مكشوفاً ، وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون مسكناً . ولم يكن المسجد يضاء ليلا إلا ساعة صلاة العشاء إذ توقد فيه أنوار من القش أثناءها وكذلك ظل تسع سنوات متتابعة شدت بعدها مصابيح إلى جذوع النخل التى كان يعتمد سقفه عليها . ولم تكن مساكن النبى أكثر من المسجد ترفا ، وإن كانت بطبيعتها أكثر منه استتارة .

وهكذا أقيم أول بيت لله فى المدينة وهو ثانى مسجد فى تاريخ الإسلام إذ كان أول مسجد قباء . وارتفع التكبير يملأ الفضاء من مئذنة المسجد خمس مرات فى اليوم، وأمة الأنصار والمهاجرون يؤدون فيه الصلوات خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حامدين لله رب العالمين الذى هداهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين انعم عليهم . وضاعف تجمع المهاجرين والأنصار فى مسجد الرسول من قوة إيمانهم ووحدتهم واعتزازهم بنبيهم وثقتهم بالنصر على المشركين .

ثانيا : المؤاخاة بين المسلمين والأنصار :

كان الهدف إقامة وحدة عقائدية سياسية بالمدينة ، وكان التدبير المناسب لتحقيق هذا الهدف هو تنظيم الصفوف للقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بين المسلمين فى يثرب .

أما الأسلوب فقد كان نسيج وحده فى تاريخ الإنسانية جمعاء ، أسلوب فريد لم يعرفه قائد أمة من قبل ولا من بعد ، أسلوب يقوم على الإخاء الإنسانى ، إخاء فى العقيدة، وإخاء فى الحقوق والالتزامات

ذلك أن رسول الله — بعد أن بنى المسجد وكان قد مضى على قدومه إلى المدينة خمسة أشهر - دعا المهاجرين والأنصار ليتآخوا فى الله أخوين أخوين ، فكان هو وعلى بن أبى طالب أخوين، إذ قال النبى

لعلى : أنت أخى فى الدنيا والآخرة أو قال له انت أخى وصاحبى . وكان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين . وكان أبو بكر وخارجة بن زيد بن أبى زهير أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بين مالك الخزرجى أخوين كما آخى رسول الله بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت ، وبين أبى مرثد الغنوى وعبادة بن الصامت ، وبين الزبير وكعب بن مالك ، وبين طلحة وأبى بن كعب ، وبين سعد بن أبى وقاص وسعد بن معاذ ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، وبين عبد الله بن جحش وعاصم بن ثابت ، وبين أبى حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر ، وبين عتبة بن غزوان وأبى دجانة ، وبين مصعب بن عمير وأبى أيوب ، وبين ابن مسعود ومعاذ بن جبل ، وبين أبى سلمة بن عبد الأسد وسعد ابن خيثمة ، وبين عمار وحذيفة ، وبين أبى عبيدة ومحمد بن مسلمة ، وبين عثمان بن مظعون وأبى الهيثم بن التيهان ، وبين سلمان الفارسى وأبى الدرداء .

وهكذا تآخى كل واحد من المهاجرين الذين كثر عددهم بيثرب بعد أن تلاحق إليها سائر من كان منهم بمكة فى أعقاب هجرة الرسول ، مع واحد من الأنصار . وروى أن المهاجرين والأنصار الذين شملتهم المؤخاة كانوا تسعين رجلا خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة

وأربعين من الأنصار . وقيل كانوا مائة : خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار .

وكانت هذه المؤاخاة على المواساة والحق والتوارث ، إذ جعل الرسول لها حكم إخاء الدم والنسب سواء ، فكان المهاجرون والأنصار يرث بعضهم من بعض حتى نزلت (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) فنسخت هذه الآية ما فرضته المؤاخاة من التوارث ، أما ما وراءها من الحق والمواساة فقد ظلا قائمين .

ولقد سبقت هذه المؤاخاة ، مؤاخاة بين المهاجرين بعضهم وبعض قبل الهجرة فآخى رسول الله بين أبى بكر وعمر ، وبين حمزة وزيد ابن حارثة ، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير وعبدالله ابن مسعود ، وبين عبيدة بن الحارث وبلال ، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص ، وبين أبى عبيدة وسالم مولى أبى حذيفة ، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله . وكانت هذه المؤاخاة على الحق والمساواة فقط دون التوارث .

ولقد ارتضى الأنصار هذا الإخاء مخلصين ، وبلغ من قوته أن فاق أخوة النسب والدم ، إذ تبارى المسلمون من الأوس والخزرج فى التنازل لإخوانهم المهاجرين عن بعض أموالهم لسد حاجتهم إذ

كان هؤلاء قد تركوا مكة وتركوا وراءهم مايملكون من مال ومتاع ودخلوا المدينة ولا يكاد الكثيرون منهم يجدون قوتهم ولم يكن منهم على جانب من الثراء والنعمة غير عثمان بن عفان . أما الآخرون فقليل منهم من احتمل من مكة شيئاً ينفعه ، وقد ذهب حمزة عم الرسول يوماً يطلب إليه أن يجد له ما يقتات به .

وكان عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين ، ولم يكن عبد الرحمن يملك بيثرب شيئاً . فعرض عليه سعد أن يشاطره ماله فأبى عبد الرحمن ، فطلب إليه أن يدله على السوق وفيها بدأ يبيع الزبدة والجبن ، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة فى زمن قصير وأن يمهر إحدى نساء المدينة ، وأن تكون له قوافل تذهب فى التجارة وتجىء . وصنع غير عبد الرحمن من بعض المهاجرين صنيعه إذ كان لهؤلاء المكيين من الدراية فى شئون التجارة ماقيل معه عن أحدهم : إنه ليحيل بالتجارة رمل الصحراء ذهباً .

أما الذين لم يشتغلوا بالتجارة ، ومن بينهم أبو بكر وعمر وعلى ابن أبى طالب وغيرهم ، فقد عملت أسرهم فى الزراعة فى أراضى الأنصار مزارعة مع ملاكها . وكان غير هؤلاء وأولئك يلقون من الحياة شدة وبأساً ، لكنهم كانوا يأبون أن يعيشوا كلا على غيرهم ،

فكانوا يجهدون أنفسهم فى العمل أشد الإجهاد ، ويجدون فى ذلك من لذة الطمأنينة لأنفسهم ولعقيدتهم مالم يكونوا يجدون بمكة . على أن جماعة من العرب الذين وفدوا على المدينة وأسلموا ، كانوا فى حال من العوز والمتربة ، حتى لم يكن لأحدهم سكن يلجأ إليه . هؤلاء أفرد الرسول لهم صفة المسجد – وهى المكان المسقوف منه – يبيتون بها ويأوون إليها ولذلك سموا أهل الصفة ، وجعل لهم رزقا من مال المسلمين من المهاجرين والأنصار الذين آتاهم الله رزقاً حسناً .

وفى صدق أخوة الأنصار للمهاجرين يقول الله تعالى :

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

ويقول جل شأنه فى فضل الأنصار :

﴿ والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾ .

وبفضل هذا التنظيم المحكم القائم على المؤاخاة اندمج المهاجرون والأنصار وتلاحموا فى كيان واحد ذابت فيه النزعات الفردية وسادت الروح الجماعية على أساس جديد لم يشهد التاريخ له مثيلا ، وهو أساس

العقيدة لا أساس الدم أو النسب .

ومن المعلوم أن التنظيم بطبيعته سبيل إلى نشر العدالة وهى هدف أصيل لرسالة الإسلام ، ذلك لأن الفوضى أو سوء التنظيم من شأنه أن يترك الناس هملا ، بلا تحديد للسلطات والمسئوليات فينطرحون على شطئان الضلالة وتستبد بهم الأهواء الجامحة ، أو تشتعل نيران الفتنة فيسود الظلم ، ويشيع استغلال الإنسان للانسان ، حتى يصبح الجور قاعدة والعدل استثناء .

فلا غرو أن ترتفع فى سماء المدينة لأول مرة راية العدل والمساواة ، وأن تعمر أرضها بالسلام بين أهليها المسلمين ، وأن تصبح موطن قوة قوامها العقيدة الراسخة ، والكفاح الدائب ، والتعبئة الكاملة الشاملة ، وهى جميعاً سمات المجتمع الاشتراكى الثورى الحق .

قيمة العمل فى دار الهجرة :

ولقد أرسيت من خلال الروابط الوثيقة التى ألفت بين المهاجرين والأنصار قيم إنسانية واجتماعية ومبادىء مثالية لا عهد المجتمع القبلى بها ، وإنما هى من شأن المجتمعات المتحضرة الفاضلة . وفى مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشريف كوسيلة لكسب الرزق . فلقد قبل المهاجرون فى أول الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة ،

ولكنهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزق لهم ولا يعولوا على رابطة المؤاخاة التى سعد بها الأنصار ، فكان منهم من اشتغل بالتجارة ، ومنهم من عمل بالزراعة ، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالة على إخوانهم .

ولا شك أن هذه التجربة التى خاضها المهاجرون فى المدينة تمثل أول تطبيق عملى لمبدأ الإسلام فى تأكيد قيمة العمل والإنتاج لما تؤدى إليه من خلق مجتمع سليم فى علاقات أفراده بعضهم ببعض من جانب ، وفى علاقتهم بالدولة من جانب آخر ، وهو الهدف الأساسى للعدالة الاجتماعية .

وقد رفع الإسلام شعار كرامة العمل ، وجعله أساساً فى تربية الشعب على المبادىء الديمقراطية والمثل الإنسانية ، وبديلا للقيم الجاهلية الباطلة التى كانت تزن قيمة المرء بمعيار ما يستحوذ عليه من ثراء ، أو ما يملكه من نفوذ أو جاه وسلطان آل إليه ، بغض النظر عما إذا كان مصدره مشروعاً أم من طريق الاستغلال .

فالعمل فى الإسلام هو القوة الكفيلة بإذابة الفوارق بين الطبقات وإنشاء علاقات اجتماعية إنسانية صحيحة بين الناس تقوم على الحق والعدل والتعاون ، وتقضى على النظم الفاسدة التى ترتكز على

استغلال القوى للضعيف وامتصاص عرق الأجير واستنزاف قواه لحساب صاحب المال المرفه المتعالى ، وازدياد الفقير فقراً والقوى ثراء، وتوسيع الهوة بين الأفراد والجماعات ، وما يترتب على ذلك كله من صراعات وأحقاد ومظالم وفوضى يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل ، وتظل تنخر فى كيان المجتمع حتى يتفسخ وتسقط دولته .

ومن ثم رفع الإسلام المكانة التى أولاها للعمل فى المجتمع ، فجعله محور العلاقات الاجتماعية فلا كسب إلا كسب العمل، والمكان الأسمى فى المجتمع للعاملين ، والعمل هو أساس التقييم للأفراد والجماعات . وقد ذكر العمل فى القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة وقرن الله بينه وبين الإيمان . وبلغ من تأكيد قيمة العمل أن جعله الإسلام عبادة وهى منزلة لم تصل إليها النظم المعاصرة التى قصرت فائدته على سد حاجات الإنسان المادية والمعنوية .

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أن الإخاء والعمل كانا حجر الزاوية فى بناء مجتمع دار المهجر ، وبالتالى فى تأسيس الحضارة الاسلامية التى بنيت أصولها فى المدينة بعد إقامة أول دولة فى الاسلام برئاسة النبى ثم ترعرعت حتى أصبحت شجرة يتفيأ ظلالها العالم كله .

ثالثا : التحالف مع يهود المدينة

كانت رابطة اليهود بيثرب تقوم على الإقامة بها واستغلال خيراتها والإثراء بعائدها من الثمرات والأموال . ولقد اختاروها مقراً لسكناهم دون غيرها من الأماكن بالجزيرة العربية لما عرفت به أرضها من خصوبة جعلت فيها كثيرا من الزروع والنخيل والأعناب، ولموقعها الاستراتيجى الممتاز ، إذ كانت تمر بها القبائل فى ذهابها إلى الشام أو عودتها منها ، فيشهد الناس بها منافع لهم وتزدهر فيها الحركة التجارية والاقتصادية . وكان يهود يثرب يتألفون من بنى قينقاع فى داخلها ، وبنى قريظة فى فدك ، وبنى النضير على مقربة منها ، ويهود خيبر فى شمالها ، وكانت كل جماعة من هؤلاء تشكل إقطاعاً زراعياً واحتكاراً تجارياً .

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا أهـــل كتاب ودعاة وحدانية ، فان التاريخ يسجل خروجهم على الرسالات السماوية ، وإهدارهم القيم الروحية والمبادىء الإنسانية وكانت علاقتهم بجيرانهم من لأوس والخزرج فى المدينة قبل أن يدخلها الاسلام تقوم على الحقد والمقت . وإذا كان لهؤلاء عذرهم فى عداوتهم لليهود بوصفهم من عباد الأوثان ، فماذا كان عذر اليهود وهم أصحاب التوراة ! .

لقد أسلم الأوس والخزرج حين دعاهم محمد إلى شريعة الحق ، وقاموا بدورهم في نشر عقيدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . أما اليهود فقد بقوا على دينهم ، وظلت سياستهم في المدينة تقوم على تدبير الخطط الكفيلة بالإبقاء على مصالحهم وامتيازاتهم والاستئثار بكل الخيرات دون غيرهم من السكان .

وقد سبقت الإشارة إلى أن اليهود حين أدركوا أنهم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم وأموالهم والتوسع في المدينة للاستيلاء على مزيد من الأرض لفرط حرصهم على أرواحهم من أن تزهق في القتال لجأوا إلى سلاحهم التقليدي ، سلاح الدس والوقيعة وإشاعة الفرقة بين الأوس والخزرج ليشغلوهم عنهم بالتنازع والاقتتال ، ويستردوا بذلك بعض سيادتهم المهدرة وسلطانهم الضائع بعد هزيمتهم من نصارى الشام .

وكان يهود المدينة يستغلون معرفتهم ببعثة الرسول ، فيقولون للأوس والخزرج كلما اختلفوا معهم : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما كلم النبي أولئك النفر من الخزرج الذين وفدوا إلى مكة للحج ، نظر بعضهم إلى بعض وقالوا : والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه .

ودخلوا فى دين الله ، وقالوا للرسول : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، وأن يجمعهم عليك ، فلا رجل أعز منك .

ومن ذلك يتبين كيف كان اليهود يستغلون معرفتهم ببعثة محمد عليه السلام فى إرهاب الأوس والخزرج بقولهم إنهم سينضمون إلى النبى المرسل ويحاربون معه فيجهزون عليهم بحكم رابطة الوحدانية التى تجمع بين اليهود وبينه ، مستهدفين من زعمهم هذا إلقاء الرعب فى نفوس منافسيهم فى المدينة حتى يصيبوهم بالوهن والعجز عن محاربتهم ومن ثم لا ينازعوهم فى استعمار المدينة واستغلالها . وكانوا يهدفون من جهة أخرى إلى بذر بذور العداء بين الأوس والخزرج وبين النبى المبعوث حين يعلم أولئك أنه سينضم إلى اليهود فى شن الحرب عليهم .

ومن الواضح أن اليهود كانوا كاذبين فيما زعموا من عزمهم على محالفة الرسول الذى علموا من التوراة ببعثه فى الجزيرة العربية ، إذ كانوا قد أعدوا العدة للكيد له ما لم ينضو تحت أجنحتهم ، كى يظلوا هم وحدهم أصحاب عقيدة الوحدانية فى الجـــــزيرة ، وبالتالى سادتها ومستغليها . ولم يكن ذلك تعصباً دينياً منهم بلغ حد الكفر

فحسب ، بل كان حفاظاً على سلطانهم القائم على الأطماع .

وقدم النبي مهاجراً إلى يثرب التي انتشر فيها الإسلام وعلا شأنه وانتظر أهلها على شوق أن يطلع عليهم البدر من ثنيات الوداع . فلما أشرقت طلعته استقبلوه أعظم استقبال سواء في ذلك المسلمون الذين هاجروا من مكة والذين اتبعوا محمداً من الأوس والخزرج أو الذين لم يدخلوا الإسلام من قبائل المدينة ويهودها . وقد يعجب امرؤ من أمر هؤلاء اليهود ، كيف يحسنون لقاء محمد ، وهم أعداؤه . ولكن هذا العجب . سرعان ما يزول إذ نتذكر ما طبع عليه اليهود من نفاق ومن رغبة في الوصول إلى أهدافهم بغض النظر عن شرعية الوسيلة .

ومن هنا أقبل اليهود على استقبال الرسول متظاهرين بالمودة ، لعلهم يجنون بها ما لا يجنون بالمجاهرة بالعداء ، ولا سيما أنهم شاهدوا بأعينهم ما كان عليه الإسلام من بأس وقوة في المدينة . ولا غرو أن يحيطوا بالرسول بين من أحاطوا به لعل ذلك يفيدهم سياسياً واجتماعياً أما إذا مالت الريح عن محمد فهم معها حيث تميل ، وإن هذه لموهبتهم التي لا يجاريهم فيها أحد من بني البشر . ويعلل أحد الباحثين مبادرة يهود المدينة إلى حسن استقبال النبي بظنهم أن في مقدورهم

استمالته إليهم وإدخاله في حلفهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي أجلت اليهود ، شعب الله المختار في زعمهم ، عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومي، كما يفترون .

وظل اليهود يرقبرن في حذر تزايد النفوذ الاسلامي بالمدينة والغيرة تنهش صدورهم ، والنبي الكريم يؤمنهم ويكفل لهم حرية العقيدة ، مثلهم في ذلك مثل المسلمين والنصارى كلهم سواء في تلك الحرية ؛ بل إنه عليه الصلاة والسلام كان يفسح لليهود صدره ويوثق معهم صلاته ، فيتحدث إلى رؤسائهم وهو صاحب السلطان الأكبر في يثرب ، ويمنحهم مودته ، ويسبغ عليهم من عطفه ووفائه وبره حتى ليصوم يوم صومهم ، فضلا عن رابطة بيت المقدس التي تصله بهم إذ كانت قبلته في الصلاة كما كانت قبله أنظارهم ومثابتهم جميعاً .

واتجه الرسول بادىء ذي بدء إلى إنشاء وحدة سياسية ونظامية واجتماعية – كما أسلفنا — بين سكان المدينة من المسلمين واليهود . ومهد ذلك بتوحيد المسلمين بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ثم بدأ يعمل بعد أن كسب مودة اليهود على عقد تحالف سياسي معهم

بوصفهم أهل كتاب موحدين ضد المشركين من قريش .

وجاء هذا العقد ضمن صحيفة « وثيقة » كتبها الرسول بين المهاجرين والأنصار ، إذ وادع فيها اليهود وعاهدهم وأقرهم على عقيدتهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم « فمن تبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة — أى المساواة فى المعاملة — غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو إثم فإنه لا يوتغ — يهلك ويفسد — إلا نفسه وأهل بيته .

وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ، ويهود بنى ثعلبة وجفنة وابنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد الا بإذن محمد وأنه لا ينحجز على ثأر جرح — لا يلتئم جرح على ثأر . وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم — وإن الله على أبر هذا .

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم النصح والنصيحة

والبر دون الإثم ، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه . وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين . وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هـــذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف مشادة فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وســلم — وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فان لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين : على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هـــذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الاثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

وأنه لا يحول هذا الـكتاب دون ظالم أو آثم . وأن من خرج

آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن بر وأتقى .

وتثبت هذه الوثيقة التاريخية مدى الحقوق والحريات الواسعة التى منحها محمد عليه الصلاة والسلام ليهود المدينة ممن وقعوا عليها ، حقوق وحريات مدنية وسياسية وعقائدية يتساوون بها مع المسلمين كما تسجل الالتزامات التى ألقيت على كاهلهم والتى تكفل لهم بدورها المساواة مع المسلمين ، وهى التحالف فى الدفاع عن المدينة إذا هاجمتها قريش والتضامن مع المسلمين فى احترام نصوص هذه المعاهدة .

لذلك لم يمض غير قليل حتى أقبل يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ، وكانوا لم يشتركوا فى التوقيع على هذه المعاهدة يعلنون عن رغبتهم فى الانضواء إليها ، ويقبل النبى هذا العرض فيوقعون عليها .

وانصرف النبى بعد تأمين الجبهة الداخلية بمقتضى هذا العهد إلى شئون الدين ، وإلى تدعيم القيم الروحية فى نفوس المسلمين ، بإشاعة الإخاء والعدل والمحبة والرحمة بين بعضهم وبعض من طريق القدوة

الحسنة واضعاً بذلك أركان الدولة الاسلامية الأولى التى قامت على أكتافها أسس الحضارة الجديدة

تلك هى التدابير التى اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذاً لخطة العمل فى المدينة : بناء المسجد، وتوحيد المسلمين ، وعقد معاهدة مع اليهود . ولقد نجحت تلك التدابير نجاحاً كاملا فيما عدا محالفة اليهود إذ كان نجاحها جزئياً وإن كان قد أوفى بغايته فى المرحلة الأولى .

ذلك أن اليهود سرعان ماقلبوا للنبى ظهر المجن ولم يقدروا مزايا الحلف الذى كفل لهم جميع الحقوق والحريات . فخالفوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم ، وبدأوا يكيدون للنبى وينكرون نبوته ويتآمرون ضده مع من بقى على الشرك من الأوس والخزرج ومن أسلم منهم نفاقاً ، رغبة فى مغنم أو اتقاء لمغرم وقد غلبت عليهم طبيعتهم وماجبلوا عليه من مكر سىء حتى تآمروا على اغتيال رسول الله بعد أن عجزوا عن الوقيعة بين المهاجرين من الأنصار والتفرقة بين الأوس والخزرج ثم تحالفوا سراً مع المشركين من أهل مكة لاقتحام معقل المسلمين بالمدينة عنوة .

فلم يكن ثمة مناص من الضرب على أيديهم بشدة ، فكانت

غزوتا بنى قينقاع وبنى النضير ثم غزوة خيبر التى انتهت بانتصار الإسلام وسقوط أعدائه .

وبعد ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أجدر بنا فى ظل المرحلة الحاسمة التى تمر بها أمتنا العربية أن نتدارس هجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى ضوء علم التخطيط والتنظيم والقيادة والإدارة ، ونستخلص منها الخطط والأساليب التنظيمية القادرة على تأمين ديننا وقوميتنا ونظمنا الاجتماعية فى معركة المصير ضد أعدائنا وأعداء القيم الإنسانية .

﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ . ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

الفصل الخامس

القيادة الإدارية فى دار الهجرة

تمهيـــد

الادارة والقيادة الادارية :

يقتضينا بحث القيادة الإدارية التى اضطلع بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة أن نمهد ببيان أهمية الإدارة وتعريفها ومقوماتها ونخلص من ذلك إلى دراسة الشخصية الإدارية النموذجية كما تبدو من خلال أعمال النبى فى مهاجره بالمدينة وتوافر عناصر القيادة الإدارية فيها.

لقد أصبحت الادارة علماً له قواعده وأصوله ، وفى تطوره يتبع منهجا علمياً ولا يتطور بالمصادفات أو بالشعارات أو بالنوايا الحسنة وحدها . ولذلك غدت الثورة الإدارية من أبرز سمات عصر التقدم الحضارى الذى نعيشه . وتنبع أهمية الإدارة من كونها وسيلة تنفيذ العمل وبالتالى أداة تحقيق الأهداف . ويمكن تعريف علم الادارة العامة بأنه دراسة نشاط العاملين فى مجال معين فى سبيل تحقيق أهداف محددة مرسومة يعبر عنها بالسياسة العامة . ومن ثم فإن الإدارة هى توجيه جهود مجموعة من الأفراد لاستغلال طاقاتهم وإمكانياتهم المتاحة

لتحقيق غرض مشترك ومراقبة تنفيذ العمل طبقاً للخطط الموضوعة .
والادارة — بهذا المفهوم — ضرورة حتمية لكل جهد جماعي وهي تقوم على دعامتين متكاملتين لا قوام لإحداهما بدون الأخرى، تتمثل الأولى في الأفراد المكلفين بأداء العمل ،وتتمثل الثانية في العمل الذي يضطلع به هؤلاء الأفراد . ويمكن القول بعبارة أخرى أن الإدارة تستلزم :

— وجود أكثر من شخص للقيام بعمل معين .
— أن يكون الهدف المراد تحقيقه من هذا العمل الجماعي هدفاً مشتركاً
— أن يقوم الرئيس بعبء الادارة ويقوم غيره بالتنفيذ .
— ومن التعريف أيضاً نستطيع أن نحدد العناصر الأساسية للادارة فهي لا تخرج عن :

— التخطيط .
— التنظيم .
— التوجيه .
— الرقابة .

وهذه العناصر يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وإن عدم الاهتمام بأحدها يؤثر على تحقيق الهدف تأثيراً كبيراً . فالتخطيط رغم استقلاله بذاته كأول خطوة من خطوات الادارة لا يمكن أن ينتج أثره أو يجدى مالم يعقبة تنظيم دقيق للعمل يتضمن تقسيم الواجبات ، وتحديد المسئوليات والسلطات ، وتوضيح العلاقات ، وإيجاد وسائل فعالة للرقابة على مختلف نواحى النشاط .

ورغم أهمية التخطيط والتنظيم كما سبق أن بينا فى الفصلين الثانى والثالث ، إلا أنهما يعتبران خطوتين فى سبيل التجهيز أكثر منهما فى نطاق التنفيذ . ولذا يلزم أن يتوافر العنصر الثالث من عناصر الادارة وهو التوجيه ، أى يجب تهيئة سبل الاتصال بالمرءوسين وتسهيلها لمداومة إرشادهم عند القيام بعملية التنيفذ ، وخلق الحوافز التى ترغبهم فى العمل وتدفعهم إليه بروح الفريق ، وذلك عن طريق القيادة الرشيدة . والعنصر الأخير من عناصر الادارة بعد أهمها ، وهو الرقابة.وهذا العنصر يعنى ضرورة التأكد من أن تنفيذ الأعمال يسير وفقاً للخطة السابق إقرارها واعتمادها ، وطبقا للتوقيتات الزمنية وبالوسائل المحددة سلفاً . ويجب أن تشمل الرقابة جميع مراحل التنفيذ حتى يمكن تصحيح الانحرافات أولا بأول ، والتصحيح يكفل ما سبق أن فرضناه فى الخطة من ضرورة توافر خاصية المرونة فيها .

وتأسيساً على ذلك ، فإن التخطيط هو الخطوة الأولى للعمل ، ويعقبه التنظيم . أما التوجيه والرقابة فإنهما يبدآن معاً منذ اللحظة الأولى لبدء تنفيذ الخطة ويستمران حتى يتحقق الهدف . وأما اتخاذ القرارات فإنه عملية مستمرة تبدأ مع أولى خطوات التخطيط وتستمر حتى ينجز الهدف .

وغنى عن الذكر أن تحقق هذه المواهب والقدرات فيمن يتولى رئاسة الجماعة وإدارة العمل من شأنه أن يجعله أهلا للقيادة الادارية . ومن هنا أصبحت تلك القيادة إحدى الموضوعات المتشعبة التى يتألف منها علم الادارة العامة . وأصبح لا غنى عن الإلمام بها لكل من يعنى بشئون الجماعة ، ويعمل على إصلاحها .

تعريف القيادة الادارية

لاشك أن جماعة العاملين فى مجتمع أو ميدان ما ، لا يمكن أن يستقيم أمرها وتصبح وحدة واحدة متماسكة قادرة على النهوض بأعبائها مالم يكن لها قائد تتوافر فيه مقومات القيادة الحكيمة . فالقيادة الإدارية ضرورة حتمية يستحيل دونها أن يحقق المجتمع أهدافه فى الارتفاع بمستوى أفراده وإقرار العدل والخير والسلام بينهم والمشاركة فى ركب التقدم الحضارى . ولابد من وجود هذه القيادة فى جميع

المستويات ابتداء من الدولة حتى أصغر قطاع فى المجتمع . وهى تتمثل فى الأشخاص الذين ارتضتهم الجماعة حكاما لها فى مختلف أوجه نشاطها. فالدور الذى يضطلع به القائد فى مجال إدارة الجماعة وقت السلم لا يقل أثراً فى تدعيمها وتوحيدها وتحقيق غاياتها عن دور القائد فى المعركة الحربية . ومن هنا كانت الدراسات المستفيضة التى تتناول خصائص القيادة وصلاحيات القائد فى مجال علم الادارة وتأثيرها البالغ فى حياة الشعوب والمجتمعات والجماعات .

وقد تعددت تعاريف القيادة ونظرياتها وأنماطها . فيعرفها بعض الباحثين الغربيين بأنها :

« عملية تأثير متبادل يؤدى عن طريق تضافر الأفراد ـ رغم مابينهم من فروق ـ إلى توجيه النشاط الانسانى سعياً وراء مسألة مشتركة .

كما يعرفها آخرون بأنها :

« المقدرة على التأثير فى الناس ليتعاونوا فى سبيل تحقيق هدف يرغبون فيه » .

وثمة تعريف آخر للقيادة بأنها :

« الشخصية فى تفاعلها مع ظروف جماعية » .

وقد وضع بعض المؤلفين العرب التعريف التالى للقيادة الادارية :

« القيادة هى المقدرة على توجيه سلوك جماعة فى موقف معين لتحقيق هدف أو عدة أهداف » .

ويلاحظ أن جميع هذه التعاريف ، وإن اختلفت القوالب التى أفرغت فيها ، تلتقى فى مضمون أساسى وهو التفاعل أو التأثير أو الاشعاع الذى يسرى تياره بين القائد والجماعة ، فيؤمن بهدف واحد، ويتفقون على أسلوب واحد فى العمل .

على أن اصطلاح القيادة يستخدم أحيانا لدلالات أخرى . فقد يقصد به تلك الصفة التى تخلعها الجماعة على فرد من أفرادها تتوافر فيه مناقب وقدرات معينة تجعله أهلا للصدارة وأحق بالرياسة ، فتنزله الجماعة منها منزلة الحاكم وتـكل إليه تدبير شئونها وحل مشكلاتها وتوفير أمنها ورخائها. وقد ينصرف معنى القيادة إلى السلطة الرئاسية التى يفوضها الشعب إلى أحد أبنائه أو جمع منهم توسمت فيهم القدرة على السير بها فى سبيل تحقيق الأهـــداف والآمال التى تجيش فى صدرها . كذلك ، فإن لفظ القيادة قـد يرمز إلى صاحبها فتنصرف القيادة بهذا المعنى إلى الجماعة الحاكمة التى تحتـل المراكز العليا

في المجتمع وتشغل منه الصفوف الأمامية ، ويسمى سائر أعضاء الجماعة حينئذ بالقاعدة نسبة إلى مكانهم من البنيان الاجتماعي وموقعهم من خط السلطة .

وقد استخدمنا مصطلح القيادة في هذه الدراسة بمعنى القدرة على توجيه مجموعة من الناس يستهدفون غرضا واحدا ويجتمعون على مبادىء واحدة ومنهج واحد في سبيل تحقيق هدفهم .

نظريات القيادة :

أما النظريات التي تفسر القيادة ، فثمة نظرية يطلق عليها نظرية السمات ، وهي تنادي بأن القائد يتمتع ببعض السمات التي تؤهله للقيادة ، أما التابع فيفتقر إلى بعض هذه السمات ، ولذلك لا يمكنه أن يقوم بدور القائد .

بيد أن كثيرا من النقد قد وجه إلى هذه النظرية إذ أنه لا يمكن تحديد السمات التي أشارت إليها بصفة دقيقة ، وإذا كان للقيادة بعض مقوماتها التي يجب أن تتوافر في القائد ، فإن تلك المقومات لا ترتقي إلى سمات على درجة عالية من الثبات .

وتذهب النظرية الثانية وهي نظرية القيادة إلى أن القيادة لا ترتبط كلية بالفرد القائد ، بل إنها ترتبط أيضا بالعلاقة الوظيفية بينه

وبين أعضاء الجماعة ، وأن العامل المشترك بين القادة ليس هو سمات معينة ولكنه مقدرة القادة على إظهار معرفة أفضل أو كفاءة أكثر من غيرهم فى مواقف معينة ، ومعنى هذا أن الموقف هو الذى يحدد القائد .

ولما كان الموقف يحـــدد بعض المعايير التى تتضمنها العناصر المتداخلة فيه ، فإن الشخص الذى تنطبق عليه تلك المعايير أكثر من غيره هو الأقدر على التعامل مع الموقف من غيره ، فيصبح تبعا لذلك هو القائد . وربما لاتنطبق على نفس الشخص معايير موقف آخر ، فلا يصبح قائدا ، وربما أصبح تابعا لشخص كان يقوده فى موقف آخر .

ويتبين من ذلك أن فيصل التفرقة بين النظريتين أن نظرية السمات تحدد عدد القادة ، على حين أن نظرية المواقف توسع من قاعدة القيادة بمعنى أن كل شخص يمكن أن يغدو قائدا فى بعض المواقف ، وذلك إذا توافرت فيه الصفات التى يتطلبها الموقف .

وثمة نظريات أخرى فى تفسير القيادة ، ومع ذلك فإن جميع النظريات ـ على اختلاف مذاهبها ـ تسلم بأن للقيادة مقومات ينبغى توافرها حتى يمكن أن نطلق على صاحبها وصف القائد .

فيصل التفرقة بين القائد والرئيس :

وقبل أن نتناول بالتحليل مقومات القيادة الادارية النبوية فى دار الهجرة ، نود أن نشير إلى أن بعض علماء الادارة العامة يطلقون اصطلاح القيادة على السلطة التى لها حق إصدار القرارات . ولكنا نؤثر عدم الأخذ بهذا التعريف حيث أنه ينطبق على القائد كما ينطبق على الرئيس مع مابينهما من فارق كبير فى المعنى . ومن خلال هذا الفارق تتبلور خصائص القيادة الحقة .

فالرئيس هو الشخص الذى يفرض إرادته بإصدار الأوامر وإلزام الأفراد بتنفيذها دون أن يشاركهم أعباء العمل ومسئولياته . وهو يستمد سلطته من مصدر أعلى من ـ الجماعة ـ كالقوة أو التشريع ـ دون أن يعززه بقوة الرأى العام المنبثق من إجماع الأفراد على احترامه وطاعته . وهو لايتجاوب مع الجماعة ، ولا يهتم بتعليمها وتدريبها وتنمية خبراتها ، بل يعمد إلى الاحتفاظ بما لديه من معلومات ، ويفخر بأنه لايوجد ثمة متخصص سواه ، الأمر الذى يضر بالصالح العام ، لما ينشأ عنه من سوء فى العلاقات ، وافتقاد للثقة ، وشيوع للفرقة ، وسريان لليأس والتواكل فى نفوس المرءوسين ، وما ينجم عن ذلك كله من انعدام الحوافز وضعف الايمان بالهدف ، والتراخى فى تنفيذه.

أما القائد فهو الذى يستمد سلطانه ونفوذه من الرضا العام . وهو يحوز هذا السلطان طواعية من أعضاء الجماعة ، لا رهبة أو خوفاً من العقاب وهم يضعونه منهم مكان الصدارة لأنهم مقتنعون بميزاته وراغبون فى قيادته لهم ، فالقائد الادارى الناجح هو الذى يستطيع أن يدفع العاملين معه إلى العمل فى الاتجاه الصحيح بحيث يخلق منهم وحدة منظمة ، تقوم على التعاون الإيجابى الذى يؤدى إلى استمرار النجاح والوصول إلى الأهداف المنشودة . وهو يعتمد على قدرته فى استنباط الأصول النظرية وتطبيق القواعد العملية التى ترفع الروح المعنوية بين معاونيه ، وتزيد شعورهم بالمسئولية وتقديرهم لها ، حتى يقبلوا بأنفسهم – مختارين – على تنفيذ ما يعهد لهم به ، بدافع من إيمانهم بالواجب ، فلا تشل حركة الإدارة فى غيبته ، بل يستمر الجهاز فى عمله مواصلا سيره فى طريقه المرسوم .

ومن ثم ، فإن القائد الحق هو الذى يتخذ من التعاون فى سبيل تحقيق الصالح المشترك أسلوباً للعمل ، ويتطلب هذا الأسلوب وعياً ومعرفة وقدرة على تصريف الأمور وانتهاج السياسة المناسبة وتوثيق العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فإذا توافرت هذه المقومات – لولى أمر الجماعة فإنه يصبح معلماً ومربياً لها ، يرقى بمستواها وينقل إليها خبراته ويبدى لها المشورة القائمة على السند العلمى والتجارب السابقة

والفطنة والرجاحة فى الفكر ، ويتعاون معها على قدم المساواة ، فلا يحرم عليها ما يحل لنفسه ، ولا يفرق بين أفرادها أو يميز بينهم إلا على أساس العمل والعلم والتقوى . وهو يطرح المشكلة للبحث عن حل لها محقق للأغراض المتفق عليها . وبهذه الروح يضع الأسلوب الصحيح للعمل ، ثم يبدأ الجميع فى التنفيذ حتى يصل إلى خاتمة البرنامج .

وفى ضوء هذه المبادىء نستطيع أن نعرف وظيفة القيادة الناجحة بأنها القيام بتلك الأعمال التى تعين الجماعة على إنجاز أهدافها ، بمعنى أن يتعاون أعضاؤها بطريقة تضمن تماسكهم وتحركهم فى الاتجاه الملائم ، ومن ذلك يتبين أن القيادة على خلاف الرئاسة ، تنبع من الجماعة ويشعر الأعضاء بالحاجة إليها ، وهى تؤمن بأهداف الجماعة وتشعر بمشاعرها وتستمد منها قوتها .

على أن التفرقة بين القيادة والرئاسة لا تصل إلى حد وصفهما بأنهما نقيضان ، فالرئيس الكفء يستطيع أن يبلغ مرتبة القيادة إذا كان مؤهلا لها ، وكثيراً ما شاهدنا رؤساء يندمجون فى الإدارات التى يتولون أمورها ويتعاونون مع سائر العاملين بها ، فينظر الفرد إلى الرئيس أو المدير على أنه عضو فى الجماعة وقائدها فى نفس الوقت ،

ومن هنا فإن القيادة تتعلق بشخص الرئيس نفسه ، فالرئيس الموهوب الذى يشغل منصباً صغيراً فى إمكانه أن يرتفع بمستوى رئاسته إلى درجات القيادة الناجحة ، على حين أن شاغل المنصب الرئيسى قد يعجز عن الوصول إلى مستوى القيادة لعـــدم توافر مقومات القيادة فى شخصه .

مقومات القيادة وتفسيرها :

وقد أجمع الباحثون على أن القيادة فى أى مجال من المجالات موهبة تصقلها الممارسة والتجربة ، وأن القائد تتوافر له عدة مؤهلات أولاها الشجاعة والجرأة ، ثم الذكاء وبعد النظر ، وقوة الخلق وفهم الطبيعة البشرية . ومن أهم صفات القيادة كذلك ، العلم ، والتجربة ، وسرعة الخاطر ، والبت فى اللحظات الدقيقة الحرجة ، ثم الحماسة وروح الابتكار ، وحب المغامرة ، والفطنة ، والفراسة ، وصحة الحكم ، والقدرة على التنظيم ، وحسن الادارة ، وقوة التأثير ، والنفوذ الشخصى ، والحرص والرزانة ، وحب العدالة ، وروح الشرف ، والواجب نحو الله ، والوطنية والتجرد من الحسد ، أو التطلع إلى المجد الشخصى ، والصمود للمحنة وهذه الصفات كلها أو بعضها قد توافرت فى القادة العظام الذى خلدهم التاريخ .

وقد انتهى الباحثون من تحليل نفسيـــة الفرد وروح الجماعة ، ودراسة الدوافع والحوافز ، ومتابعة حركة التاريخ وتطور الحضارات، واستقراء سير العظماء والأبطال فى تاريخ الانسانية ، إلى وضع عدة نظريات فى مقومات القيادة . وتعزو إحدى هذه النظريات ما يمتاز به القائد الناجح من صفات إلى القوة النفسية الواحدة، وتعزو الأخرى مزاياه إلى القوى النفسية العامة ، على حين تذهب النظرية الثالثة إلى أن صفات القائد إنما تصدر عن القوى النفسية الخاصة بنوع معين من القادة . ولئن تضاربت هذه النظريات الثلاث فى مضمونها النفسى ، فإن ثمة نظرية رابعة تنحو منحاً مغايراً فتعزو جوهر صفات القائد إلى القوة الجسمية ، وهو أمر لا نسلم به لما يشوبه من نزعة عنصرية تستغل نتائج علم الأجناس (الأنثروبولوجيا) فى تبرير نظريتها غير الانسانية .

وفى رأينا أن أفضل النظريات فى مقومات القيادة وأولاها بالفهم والدراسة هى تلك التى تقدم تفسيراً صحيحا قوامه التحليل النفسى والاجتماعى لما يمتاز به القادة من قدرة فذة على تآلف الأفراد والجماعات حتى يصبح الواحد هو الكل والكل هو الواحد .

ومن ثم فقد آثرنا فى هذا البحث أن نأخذ بالنظرية الاجتماعية التى تقول إن علاقة القائد بالمجتمع هى علاقة اندماج وتكامل، والقائد الحق هو الذى يستطيع بفضل مزاياه وإخلاصه أن يحوز تقدير أعدائه قبل أصدقائه . وفى ضوء هذا المفهوم للقيادة الناجحة حددنا المقومات الأساسية للقيادة الادارية فى الإسلام وكما أسفر عنها تحليل سيرة رسول الله بعد الهجرة إلى المدينة بمعنى الصفات والمميزات التى تتوافر فى القائد . ولما كان القائد الإدارى مرتبطا بالعمل السياسى بمعنى الدعوة العقدية ، فإن هـذه المقومات تصدق على الناحيتين الإدارية والسياسية لاشتراكهما فى أهم العناصر القيادية ، وهى أن يكون القائد نابعا من الجماعة ، له هدف إصلاحى محدد واضح ، وأن يكون مؤمنا برسالته ، واعيا بمبادئها ، قادرا على العمل فى سبيل تحقيقها ، ذا قدرة على القيادة بدون استعلاء على أفراد الجماعة ، ملتزما بما يدعو إليه ، قدوة تحتذى فى السلوك الذى يغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، مؤمنا بالحرية والقيادة الجماعية القائمة على الشورى ، صبورا حكيما ، وشجاعا ، ذا بصيرة بالمستقبل وقدرة على التخطيط والتنظيم والاشراف والتوجيه والرقابة .

وقد تناولنا أهم هـذه المقومات فى المباحث التالية بالتطبيق على

أعمال رسول الله فى دار الهجرة .

— الانتماء إلى الجماعه .

— قوة الإيمان أو الحافز الصادق .

— القدوة فى الالتزام بالدعوة .

— الصبر والمقاومة في مواجهة التحديات .

— التعاون والإخاء بين القيادة والقاعدة .

— الالتزام بمبدأ الحرية والقيادة الجماعية .

— القدرة على التخطيط والتنظيم .

تلك هى أهم الصفات والمناقب التى يمتاز بها القائد الفـذ فى المجتمع فتسلـكه فى عداد الأبطال والرواد فى تاريخ الحضارة الإنسانية . وإذا رجعنا إلى تاريخ الدولة الإسلامية فى العصر النبوى ، تبين لنا بوضوح أن القيادة الادارية الرشيدة كانت من أهم القواعد التى بنى عليها نظام الحـكم فى المدينة ، ومن ثم كانت عاملا رئيسيا فى ازدهار الدولة فيما بعد وسيادة عقيدتها وحضارتها فى معظم أرجاء العالم . وقد ضرب الرسول الـكريم لأصحابه ـ بما أثر عنه من أقوال وأفعال ـ

أعظم المثل لما ينبغى أن يتحلى به القائد الإدارى من مناقب وسجايا ، إذ كان يحمل على عاتقه من الأعباء الجسام ما تنوء به الطاقة البشرية بحكم تلك الأمانة العظمى التى حملها لهداية الناس من الظلمات إلى النور وقد وهبه الله من مقومات القيادة ما مكنه من نشر دعوته وإتمام رسالته برغم ما حمله من مسئوليات وماواجهه من عقبات وتحديات.

وفى ضوء النظريات والأفكار الحديثة التى قد مناها حول القائد والقيادة ، سوف نتداول مقومات القيادة الادارية كما تبدو من خلال سيرة الرسول عليه السلام فى دار الهجرة « المدينة » ، متابعين هذه المقومات وفقا لترتيبها آنف الذكر ونظرا إلى أننا سبق أن درسنا التخطيط والتنظيم بحسبانهما من القدرات التى تميز بهما النبى قائداً إداريا ، فسوف نفصل القول فى سائر مقومات تلك القيادة ونخص منها بالذكر الأنتماء إلى الجماعة والقدرة على توجيه الجماعة وحفزها إلى الإيمان بالتعاون والتآخى سبيلا للنجاح ،وقوة الإيمان أو الحافز الصادق، والقدوة فى الالتزام بالدعوة ، والصبر والمقاومة فى مواجهة التحديات.

ونشير بادىء ذى بدء إلى أنه يصدق على الهجرة معنى الادارة كما سبق أن أوضحناه ، اذ كانت توجيها من رسول الله لجهود مجموعة من الأفراد المؤمنين والإفادة من طاقاتهم وإمكانياتهم المتاحة لتحقيق

غرض مشترك ومراقبة منه لتنفيذ هذا العمل الجماعى طبقا لما وضعه من خطط ، كما كانت الادارة التى اضطلع بها عليه السلام ضرورة حتمية، وكانت تتوافر فيها المستلزمات التى يحددها علماؤها المحدثون من تحديد الاشخاص المنوط بهم أداء المهمة ووحدة الهدف المراد تحقيقه ، وقيام القائد بالادارة وأعوانه بالتنفيذ ولا خلاف أن رسول الله كان يجمع بين العمل القيادى والمشاركة فى التنفيذ حسبما سنبين فى المبحث الخاص بالقدوة فى الالتزام بالدعوة ويتبين كذلك من تحليل أحداث الهجرة فى مختلف مراحلها بالنظر إليها كعمل قيادى إدارى أن ثمة ارتباطا وثيقا بين العناصر الأساسية للادارة فيها كما حددناها آنفا وهى التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة ، وأن التخطيط كان الخطوة الأولى وقد أعقبه التنظيم ، وأنهما مما كان يشكلان المرحلة التمهيدية أو التحضيرية ، على حين أن التوجيه والارشاد وإثارة الحوافز والرقابة كانت تشكل المرحلة التنفيذية . ومن ذلك أيضاً أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يتخذ قراراته منذ أول خطوة فى الهجرة حتى أتم تكوين المجتمع الاسلامى الجديد بالمدينة ويستدل من هذا على أن الهجرة كانت عملا إداريا مثاليا وفقاً لأحدث الدراسات .

ومن الواضح أيضا أن معايير القائد الإدارى بالمصطلح العصرى تطابق شخصية قائد الأمة الإسلامية وقائد الإنسانية الأعظم من حيث كونه بشراً هيأه الله للاضطلاع بدعوته ولولا ذلك لما استقام أمر المسلمين فى دار الهجرة وأصبحوا وحدة واحدة متماسكة حققت أكبر معجزة فى تاريخ البشرية حين استطاعت نشر رسالتها وحضارتها فى العالم بسرعة غير معهودة فى زمن بدائى لا تتوافر فيه من وسائل الاتصال والانتقال والتجهيز وغيرها ما نجده فى عصرنا الحديث. ولا ريب فى أن تحقق تلك المعجزة يثبت أن الطاقة الانسانية هى أعظم ما أتاحه الله للانسان . وأنها أقوى من تلك الوسائل مجتمعة ، وذلك متى توافرت لها قيادة إدارية رشيدة . إن هذه القيادة هى التى تجعل الفرد والجماعة كلا لا يتجزأ ، فيصبح «الواحد» عشرة بل عشرات فى قوته ، وتصبح الجماعة واحداً فى تماسكها .

لقد سخر الله للانسان الأرض والجبال والبحار والفضاء ، ومكنه من ابتداع الآلات على اختلاف أنواعها ، ولكنه قد يصبح عبداً لهذه الآلات إذا افتقد العقيدة الحقة والقيادة الادارية الحقة فضل طريقه وتفرق شمله وتخبط بغير شعاع من الإيمان والمعرفة والنظام والحكمة فغدت آلته تستخدمه فى الأغراض المنافية للعدل الإنسانى

والـكرامة الآدمية بدلا من أن يستغلها هو فى تحقيق الخير والسلام والعدالة والتقدم والرخاء .

وإذا استعرضنا التعريفات الحديثة للقيادة الادارية التى أوردناها تبين لنا أن القاسم المشترك بينها هو مقدرة التأثير فى الجماعة وتوجيه سلوكها ، الأمر الذى تتميز به شخصيه الرسول الكريم فى المقام الأول ، فلقد كانت هجرته مرحله فاصلة فى التاريخ . نقل أمة بأسرها لا جماعة محدودة فى عددها من النقيض إلى النقيض ، من الضلال إلى الهدى ، من النور إلى الظلام ، من الجهل إلى العلم ، من العبودية إلى الحرية ، من الفرقة إلى الوحدة ، من الجمود والتخلف إلى التقدم والازدهار ، بفضل الاشعاع الذى كان يسرى تياره فى موجات متتابعة بينه و بين الناس .

كما أننا إذا لاحظنا التفرقة التى أوضحناها بين الرئيس والقائد ، أدركنا أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام إذ شرع فى وضع أسس الدولة لاسلامية الأولى فى دار الهجرة كان يمثل القيادة ــ وهى أسمى من الرياسة ــ فى أشرف وأكمل صورها . فلم يكن رئيسا يفرض إرادته على مجتمع المدينة بإصدار الأوامر والنواهى وإلزام أفراد الجماعة بتنفيذها أو يستمد سلطته من القوة . بل كان قائداً يشارك جماعة المهاجرين والأنصار

أعباءها ومسئولياتها ، كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد ، ويلتقى معها روحا ووجدانا ، وتنبع قوته من هذه المشاركة وذلك التجاوب ويعزز مكانته بقوة الرأى العام المنبثق من إجماع الافراد على احترامه وطاعته رغبة لا رهبة .

لقد كان المسلمون فى دار الهجرة يقبلون بل يندفعون بأنفسهم مختارين لتنفيذ ما يعهد به إليهم قائدهم المختار ، بفضل الروح المعنوية التى رفعها فى نفوسهم وتدريبهم على تحمل المسئواية ، وزيادة شعورهم بها وتقديرهم لها . فكانوا يعملون ويضحون ويتسابقون فى العطاء بدافع من إيمانهم بالواجب . وكان هذا الايمان هو الذى سد الفراغ الناشىء فى المدينة وفى سائر بقاع الجزيرة العربية التى دخل أهلها فى الإسلام بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق لأعلى ، فلم تشل حركة إدارة المجتمع بعد ذهابه بل استمر كل يقوم بدوره فى نشر الرسالة والسير بها فى طريقها الذى رسمه رسول الله .

لقد استمرت الرسالة تشع فيضها على العالم لأن المسلمين كانوا قد تشربوا مبادىء الاسلام وتغلغلت فى أعماقهم مثله وقيمه التى كان يجدها القائد المبعوث من عند الله . ولأنهم قد تعلموا منه اتخاذ التعاون فى سبيل تحقيق الصالح المشترك أسلوبا للعمل ، أسلوبا يقوم

على الوعى والمعرفة وحسن تصريف الأمور وانتهاج السياسة المناسبة والتلاحم بين الحاكم والمحكوم فاستفادوا وارتقى مستواهم الفكرى والنفسى بما نقل إليهم من خبراته وبما زودهم من مشورته القائمة على الفطنة والعلم والرجاحة فى الفكر ، وما كان يقبمه من سياسة المساواة وعدم التمييز بينهم إلا على أساس العمل والعلم والتقوى .

الانتماء إلى الجماعة

إن فيصل القول فى وظيفة القيادة الناجحة — كما أسلفنا — أنها القيام بتلك الأعمال التى تعين أعضاء الجماعة على تحقيق هدف مشترك يقتنعون بأهميته، فيتفاعلون بطريقة تضمن تماسكهم وتحركهم فى الاتجاه الملائم . ومن ثم ، فإن انتماء القائد إلى الجماعة يقع فى المقام الأول من الأهمية بين مقومات القيادة الأصيلة ، لأنه يصل القائد بقومه برباط نفسى وفكرى ، ويجمع بينهما فى سبيل واحد لتحقيق غاية واحدة .

وقد دلت الدراسات النفسية والاجتماعية التى تناولت سير القادة خلال العصور المختلفة على صدق هذه النظرية . فأجمع الكتاب والباحثون والمتخصصون على أن الانتماء يحقق للقائد الإحساس بمشاعر الجماعة واحترام تقاليدها وتبنى نمط تفكيرها ، وهى جميعا عناصر

جوهرية فى بناء شخصية القائد وقدرته على كسب الرأى العام وقيادته؛ ذلك أن هذا التجانس النابع من الانتماء عامل أساسى فى تيسير مهمة القائد لما ينشأ عنه من تجاوب بين القمة والقاعدة ، وطالما تحقق هذا التجاوب فإن ثمة ضمانا لوجود أهم مقومات النجاح فى العمل

فالقائد الذى ينبثق من صميم الجماعة سرعان ما تهوى إليه أفئدة العناصر الصالحة منها بحكم تآلفها الوجدانى والعقلى والاجتماعى معه ، وشعورها أنه لم يفرض عليها ، وإنما اختير من صميم بيئتها ومجتمعها. فهو قد نما وتطور فى ظل الظروف التى أحاطت بها والمراحل التى مرت بها ، وإن كان يمتاز عن كل فرد من أفرادها بصفات ومناقب خاصة تجعله أهلا لشغل مكان الصدارة منها .

ومن هنا يلتقى القائد والجماعة على أرض واحدة ، ويتفاهمان بلغة واحدة ويحسان بمشاعر متشابهة . وتلك هى نقطة الارتكاز التى تبدأ منها مسيرة الجميع نحو الهدف المنشود فى ظل دفع مستمر أشبه بموجات تسرى فى الجماعة من تأثير القائد فيمن حوله وتأثرهم به فى حلقات متصلة بغير انقطاع. ويسفر هذا عن تفاعل إيجابى يؤدى بدوره

إلى حب كل فرد لعمله وإيمانه بدوره وتقديره للعاملين له وتعاونه فى سبيل الصالح العام .

وإذا كنا قد أشرنا من قبل إلى أن الرئيس الكفء يستطيع أن يكون قائدا ، فإن مثل هذا الرئيس مهما بلغت كفاءته يعجز عن الوصول إلى هذه المرتبة إذا لم يكن منتميا إلى الجماعة ، بل يظل رئيسا فحسب لأنه بغير هذا الانتماء لا يستطيع التفاهم معها أو إدراك حقيقة مشاعرها وتقدير رغباتها واحتياجاتها ومعرفة مشاكلها ، والقدرة على تحريك هذه المشاكل للوقوف على الأسباب التى تكمن خلفها ، ووضع حل للقضاء عليها . ومعنى هذا أن الرئيس الذى يفتقد الانتماء يصبح قريبا من الجماعة بشخصه ، ولكنه يظل غريبا عنها بالفكر والروح . ومن العسير فى ظل هذه العزلة أن يحقق أى نجاح فى إدارة شئون الجماعة والسير بها فى سبيل إنجاز الأغراض المنوطة به .

ومن الثابت أن فرض رئيس على مجموعة من الأفراد غريبة عنه هو أحد الأسباب الجوهرية التى تؤدى إلى هبوط الروح المعنوية ، وسوء العلاقات ، الأمر الذى ينعكس على العمل ، ويخلق مشاكل لاتعداد لها . إذ كثيرا ما نجد أن مثل هذا الرئيس الذى وضع فى غير موضعه ، يعنى بأمور تخرج عن محيط اهتمامات الجماعة ، ولا تتصل

بمصالحهم أو مصالح العمل اتصالا مباشراً وثيقا . فهو يجد نفسه تلقائياً — بدافع من عزلته الروحية والفكرية — مسوقا إلى اتخاذ مركز مصطنع يؤكد به وجوده . وهو يقيم هذا المركز على أساس السلطة المفروضة ، ويحقق به رئاسته الشكلية التي تتمثل في الأثاث والرياش والعرض دون الجوهر ، مميزاً لنفسه عن سائر أعضاء الجماعة ، وبعداً بذلك عن الموقع الحقيقي للعمل وما قد يعترضه من مشكلات تقتضي مواجهتها والبحث عن سبيل لعلاجها .

ولا شك أن المظاهر التي يلوذ بها مثل هـــذا الرئيس تمثل أكداسا من — الرسميات والكماليات الجوفاء قصد بها تغطية قصوره في الإنتاج . وهي تنشىء حواجز مصطنعة بينه وبين العاملين معه وتزيد مسافة الخلاف بينهم ، فيصبح هو في واد وهم في واد آخر . بل يصبح دخيلا على العمل تبعاً لكونه دخيلا على العاملين . وإذا تصدى لأمر يتعلق بالعمل فهو لا يلمس إلا القشور ولا يستطيع أن ينفذ إلى الجذور .

كذلك ، فإنه ينشأ عن عدم انتماء الرئيس إلى الجماعة أن يلجأ إلى أسلوب التفرقة بين المرؤوسين بقصد إظهار سلطانه وإخفاء عيوبه . فهو يعمد إلى المحاباة والتحيز ، فيقرب هذا ويبعد ذاك ،

ويشغل الجميع بذلك عن تحقيق أهداف العمل ، على حين أن القائد المتمى ينتهج أسلوباً آخر فهو حريص على أن يؤلف بين الأفراد فى وحدة متجانسة ، وأن يحثهم على تضافر القوى والجهود فى سبيل رفع شأن الجماعة ومن هنا جاء تعريف القيادة بأنها القدرة على التأثير فى الناس لجعلهم فريقاً واحداً يتعاون فى سبيل هدف ينشده ، ولا تتسنى هذه القدرة بغير الانتماء . فالانتماء هو الذى يدفع إلى الولاء ، والولاء يدفع إلى الإخلاص والتضحية .

وإذا أمعنا النظر فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام على ضوء مفهوم الانتماء إلى الجماعة كما أوضحناه ، أدركنا مدى اكتمال هذا العنصر القيادى فى القائد الأعظم للأمة الإسلامية ، بحكم المنبت والتنشئة الاجتماعية إذ كان عليه السلام أكثر العرب تمثيلا لخصائص العربية فى جوانبها المشرقة من كرم وشجاعة وشرف ومروءة ونجدة وحماية للجار وعفو عند المقدرة وما إلى ذلك من خلال كريمة . وكان أقدرهم على فهم مشاعر قومه وأفكارهم ودوافعهم وأهدافهم ، وبالتالى التأثير فيهم وكسب الرأى العام إلى جانب دعوته السامية : وإلى معنى انتماء النبى إلى العرب الذين خاطبهم برسالته تشير الآية الكريمة .

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) .

ذلك أن الشريعة الإسلامية قد نزلت على الأمة العربية، فاختار الله لها نبياً من أبنائها. واجتباه من مكة مدينة البيت الحرام الذى بناه ابراهيم عليه السلام والتى يعتبر أهلها أكثر العرب تمثيلا للمقومات العربية ، فأنزل الله رسالته على نبيه محمد فيها . وشاء سبحانه أن ينتمى رسوله إلى قبيلة قريش أكبر القبائل العربية وإلى بيت عبد المطلب أعرق بيوتها وأطهرها وأتقاها .

ولقد غابت حكمة انتماء الرسول إلى قومه عن نفر من العرب طمس الله على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم ، فهم لا يفقهون ، فاستنكروا أن ينزل الله رسالته على بشر مثلهم ، لا يختلف عنهم فى شئون الخلق والحياة ، وما أبلغ الصورة التى تعبر عن هذا الموقف فى قوله تعالى :

﴿ وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا . أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾

ومن قبل هؤلاء الضالين كان أسلاف لهم فى العصور القديمة ،

أنكروا على أنبيائهم ما أنكره هؤلاء ، غير مدركين أن انتماء الرجل صاحب ـ الرسالة إلى الجماعة التى يتوجه إليها برسالته تلك سر من أسرار نجاحه ، وأن هذه الخصيصة من أهم خصائص القيادة ومقومات القائد . يقول الله تعالى :

﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ .

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ .

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

وهكذا نبعت الرسالة والرسول من صميم الأمة العربية التى أنزلت عليها شريعة الحق ، فكان انتماء النبى إلى الجماعة التى بعثه الله لقيادتها وبعثها من الضلال إلى الهدى من أسباب نجاح الرسالة العظمى التى اؤتمن عليها صلى الله عليه وسلم . إذ أتاح له هذا الانتماء أن يتحدث .

بلغة هذه الجماعة ويتفهم شعورها باعتباره واحداً منها اصطفاه الله من بين أفرادها ، وأن يدرك نوازعها الوجدانية واتجاهاتها العقلية فى مختلف مناحى الحياة والمجتمع ، الأمر الذى يشكل عاملا أساسياً فى تيسير الدعوة إلى الرسالة والاقتناع بها . قال تعالى :

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ .

﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ .

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ .

﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجميين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ .

تلك هى الأصول العامة فى خاصية انتماء القائد إلى الجماعة وتحققها فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وسوف نعرض فيما يلى تحليلا لعناصر هذه الخاصية والعوامل التى ساعدت على اكتمالها فى حياة القائد الأعظم

فقد نبع الرسول من صميم العرب — موطناً وقبيلة وبيتاً — كما تقدم . وفى ذلك يقول عليه الصلاة والسلام « أنا أعربكم ، وأنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » ويقول « أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » ويقول : « إن الله اصطفى من قريش بنى هاشم ،

واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار ».

ولما كانت القدرة على فهم مشاعر الجماعة وأفكارها – نتيجة لانتماء القائد إليها – تتدعم وتتعمق إذا كان القائد قد مارس فى حياته الحرفة الرئيسية للجماعة واختلط بالسواد الأعظم منها ، كى يتاح له من التجارب والخبرات مايعينه على أن يسبر أغوار القطاعات المختلفة فى مجتمعه ، ويدرك مغزى سلوكها وتفكيرها وأسرار اتجاهاتها وتطلعاتها ، فيستطيع قيادتها ، ويسلس له تدبير أمورها لما كان الأمر كذلك ، فقد أراد الله لرسوله الكريم أن يكتسب هذه التجارب والخبرات ليؤهله للاضطلاع برسالته . إذ اشتغل النبى فى صباه وشبابه برعى الأغنام والتجارة وهما المهنتان السائدتان فى الجزيرة العربية فى ذلك الحين . واقتضاه ذلك الأمر الانتقال من مكان إلى آخر ، والاتصال بنماذج مختلفة من الناس فى أثناء رحلاته وأسفاره . وفى ذلك يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد فى كتابه عبقرية محمد :

« خبير بكل ما يختبره العرب من ضروب العيش فى البادية والحاضرة تربى فى الصحراء وألف المدينة ، ورعى القطعان واشتغل بالتجارة . .

وكما شارك الرسول الطبقة العاملة الكادحة والطبقة المتوسطة في مجتمع قريش في وسائل كسب العيش ، فلقد شارك كذلك علية القوم ، وذوى الرأى منهم فيما كانوا يشتغلون به من شئون الحكم ، وتدبير أمور المجتمع في السلم والحرب معاً ، فشهد الحروب كما شهد الأحلاف . ومن الثابت في هذا المقام أن النبي عليه الصلاة والسلام قد حضر في شبابه حلف الفضول الذى عقده بنو هاشم وزهرة وتيم وتعاهدوا فيه باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ، وقال الرسول في هذا الحلف « ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم »

ومن ثم نشأ الرسول في قلب البيئة العربية وخالط جميع أوساطها ، وكان قريباً من سراتها ، غير بعيد من فقرائها . فلما نزل عليه الوحى وأمر بالدعوة ، صدع بها في مجتمع ولد وعاش في كنفه مخالطا أهل سائر القبائل والبيوت ، عالماً بظروف هذا — المجتمع ، ملماً بمعتقداته وتقاليده ، خبيراً بوسائل عمله ، متقناً لغته ، واعياً أسرار تصرفاته ، وقد أتاحت هذه النشأة وتلك التجارب ، لمحمد رسول الله أن يجد — بوحى من الله — أفضل السبل لهداية العرب إلى الدين الحق . فكان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويدعو الرجل منهم إلى الإسلام

بالأسلوب الذى يتفق مع مستواه. فهو عليه الصلاة والسلام - بحكم معرفته بطبائع كل جماعة - يستطيع أن يختار الخطة الفكرية المناسبة لإقناعها، وهو - بحكم تعمقه فى فهم النفس البشرية - يستطيع أن ينفذ إلى عقل العربى وقلبه ، ويفتح عينه على نور العقيدة الصحيحة . إن النبى الكريم يدرك مدى اعتزاز العربى بكرامته وأنفته من التعالى عليه ، وتمسكه الشديد بالعزة والكبرياء . ومن ثم فإن انتهاج أسلوب اللين فى غير ضعف ، والبعد عن كل ما ينفر المخاطب ، هو الطريق القويم للدعوة . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ .

والعربى ابن البادية ، ومنها أخذ جوهر طباعه وأسلوبه فى الحياة والعمل ، يميل بطبعه إلى البساطة ، وينفر من التعقيد . وهو يؤثر الوضوح والصراحة فى العلاقات الاجتماعية ، ويستنكر الغموض المجافى للفطرة السليمة . ولقد بعث الرسول لهداية الناس إلى عقيدة تتفق مع الفطرة . وكان سبيله فى حث الناس على الدخول فى دين الله متسقاً مع تلك الغاية، فهو السبيل الواضح المستقيم لاعوج فيه ولا انحراف.

وهكذا كان محمد عليه السلام – حينما نزل عليه الوحى مهيئاً للدعوة ، معداً وقادراً على النهوض بمسئولياتها . ولقد اقتضته سمة الرسالة وبعد مراميها أن يعمل – بوحى من الله – على دعم هذا العنصر القيادى – وهو الانتماء إلى الجماعة – وتوسيع آفاقه ، حتى يخرج لفظ (الجماعة) من معناه الضيق الذى ينصرف إلى أقرباء الرسول ممن تربطهم به صلة الدم ، إلى معنى أوسع وهو قبيلة قريش بأجمعها ، ثم إلى معنى أعم وهو المجتمع العربى فى سائر جوانب الجزيرة العربية ثم ينطلق بعد ذلك إلى العام الشامل وهو مجتمع العالم القائم حينئذ بأسره ، ثم يستقر أخيرا إلى معنى المجتمع البشرى فى كل عصر وكل أوان .

ولكى يرتفع عنصر الإنتماء إلى مستوى قبيلة قريش بأجمعها – فلا يقتصر على بيت منها هو بيت عبد المطلب الذى نبع فيه الرسول – سعى عليه السلام إلى توثيق صلاته بسائر بيوت قريش ، وعزز هذه الصلات باختيار بعض زوجاته منها ، حتى تقوم رابطة المصاهرة مقام رابطة الدم والقربى ، وكلتاهما وشيجة قوية من وشائج انتماء القائد إلى الجماعة . فكانت الرغبة فى خلق هذه الآصرة الإجتماعية هى إحدى أسباب تعدد أزواج النبى . لقد كان فى حاجة إلى أنصار يؤمنون

بالدعوة من البيوت والقبائل والعشائر جميعها ، وليس ثمة وسيلة لتحقيق هذا المطلب أصلح من تعزيز روابط الإنتماء بالجميع ، وليس أقوى ولا أبقى من روابط الدم والنسب والمصاهرة فى مجتمع قبلى يعتز بالأنساب ويقوى بالأصهار ، فكيف إذا كان النسيب أطهر القوم وأجلهم مكانة .

ولقد أشار إلى هذا المعنى المرحوم عباس العقاد دون أن ينص صراحة على اتصاله بتقوم الإنتماء إلى الجماعة بين مقومات القائد ، وذلك فى كتابه : « عبقرية محمد » إذ يقول :

« أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن - رضى الله عنهن - إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون مايهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة » .

من الواضح أن الرغبة فى تعزيز الإنتماء إلى سائر بيوت قريش تدخل فى باب المصلحة العامة ، والدليل على ذلك قول العقاد - رحمه الله - فى السياق ذاته :

« ورملة بنت أبى سفيان تركت أباها لتسلم ، وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبشة ، ثم تنصر زوجها وفارقها وهى غريبة هناك بغير عائل ، فأرسل النبى إلى النجاشى فى طلبها لينقذها من ضياع

الغربة وضياع الأهل وضياع القرين ، فكانت النجدة الإنسانية باعث هذا الزواج ، ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء ، وكان للنبي مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذي لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة إلى التفكير فيه ، وهو أن يصل بينه وبين أبي سفيان بآصرة النسب ، عسى أن يهديه ذلك إلى الدين ، بما يعطف من قلبه ويرضى من كبريائه » .

ومثلما عزز الرسول انتماءه . إلى جماعة قريش بالزواج من بعض نسائها ، عزز هذه الرابطة أيضاً بتزويج بناته من صاحبين جليلين هما على بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، لأن توثيق الصلة بهما هو في نفس الوقت تنمية للعلاقات الحميدة مع البيوت العربية الأصيلة ، وتدعيم للانتماء إلى الجماعة .

ولقد أكد المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل أن تقوية انتماء الرسول إلى قومه أو زيادة الأواصر على حد تعبيره كانت من مقاصد زواجه عليه السلام ، بقوله في الفصل الثامن من كتابه « حياة محمد » :

« زاد عناد هذه القبائل محمدا عزلة ، كما زاده إمعان قريش في أذى أصحابه ألماً وهماً وانقضى زمن الحداد على خديجة . ففكر في أن يتزوج ، لعله يجد في زوجه من العزاء ما كانت خديجة تأسو به

جراحه ،على أنه رأى أن يزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الإسلام متانة وقربى ، وخطب إلى أبى بكر ابنته عائشة ، ولما كانت لا تزال طفلة فى السابعة من عمرها عقد عليها ولم يبن بها إلا بعد سنتين حين بلغت التاسعة»

وبقوله عن سعى الرسول عليه السلام لزيادة ارتباط المسلمين به من طريق حسن رعايتهم ، وذلك فى الحديث عن زواج النبى من حفصة بنت عمر :

« وكذلك كان هؤلاء الأعراب فى فزع من محمد وفى قلق على مصيرهم ، بعد تزايد بأس المسلمين إثر الهجرة إلى المدينة . . . وقريش لها سيادة العرب ،وهى لا يمكن أن تنى عن الأخذ بثأرها . وما كان شىء من هذا ليغيب عن محمد وبعد نظره وسلامة سياسته . فلا بد له إذاً من أن يزيد المسلمين به تعلقاً وارتباطاً . ومهما يكن الإسلام قد شد من عزائمهم وجعلهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، فإن حسن رعايتهم تزيد عزائمهم شدة وتضامنهم قوة . ومن حسن رعايتهم أن يزيد محمد رابطته بهم . لهذا تزوج من حفصة بنت عمر بن الخطاب كما تزوج من عائشة من قبل »

ونستبين من هذين النصين أن من أولى مقاصد الرسول من الزواج زيادة الأواصر بينه وبين السابقين فى الإسلام متانة وقربى ، وحسن

رعاية المسلمين حتى يزيدوا به تعلقاً وارتباطاً ، وكلا المقصدين يدور في الحقيقة حول معنى واحد وهو تعزيز القائد انتمائه ، إلى الجماعة .

ويستطرد المؤلف في بيان العلاقة بين زواج الرسول وبين أهداف الدعوة ، وما تنبىء عنه هذه العلاقة في رأينا من مقصد تعزيز الانتماء إلى الجماعة .

« وكما تزوج من حفصة فزاد ابن الخطاب به تعلقاً زوج ابنته فاطمة من ابن عمه على أشد الناس محبة للنبي وإخلاصاً له منذ طفولته . ولما كانت رقية ابنته قد اختارها الله إلى جواره ، فقد زوج عثمان بن عفان بعدها ابنته أم كلثوم . كذلك جمع حوله برابطة المصاهرة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ، وجمع بذلك أربعة من أقوى المسلمين الذين كانوا معه بل أقواهم إن شئت . بهذا كفل للمسلمين مزيداً من القوة ، كما كفل لهم بما غنموا في مغازيهم إقداماً على الحرب يجمع فيها الرجل بين الجهاد في سبيل الله والمغنم من المشركين » .

فالانتماء إلى الجماعة إذاً مقوم أساسى من مقومات القائد ، لأن القربى والمصاهرة وما إليها من أسباب التقارب والوحدة تكفل للجماعة مزيداً من القوة ، قوة معنوية لا تقل عن القوة التى يكفلها الانتصار في الحرب وحيازة المغانم . وبغير هذه القوة لن يستطيع القائد

أن يشق طريق النجاح فى مسيرة تضم كل أعضاء الجماعة . ومن ثم فإن الانتماء هو إحدى الدعائم التى تقوم عليها القيادة الحقة .

ومن الأمثلة الدالة على أهمية انتماء القائد إلى الجماعة زواج الرسول من ميمونة أخت أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبى ، وخالة خالد بن الوليد . فقد رأت ما رأت من أمر المسلمين فى عمره القضاء فهوت إلى الإسلام نفسها، فخاطب العباس ابن أخيه فى أمرها وعرض عليه أن يتزوجها ، وكان هو كلا منها بذلك ، وقبل الرسول وكانت ثلاثة الأيام التى نص عليها عهد الحديبيه قد انقضت ، ولكنه عليه السلام أراد أن يتخذ من زواجه ميمونة وسيلة لزياده فى التفاهم بينه وبين قريش ، فلما جاءه سهيل بن عمر وحويطب بن عبد الفرس من قبل قريش يقولون لمحمد : « إنه قد انقضى أجله فاخرج عنا » « قال لهم »ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه .

وتتسع دائره انتماء القائد الأعظم إلى الأمة العربية حتى تشمل يهود خيبر وسائر اليهود ، بوصفهم من أهل شبه الجزيره الذين بعث الرسول لهدايتهم إلى الدين الحق مهما أبدوا من عداوه فيتزوج الرسول من إحدى نسائهم وهى صفية ابنة حيى بن أخطب النضيرية ،

وكانت إحدى السبايا اللاتى أخذ المسلمون من حصون خيبر ، وقد قيل للنبى فى شأنها : « صفية سيدة بنى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك » فأعتقها وتزوجها . ويعلق على ذلك الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل -- رحمه الله — بقوله « إن هذا الزواج من تقاليد العظماء الفاتحين الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التى يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم » ونحن نضيف إلى هذا الغرض غرضاً آخر لايقل عنه وضوحاً، وهو توثيق الصلات وتدعيم الانتماء ، توحيداً للصف وتحقيقاً للهدف ، غير أن اليهود خانوا عهدهم مع الرسول ، وخرجوا بذلك على الأمة فكانوا من أعدائها .

ويطرد اتساع دائرة الانتماء حتى تتجاوز الجزيرة العربية إلى ما حولها من البلاد ، إذ يتزوج النبى من جارية مصرية هى مارية القبطية التى بعثها المقوقس عظيم القبط فى مصر مع هدايا أخرى إلى الرسول ، رداً على الرسالة التى بعثها إليه يدعوه فيها إلى الاسلام . ومن الواضح أن هذا الزواج يمثل عقد مصاهرة بين النبى وبين أهل مصر ، تلك المصاهرة التى تمد إحدى الوسائل الهامة لتحقيق رابطة الانتماء . ولقد أثبت التاريخ ذلك التأييد المعنوى الذى أبداه المصريون المسلمين الفاتحين بقيادة عمرو بن العاص ، والذى كان من عوامل

انتصارهم . ولسنا نعدو الحقيقة إذا قررنا أن شعور أهل مصر بذلك النسب لما عرف عنهم من توقير لرؤسائهم وبالتالى لأصهارهم وكان المقوقس رئيساً على قومه وصهرا للنبى بحكم تزوجه مارية « جارية المقوقس » فضلا عن أنها مصرية من صميم شعبها ، فإن هذا الشعور الناجم عن مصاهرة النبى للمقوقس وللمصريين عامة أن الشعب المصرى الذى عانى طويلا من عبودية الرومان وجد فى المسلمين الذين سبقت إليه أنباء الرسالة الإنسانية التى يحملون مشعلها ــ رسالة الحرية والعدل والرحمة ــ عوناً لهم على التخلص من جور الرومان الدخلاء ، ولم يجدوا فيهم غزاة من الأجانب . لأن العرب والمصريين القدماء ينحدرون من جنس واحد وهم أبناء عمومة على أرجح الأقوال. وقد جدد هذه القربى وبعث مشاعر الانتماء وعمقها فى نفوسهم رابطة المصاهرة بينهم وبين النبى العربى ، فكانوا عوناً على دخول الإسلام وانتشاره فى بلادهم .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن توثيق الإنتماء إلى الجماعة لم يكن المقصد الوحيد من تعدد زوجات الرسول ، وكان المقصد الأساسى فى جميع الأحوال ، إذ كان اختيار الرسول لزوجاته على حسب حاجتهن إلى الإيواء الشريف وعلى حسب المصلحة الكبرى

التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه على السواء . بيد أننا إذا تعمقنا دراسة الحالات التى كانت الرحمة والمروءة والنخوة هى الدوافع الأساسية لها ، وجدنا أن توثيق الانتماء يقف كعامل غير مباشر خلف هذه الحالات ، وبخاصة إذا لاحظنا أن هذه الدوافع تحقق انتماءاً روحياً عميقاً بأعضاء الجماعة سواء الأقربين منهم إلى الأصهار أو البعيدين منهم ، لأن الحاجة إلى التآليف أو الرعاية وتبادل العطف والمودة هى حاجة إنسانية أساسية ، لاتقتصر على القريب دون البعيد ، بل هى مشاع بين الأسرة الإنسانية جميعها ، ولاشك أن التآلف والرعاية هى القاعدة التى تقوم عليها رابطة الإنتماء إلى الجماعة .

وتتزايد حلقات الدائرة ـ دائرة الإنتماء ـ حتى تضم الصعيد الإنسانى كله لتجمع بين القاصى والدانى والأبيض والأسود والغنى والفقير على قاعدة الإخاء والمساواة . وإن لم تتوافر وشائج انتماء القائد الأعظم المبعوث من عند الله إلى الناس كافة عن طريق الدم والمصاهرة لاستحالة هذا الأمر ، فليكن مد اليد إليهم حيثما يوجدون بالسلام ، ومناشدة التعاون فى سبيل نصرة المظلوم وإرساء القيم الفاضلة والمبادىء القويمة ، بديلا من هذه الوشائج ، بديلا معنوياً لايقل عنها قوة وأصالة ،

بديلا لاغنى عنه ولا يقوم مقامه مثيل فى سبيل إنجاز أهداف الرسالة الإسلامية وهى رسالة عالمية بطبيعتها وأهدافها .

ذلك هو التفسير المنطقى للحكمة التى كان يستهدفها النبى من وصاياه إلى جنده وولاته على الأقاليم والأمصار التى فتحوها ، وصايا بحسن المعاملة والتمسك بالمثل العليا فيما يصدر عنهم نحو أبناء هذه البلاد من أقوال وأفعال . وكان يضرب لهم المثل على ذلك بسلوكه مع الناس ، فهو الكريم السمح العافى عند المقدرة ، مما زاد المسلمين به تعلقاً ، وجعلهم يرون فيه نبى الله ورسوله الحق ، ويرون فيه إلى جانب ذلك أباً لهم جميعاً . وليس أقوى ولا أوثق من هذه الأبوة الروحية فى التمكين لرابطة انتماء القائد إلى الجماعة . فليكن للحكام المسلمين فى رسول الله أسوة حسنة . وليذكروا نصائحه وتعاليمه وهم يتعاملون مع أهل البلاد المفتوحة حتى تضيق مسافة الخلف بينهم وتقوم مقامها وشائج الانتماء بالمشاعر الودية والتجاوب الصادق والعمل المشترك فى سبيل تحقيق أهداف سليمة يلتقى عليها الجميع حكاماً ومحكومين .

ولقد أثمرت هذه التعاليم الرشيدة فى نفوس المسلمين وأدرك أولو الأمر من صحابة الرسول ما تنطوى عليه من حكمة سلمية ، فسموا

إلى توثيق رابطة الانتماء بينهم وبين سائر المسلمين فى الجزيرة العربية من أقصاها ، ثم سعى من شغل منهم وظائف القيادة والحكم إلى خلق هذه الرابطة بينهم وبين الشعوب المجاورة التى تحقق لهم النصر على حكامها المستبدين المستغلين ، فدانت لهم تلك الشعوب بالولاء والطاعة واستجابوا لمبادىء دعوتهم ، وعملوا معهم جنبا إلى جنب لإرساء قواعدها وتدعيم بنيانها .

ولقد اقتدى القادة والحكام المسلمون بنبيهم فى خلق أواصر الانتماء بالجماعات التى تختلف فيما بينهم سلالة ولغة وعادات وتقاليد ونظما اجتماعية وسياسية ، وتتفق فى انضوائها جميعا تحت راية الدين الجديد . فكانت وسيلتهم لتحقيق هذا المقصد هى نفس الوسيلة التى اتبعها الرسول ونعنى بها المصاهرة والمعاملة الحسنة بوصفها أداة لخلق الانتماء الروحى إذا لم تتيسر السبل إلى المصاهرة ، وأداة لتعزيز الانتماء عن طريق النسب إذا توافرات هذه الرابطة .

ومن ثم فقد اختلط المسلمون بأبناء البلاد التى دخلوها اختلاطا يقوم على المودة والتكافل والرحمة والعدالة ، وتبادل المنافع المشتركة ، والتعاون فى سبيل المصلحة العامة . وأدى ذلك كله إلى عقد أواصر المصاهرة بين كثير من الجنود المسلمين وأهل تلك البلاد ، مما أنشأ

ووثق روابط الانتماء بين الجانبين ، وأزال من نفوس المحكومين عقدة كراهية الحاكم ومقاومته بشتى وسائل المقاومة . ذلك لأن العرب الفاتحين أصبحوا إخوة لهم بالمصاهرة والمعاملة الكريمة . وكان من نتائج هذا كله أن تحققت الوحدة القومية فى العالم الإسلامى . فأصبح العرب وأهل الأقاليم التى دخلوها يكونون أمة عربية واحدة ، تظلها راية العقيدة الإسلامية ، وتقويها وشائج الانتماء بمختلف صورها ، واندثرت القيم القديمة والعقائد البالية ، وحلت مكانها قيم المجتمع الإسلامى الجديد بل لقد اندثرت لغات كثيرة فى هذه البلاد ، وحلت محلها اللغة العربية وهى لغة القرآن ، وأصبح لا فرق بين عربى ولا عجمى إلا بالتقوى .

ونخلص مما تقدم إلى أن الانتماء إلى الجماعة من أهم مقومات القيادة فى نبى الإسلام وصحابته ، إذ كان عاملا أساسيا فى تحقيق أهداف العقيدة الإسلامية . فلقد شعرت القاعدة ـ المحكومة أن القوا منبثقة منها وليست مفروضة عليها ، فتجاوبت معها نفسيا واجتماعيا وارتفعت معنوياتها ، فتسابقت إلى التعاون مع القادة والبذل والتضحية فى سبيل التمكين للعقيدة ، ورفع ألوية الحضارة الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وارتياد آفاق جديدة لم يسبق إليها أحد فى تاريخ البشرية .

ومن هذا البحث التحليلى لخاصية الانتماء إلى الجماعة فى شخصية النبى صلى الله عليه وسلم ، نستطيع أن ندرك أن هذا الانتماء كان أحد الدوافع التى حدت بالمسلمين إلى التجاوب معه ومحبته والتضحية بالنفس والمال والجهد فى سبيل نشر دعوته قبل الهجرة وبعدها وقد لمسنا فى الفصلين السابقين الخاصين بالتخطيط والتنظيم للهجرة مدى عمق هذا التجاوب وهذه المحبة ، وروعة هذه التضحية ، فى نفوس القلة المؤمنة التى عهد رسول الله بمشاركته فى الرحلة الخالدة إلى أبى بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن أبى ، وأسماء وعائشة وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر . لقد جمع على حبه الصغار والكبار ، النساء والرجال ، الأحرار والموالى ، إذ كانوا يشعرون أنه منهم وأنهم منه ، نخاطروا بأرواحهم وهى أغلى ما يملك المرء فى سبيل معاونته على أداء رسالته ، لم يتردد منهم أحد فى هذه المخاطرة أو ينكل فى إحدى اللحظات عن استكمال مسيرتها .

والدليل على أن انتماء قائد الأمة الإسلامية إلى قومه كان من أسباب تآلفهم معه ، أنهم كانوا — فيما عدا القلة السادرة فى شركها وعدوانها — يوقرونه ويقدرونه ويطلقون عليه أنبل الصفات فى عهد جاهليتهم ، واستمروا على هذا التوقير والتقدير بعد الإسلام

برغم عدم دخولهم جميعاً فى دين الله ، إذ كانوا يرون فيه الرجل العربى الأصيل الذى تتوافر فيه أكمل السجايا العربية . فإذا كان الإيمان هو أكبر دوافع المسلمين إلى محبة محمد عليه الصلاة والسلام ، فإن انتماءه إلى الجماعة كان فى رأينا — أكبر دوافع غير المسلمين إلى تبجيله . وإلا فكيف نفسر إقدام عبد الله بن أريقط الديلى — وهو من كفار قريش — على القيام بمهمة الدليل لمحمد وصاحبه فى الطريق من مكة إلى المدينة برغم إدراكه لما قد يجره عليه ذلك من ويلات عصبة الشرك إذا افتضح أمره . إن تجاوب عبد الله بن أريقط مع النبى وصاحبه وتقديره لهما مردهما — فى رأينا — إلى أصالة الانتماء القومى فى شخصية رسول الله وشخصية الصديق بالاضافة إلى مناقبهما الخلقية. ولا يمكن النظر إلى المصلحة الشخصية أو المادية وحدها كدافع سياسى لقيام الرجل بمهمته المحفوفة بالخطر . فإنه برغم احترافه العمل دليلا ، لم يكن مأجوراً بقدر ما كان متعاوناً ، صادراً فى ذلك عن مشاركته الوجدانية لرسول الله وصفته وإن لم يشاركهما دينهما .

وسوف نبين فى المباحث التالية من هذا الفصل صدق هذه النظرية ، وهى أثر انتماء النبى إلى قومه العرب فى قدرته على قيادتهم إدارياً وسياسياً واجتماعياً ، وبالتالى إنشاء أول مجتمع منظم ودولة

كاملة الأركان فى الاسلام ، وذلك بالاضافة إلى العوامل القيادية الأخرى التى سنتناولها فى مواضعها . ونود أن نشير - فى مجال المقاونة بين مدى تأثير هذه العوامل فى تحقيق الهدف المشار إليه - أن عامل الانتماء يبرز بصورة واضحة بالنسبة لغير المسلمين من أهل المدينة ، فلولا توافره فى شخصيته عليه الصلاة والسلام لما استمع إليه واستجاب من لم يكن قد أسلم بعد من الأوس والخزرج ، إذا كانوا يشعرون بوحدة قومية تجمعهم به ، وبأنه يمثلهم ، ويحمل خصائصهم الوضيئة ، فدانوا له بالولاء وأيقنوا أن ما يدعو إليه حق . بل إن اليهود رغم ما عرف عنهم من سوء طوية وتعصب ونظرة إقليمية ضيقة جعلتهم يعتزلون مجتمعاتهم وينطوون على أنفسهم ، كان منهم من يأنس إلى النبى مما يرجع إلى قوة انتمائه إلى قومه ، وتأثير ذلك عليهم .

ومن ثم فإنه يمكن القول بأن توافر خاصية الانتماء إلى الجماعة فى شخصية القائد الأعظم للأمة الاسلامية ، كان عنصراً جوهرياً فى بناء شخصيته . وبفضلها استطاع — كما شاء الله تعالى — أن يكسب الرأى العام فى المدينة ويقوده ، وأن تنجح مهمته رغم ما عاناه من أعباء ومسئوليات وما صادفه من عقبات .

قوة الإيمان أو الحافز الصادق

من المسلم به أن الايمان بالمبدأ هو الحافز الحقيقى للعمل على انجاز أعظم الأعمال . ومن ثم كان أبرز المناقب التى يتصف بها أصحاب المبادىء والقيم الفاضلة ، لأنه بقدر قوة هذا الايمان وثباته يكون تأثر الناس بصاحب الدعوة الجديدة ودخولهم فيها طواعية واختياراً لاجبراً وإذعاناً . ذلك أنه قد استقر فى الضمير الانسانى منذ عرف الانسان الحضارة أن الحق أقوى من الباطل ، وأن الصراع الأزلى بينهما يسفر دائماً عن انتصار الحق مهما طال المدى وشقت الطريق .

فالفيصل بين الحق والباطل هو الإصرار والبلاء والتضحية ، وهى كلها صفات تنعدم فى صاحب الدعوة الباطلة لأنه طالب منفعة شخصية سرعان ما يتخلى عنها اذا أدرك أن إصراره عليها سيصيبه بالضرر ويورده موارد التهلكة . أما دعاة الحق والمصلحون فهم أصحاب رسالة كبرى وغايات أسمى من المطالب المادية الزائلة والمنافع الذاتية الرخيصة . إنهم يحملون تبعات جساما فى سبيل تغيير المجتمع الذى ينتمون إليه ، وهم فى تحملهم لمسئولياتهم تلك تصغر فى أعينهم

متع العيش ومغرياته ، وتتضاءل مغانمه ومسراته ، على حين تعظم فى عيونهم وأفئدتهم حقيقة الإيمان بالمثل العليا ، وشد عزائمهم إرادة الإصلاح والبناء ويستتبع ضآلة أطايب الحياة ومناعمها لديهم هوان الآلام التى يتكبدونها والتضحيات التى يبذلونها فى سبيل استبدال الذى هو خير بالذى هو أدنى . فتراهم ينكرون ذواتهم ، ويتفانون فى أعمالهم الجيدة ، يحثهم الإيمان الصادق العميق ، ويحفزهم الهدف البعيد إلى مزيد من الجهاد . فلا سبيل لقوة عليهم مهما علت إلا قوة الحق ، ولا مرد لهم عن مواصلة الطريق إلا أن يشاء الله . فالإرادة القوية والصلابة هى سمات الايمان الحق ، ومن ثم سلاح النصر .

ولكم سجل تاريخ البشرية أعظم الصفحات وأخلدها فى سير القادة والأبطال ، كيف حملوا المشعل وتقدموا الصفوف حين لم تكن تومض شعاعة من أمل أو تبدو بارقة من يقين ، كيف واجهوا المشكلات المعقدة واستهانوا بما يصيبهم من بأساء فى سبيل الخروج من هذه الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض ، وكيف حققوا انتصارهم فى أشق الظروف وتحت أشد الضغوط المادية والمعنوية ، وما وهنوا أو استكانوا ، وإنما زادهم إيمانهم صلابة

وجلداً ، وارتفعوا إلى مستوى المسئوليات التي قبلوا احتمالها في رضى عميق ويقين لا يتزعزع ، مثلهم في ذلك كالجوهر الأصيل لا يغيره اللهب بل يزيده صقلا ولمعاناً .

وحين نطالع الصفحات الوضيئة التي سجلها التاريخ للرواد والعظماء الخالدين تبهرنا سيرة الرسول الأعظم بما حوت من مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال ، وتجلى لنا من خلال هذه الأخلاق والأعمال قوة الإيمان التي وهبها محمد في أكمل صورها ومعانيها . لقد بعث عليه السلام بأعظم رسالة للبشرية ، فأفاض الله عليه إيمانا يتكافأ مع عظمة هذه الرسالة وسموها . وسرى هذا الإيمان القوي من نفسه إلى نفوس أصحابه ، فملأها ثباتا وعزما وإصرارا على المقاومة حتى النصر ، ورغبة في التضحية والفداء .

وبفضل هذه القوة الروحية استطاع المسلمون بقيادة النبي ثم أبي بكر وسائر الخلفاء الراشدين من بعده أن يقهروا أقوى دولتين في معاديتين في ذلك الحين ، وهما دولتا الفرس والروم ، برغم رجحانهما في ميزان القوة العسكرية ، إذ كانت جيوشهما أضعاف جيش المسلمين كما كانت أكثر تقدما في الأدوات والمعدات الحربية . وقد انهارت بانهيار هاتين الدولتين كل معالم العبودية واستغلال الإنسان للإنسان

وسقطت سلطة الطغاة والمستبدين لترتفع أعلام الاسلام رفرافة بالحق والخير والعدالة والتعاون بين الناس جميعا .

ولاشك أن العامل الأساسى الذى أدى الى تلك الانتصارات هو التحول العظيم الذى قاده المسلمون منذ استقروا فى دار الهجرة للقضاء على الظلم والتفرقة واستنزاف دماء المستضعفين فى الأرض ، ولبناء مجتمع متماسك يقوم على التوحيد والتقوى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ولم يكن هذا التحول ليتم بهذه السرعة الفريدة فى تاريخ البشرية بغير ركيزة روحية صلبة لاتعادلها قوة الأسلحة المادية مهما تزايد عددها وتفوق نوعها .

تلك الركيزة التى نعنيها هى الإيمان القوى بالقيم التى أرساها الإسلام ، وهى الحافز الثورى كما نعبر عن ذلك فى المصطلح الحديث ، وهى السلاح القوى الذى يضمن النصر لمن يحوزه مهما قل عدده أو عتاده ، سلاح يفل سلاح التفوق العددى والتفوق فى الأمكانيات والموارد ، سلاح روحى لا تعادله قوة الاسلحة المادية مهما بلغت كفاءتها وكفايتها .

لقد جاء الإسلام ليحرر الإنسان من البغى والطغيان ولقد كانت

وسيلته لتحقيق هذا الهدف هى الإنسان نفسه . فكانت تعاليمه جميعا ترمى إلى استعادة كرامة الانسان وحريته وحقه فى العيش الآمن الشريف من طريق تبصير فكره ووجدانه — وهما أثمن قوى النفس البشرية — بهذه المعانى وتأصيل تلك المثل فى أعماقه حتى يدفع عن حقه بنفسه ويجاهد فى سبيل وطنه وعقيدته جهادا قد يصل به إلى الاستشهاد . ذلك أن الاستشهاد فى سبيل الله قضية حق وشرف وعدالة أكرم عند المؤمن القوى من الاستسلام وما يعقبه من حياة ذليلة.

لأن المعيار الحقيقى لتقييم الانسان هو القوة الروحية التى تميزه عن غيره من الكائنات ، وعناصر هذه القوة هى الكرامة والقدرة على مواجهة التحديات والصمود فى المحن والانطلاق إلى آفاق جديدة تزيد الانسان عراقة فى إنسانيته .

وطالما أن الموت حق لابد منه ، فإن الحياة فى عزة أكرم عند المؤمن الحق من العيش فى هوان ، بل ان العيش الخانع هو العدم بعينه . ومن هنا أطلق المشرعون اصطلاح الموت المدنى على حالة الفرد الذى يفقد حريات المواطن وحقوقه فى المجتمع فالحياة بغير هذه الحريات والحقوق تفقد جوهرها وتصبح شبيهة بحياة الأنعام والسوائم

وقيمة العمل المنطلق من الايمان الذى يصل الى حد التضحية

هى أغلى القيم الروحية التى يدين بها المؤمن القوى. والتضحية بالنفس لا تعنى انتهاء الحياة ، إنما تعنى اتصالها ، لأن الفرد بعد موته يحيا فيما يخلفه من عمل صالح وبقاء الجماعة التى ينتمى إليها هو امتداد لحياته بل أن المعيار الحسابى يصدق كذلك فى حساب الموت من أجل المبادىء والمثل العليا . فقد أثبتت الاحصاءات والحقائق العلمية أن الذين يموتون فى الثورة أقل بكثير جداً من الذين يموتون موتا بطيئا .

فقيمة الإيمان هى أساس القيم جميعاً ، قيمة الحرية، وقيمة العدل، وقيمة العمل ، وقيمة التضحية ، وغيرها من القيم الرفيعة ، وهى تقوم على انتزاع الأثرة والأنانية من نفس المسلم ، وانتزاع الخوف من الموت ، والحرص على مناعم الحياة ، وما يؤدى إليه ذلك من ذلة ومن جور واستغلال.

والإيمان الصادق هو الذى يحرك الطاقات البشرية الكامنة فيحولها إلى قوة لا تضارعها قوة أخرى ، وهو الذى يربط أفراد الجماعة برباط وثيق ، ويذيب الفردية فى نفوسهم، ويطلق قوى التضامن والإيثار ، ليصبحوا جميعاً كأنهم رجل واحد ؛ فيندفع كل منهم

مستعداً لتقديم أية تضحية فى سبيل تحقيق الهدف المشترك .

وتأسيساً على ذلك ، فقد عمل رسول الله على تعميق الإيمان فى نفوس المسلمين بالمدينة بوصفه السبيل إلى تعبئتهم فى المعركة المرتقبة بينهم وبين المشركين ، وإلى مضاعفة الجهود المبذولة أضعافاً مضاعفة ، وجعل الرجل المؤمن يعدل عشرة رجال بل عشرات من المشركين بفضل سلاح الإيمان . وهذا هو التفسير العلمى لقول الله تعالى :

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ .

وقوله تعالى:

﴿ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين . وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ .

هذا هو سلاح التفوق على قريش : بناء صرح شامخ من الايمان .

القوى ، الايمان بالله ورسوله ، واعتناق المبادىء والقيم التي يبشر بها الاسلام . إن هذه القوة متى توافرت كان لها الفاعلية فى النصر على العدو فى الحرب وفى السلم معا ، أما فى الحرب فهى تقهره وتقضى على مصادر قوته من طريق مجابهته بالقوة ، وأما فى السلم فهى تقهره أيضا من طريق العمل الدائب فى بناء الدولة الاسلامية ، وفى نشر الدين الحق .

وفى ضوء هذه المعانى يتبين أن الاسلام فى عصره الأول ، كان بالمصطلح الحديث ثورة متصلة ، ثورة استمرت جذوتها مشتعلة تنير للبشرية قروناً طوالا ، فما وهنت عزائم المسلمين الأوائل ، بل كان كل منهم قائداً فى جماعته ، يعمل على توعية أفرادها بالأهداف التى توخاها الاسلام والطريق إلى تنفيذ هذه الأهداف ، ولم يكن هذا الطريق سوى الايمان بالرسالة والالتزام بمسئولياتها والتضحية فى سبيل تحقيقها . كان هذا الايمان هو الحافز الذى دفع أفراداً قلائل من قريش بقيادة محمد أن يعملوا بكل ما أوتوا من قدرات بطولية لنشر دعوتهم وتثبيتها فى نفوس الناس جميعاً .

كان هذا الحافز عضواً مشتركا فى كل انتصار أحرزه الاسلام وكل تقدم حققه؛ ذلك أن مرحلة إرساء دعائم الدعوة وبناء الدولة

الاسلامية الأولى فى دار المهجر كانت محاطة بأعتى القوة العدوانية ، ولكن قوة الايمان والتعبئة الدائمة من أجل انتصار العقيدة كانت الدرع الواقى لانتشار الاسلام ، والسلاح التى تكسرت على نصله كل محاولات المشركين والمنافقين فى سبيل زعزعة أركان الدين الحق .

والايمان فى الإسلام - كما يقول الامام محمد عبده - أن يعقل المرء دينه ويعرفه بنفسه حتى يقتنع به . فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته .

إنه إيمان المرء المستنير المستيقن الذى نظر ونظر ثم واصل النظر والتفكير إلى اليقين بالله ، وهو شعور روحى يحس به الإنسان يملأ نفسه . ويفرق القرآن بين الاسلام وبين الايمان بقوله :

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ﴾ . ولقد كان الرسول الكريم هو المثل الأعلى

للانسان الذى يربط بينه وبين الكون إيمان صحيح صادق بالله ، يضحى فى سبيله بكل طيبات الحياة وشواغلها ومغرياتها ، ويحتمل من أجله كل صنوف العذاب وألوان المحن وسوء الاضطهاد ، ويقف فى وجه الظالمين من قريش ملقيا فى أسماعهم بكلمة الحق والايمان عالية لا يخفضها وعد ، قوية لا يضعف منها وعيد ولو كان التهديد بالموت.

وإيمان الرسول هو الذى جعله يعطى عطاء من لا يخشى فاقة ، ويبر اليتيم وابن السبيل ، وكل بائس وكل محروم ، ويسمو إلى ذروة ما دعا إليه كتاب الله من فضائل .

ولقد بهرت المؤرخين الأوروبيين قوة الايمان التى كانت تعمر قلب النبى ، فعقد « توماس كارليل » فى كتابه المشهور عن البطولة فصلا ضافيا عن بطولة محمد صلى الله عليه وسلم . ويعبر الدكتور ماركس دودز فى كتابه محمد وبوذا والمسيح عن قوة إيمان الرسول بقوله.

إنه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء . فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله ، وتمكنت من نفسه نزعة لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة ، وإنه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى اسرائيل لأنه جازف بحياته

في سبيل الحق ، وصبر على الإيذاء يوما بعد يوم عدة سنين ، وقابل النفى والحرمان والضغينة ، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة ، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته ، غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء .. وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان ، إلا أن أحداً آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين ، وما أتيح له ذلك إلا لنبى عزمه أن يحمل الآخرين على الايمان . فإذا سأل سائل : ما الذى دفع بمحمد إلى اقناع غيره حيث رضى الموحدون بعبادة العزلة ؟ فلا مناص لنا أن نسلم انه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه :

ويعلق كاتب الاسلام الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد على شهادة هذا العالم الأوربى بقوله إن الحقيقة التى يراها المنصف مسلما كان أو غير مسلم هى هذه الحقيقة هى أن فتوح محمد فتوح إيمان ، وأن قوة محمد قوة إيمان ، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة ، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل .

لقد جاء الإغراء الذى أشار إليه هـذا العالم وهو داع مهدد فى

سرية ، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد عن مقصده ، ولا حفل به وهو واصل إليه .

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو فى مبدأ عمره فقال له واعداً ملاطفاً بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين . « يا ابن أخى ، إنك منا حيث علمت من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ؛ فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها » فقال عليه السلام : « قل يا أبا الوليد . فقال يا ابن أخى ! إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان الذى يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه » .

فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات من القرآن الكريم ، ثم تركه يعود كما أتى .

وهكذا تعددت صور الاغراء كما تنوعت سبل الإيذاء ، فقد كان

أهل مكة قساة الأكباد غلاظ القلوب . فلم يكد الرسول يؤمر أن يصدع بدعوته وأن ينذر عشيرته الاقربين حتى كانوا أشدأعدائه لجحاً فى الخصومة وإصراراً على الباطل . فهـذا عمه أبو لهب يقود معركة العدوان على الرسول، ويستعدى عليه القوم ويهزأ به، وينتقل الرسول إلى دعوة أهل مكة جميعـــاً إلى الإيمـان ، فيتصدى له أبو لهب وأبو سفيان وأشراف قريش يحقرون من شأنه ويكذبونه ،ويغرون شعراءهم به، ويتحدونه أن ينزل المعجزات .

ولم يكن ليفت فى عضده عليه السلام مايصنع الظالمون ، فـكان يتصدى لهم بالتحذير مما سوف يلقون من عذاب شديد ، وينعى عليهم ضلالهم ، ويدعو شعراء المسلمين إلى الرد على شعرائهم . ولا يسكت عن الطعن على أصنامهم والسخرية بها والتحقير من شأنها، ويمضى مشتداً فى دعوته ، ويزداد لها أنصارا .

وتأتمر قريش به، فيطالبون عمه أبا طالب أن يكفه عنهم أو يخلى بينهم وبينه . وحين يردهم أبو طالب لا يملـكهم اليأس بل يعودون إليه مرة بعد مرة ، فيبعث إلى الرسول فيقص عليه رسالة قريش ثم يقول له : « فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق » . فماذا يقول الرسول والمسلمون مازالوا حوله قلة ضعافاً لا قبل لهم

بحرب قريش ، وعمه أبو طالب كأنما لم يقو على مجابهة قومه ، فليس يملك محمد إذاً إلا قوة الايمان الذى يدعو إليه . وتغمره روح التضحية والفداء فى سبيل الحق . فالآخرة خير له من الأولى . والموت على الإيمان خير من خذلانه أو التردد فيه . ومن ثم ، يلتفت إلى عمه أبى طالب قائلا له : « ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » .

إنها الإرادة السامية القوية لا تؤثر فيها رغبة ولارهبة ، لأنها تصدر من جلال الايمان وعظمة الحق . إنها قوة قدسية لا تغلب .

وتزداد قريش غلواً فى العداء وتمادياً فى البغضاء ، يذكى نيران حقدها خشيتها على انهيار نظامها وضياع نفوذها ومصلحتها ، فلا يتركون سبيلا إلا طرقوه للحيلولة دون انتشار دعوة محمد ، وتنتقم كل قبيلة ممن فيها من المسلمين ، تعذبهم وتفتنهم عن دينهم ، إن كلمة بلال الخالدة وهو يعذب تحت الشمس المحرقة « أحد أحد » ستظل فى تاريخ البطولة هدياً للمؤمنين المكافحين ، ونبراساً ينير لهم الطريق ويقوى فى نفوسهم إرادة الصبر .

ولم يقف إيذاء قريش عند حد ، فقد تطاولوا حتى وجهوا

من المساءات ألواناً إلى محمد . فما زاد محمد والذين آمنوا بدعوته إلا استمساكا بدينهم وتضحية فى سبيل إيمانهم . بل حاول رجل قتله عند الكعبة ، وكان منزله يرجم ، وكان أهله وأتباعه يهددون فلا يزدادون إلا قوة وصلابة ، ولا يزيد الرسول ذلك إلا إيماناً فى الدعوة . فقد هان عليه الصبر على البلاء واحتمال المهانات فى سبيل إنقاذ الكرامة الإنسانية ، واحتمل الأذى والعدوان كى يفتح طريقاً للمحبة والخير والسلام ، وعانى الهجو واللغو فى القول كى يحرر البشرية من المذلة والانقسام .

ويرى محمد أن قريشاً قد أكلها الحقد ، وأنها تحسب حربها له معركة حياة أو موت ولن تسكت عن التدبير للتخلص منه وصد الناس عن سبيل الله . ومحمد صاحب رسالة ، فهو يريد لها الانتشار ، فليهاجر بعض المسلمين إلى الحبشة ، وليكن بعد ذلك الحدث الأكبر فى الاسلام حين يهاجر النبى إلى المدينة ، وتكون هجرته نقطة تحول فى دعوته ومركز انطلاق لعقيدته إلى العالم كله .

وتنطوى الهجرة على أعظم صفحة سجلها التاريخ فى التضحية دفاعا عن المبدأ . تضحية بالوطن والأهل بعد نضال طويل مرير لا يتصوره عقل . فقد هاجر النبى على غير ما يحب منجاة برسالته وبحثاً لها

عن أرض صالحة جديدة ، فكأنما لم يكف قريشاً كل ما صبته من ويلات على محمد وأتباعه فأرادت أن تجرعه مرارة النفي عن الديار . لقد جربت سلاح الاغراء ، وسلاح التهديد ، بل حاصرت المسلمين مشهرة في وجوههم سلاح التجويع . وجربت سلاح الدعاية السوداء ولم يشف كل ذلك صدرها ، فقد كانت — لا — ترضى دون القضاء على الدعوة بديلا .

وكان السلاح المضاد الذى استعان به الرسول فى مواجهة تلك المحن هو سلاح العزيمة الماضى ، سلاح الايمان القوى ، فلا خوف ولا ضعف ولا تردد ، بل إقدام وإصرار على الدعوة . إنه يدعو الناس بالحسنى إلى الدخول فى دين الله وهو يعلن رسالته فى أسواق مكة حيث الجموع الغفيرة لا يخشى أحداً ، بل هو يعلنها فى الكعبة التى اتخذها أهل مكة معقلا خالصاً لهم، فلا يرده ذلك عن الجهر بالحق ويسر قدماً فى دعوته حتى يأذن الله بالهجرة إلى يثرب .

ولا تنتهى مخاوف قريش بهجرة محمد بل تزيدها قلقاً وذعراً . فهاهوذا قد أصبح طليقاً فى المدينة معتزاً بأهلها بعيداً عن مكة . وهاهى السبل ممهدة أمامه لمواصلة رسالته . فتدخل قريش معه فى أكثر من

حرب ، ولا يهدأ الرسول من إحدى هذه الحروب حتى يضطر إلى خوض أخرى كفالة لحرية العقيدة وذوداً عن الاسلام والمسلمين .

ويضرب المهاجرون والأنصار فى المدينة بقيادة الرسول أعظم المثل فى الكفاح والجهاد فى سبيل الله ، ويسجلون أعمالا معجزة صادرة عن قوة إيمانهم . ويشقون طريقهم صامدين صاعدين منتصرين على هجمات المشركين ومؤمرات يهود المدينة ، فيزيدون عدداً ويزيد إيمانهم قوة على قوة .

ويصور المرحوم الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد قوة إيمان الرسول والمسلمين ، محللا تلك القوة المعنوية التى تقهر جميع القوى المادية ، بقوله :

« وسرت من نفسه القوية ، أمدها الله من لدنه بما سما بها فوق كل قوة ، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته قوة ضاعفت عزمهم وجعلت كل رجل منهم يعدل رجلين بل يعدل عشرة رجال ، ويسير عليك أن تقدر هذا إذا ذكرت ما للازدياد القوه المعنوية من أثر فى النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوه المعنوية فيها . فدافع الوطنية يزيدها : وهذا الجندى الذى يقف مدافعاً عن وطنه المهدد بالخطر يمتلىء النفس بالعاطفة الوطنية تتضاعف قوته المعنوية بمقدار حبه

لوطنه وإيمانه به . ولهذا تغرس الأمم فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حب الوطن والاستهانة بالتضحية فى سبيله.

والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعانى الإنسانية السامية يزيد القوة المعنوية فى النفس بما يضاعف القوة المادية منها . وما الوطنية وماقضية السلام التى قامت بعض الحروب الحديثة فى سبيلها إلى جانب الوقوف فى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه ، والذين يصدون عن سبيله ، والذين ينزلون بالإنسان إلى درك الوثنية والاشراك . إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار مافى الوطن من قوة ، ويزيدها حب السلام للانسانية كلها قوة بمقدار مافى الانسان من قوة، فما أكثر مايزيدها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوة. إنه ليجعلها قديرة أن تسير البلاد ، وتحرك العوالم ، وتهيمن بسلطانها المعنوى على كل من كان أقل منها فى هذا الأمر إيمانا . وهذا السلطان المعنوى يزيد فى قوتها المادية أضعافاً مضاعفة » .

ذلك هو الحافز النفسى الذى كان العامل الأول فى بناء مجتمع دار الهجرة بقيادة رسول الله و لرجال الذين آمنوا به وضحوا وهاجروا معه ، إنه الإيمان القوى برسالة الحق ، وهو أمضى سلاح فى قهر الباطل ، وأكبر مقومات القيادة الرشيدة . وكان هذا الإيمان يصل

إلى الذروة فى التعبير والافصاح عنـه باللغـة المناسـبة وهى البذل والتضحية كلما تعرضت دار الاسلام ، دار الهجرة لخطر أو تهددها عدوان . . . إيمان بالله خالق الـكون ، وحب لرسول الله قائد المسلمين ، وحب للوطن والمواطنين . ودفاع عن شريعة الحق .. وفداء فى سبيل الوطن . وذود عن النفس .

وهـكذا استنفرت المخاطر التى هددت مجتمع المدينة بعد الهجرة روح الـكفاح فى نفوس المسلمين فزاد التفافهم حول نبيهم ، وتفانيهم فى الذياد عن حياضهم . وظلت قوة الايمان على أشدها فى قلب كل مهاجر أو نصير لأن الخطر ظل متربصا بالليل والنهار ، ولعل هذا الاحساس المشترك بالخطر كان له أكبر الأثر فى انتصار القومية العربية التى كانت نشأتها إحدى نتائج دخول العرب فى الاسلام على أرجح الآراء وأصحها ، انتصار هذه القومية على أعدائها الـكثيرين . فلقد استمر هذا الاحساس وتعمق فى نفوس المسلمين مما يرجع إلى استمراره زمناً طويلا ، بدأ منذ عهد رسول الله بالمدينة ، واستمر طوال عهد خلفائه الراشدين .

بل إننا لنذهب إلى حد القول بأن الوحدة العربية التى تحققت

فى بعض المراحل والتى تبدو تباشيرها الآن فى لهب الصراع بين الأمة العربية الاسلامية وأعدائها إنما ترجع فى جذورها إلى أيام الكفاح المجيدة فى دار الهجرة . إذ زاد إيمان المسلمين بدينهم فزاد بالتالى ولاؤهم للوطن الذى احتضن هذا الدين باحتضانه محمداً عليه السلام وشعروا بالتضامن الأخوى كما سنبين فى المبحث التالى ، وفاق هذا الشعور بالتضامن والإخاء المشاعر الأخرى . وبدا هذا الشعور أكثر وضوحا كلما لاح تهديد من أعداء الإسلام فى الجزيرة العربية . فكان على أهبة الاستعداد دائماً لصد الخطر بكل ما ملكت أيديهم بل بأرواحهم .

وإذا كان المسلمون قد تفرقوا شيعاً بعد انقضاء عصر الخلفاء الراشدين وزادت فرقتهم فى العصر العباسى الثانى مما أطمع فيهم أعداءهم فعدوا على انحراف امبراطوريتهم الشاسعة . . فإنهم سرعان ما كانوا يعودون إلى ماضيهم ووحدتهم كلما تفاقم الخطر واشتد الكرب مما يدل على أن الشعور بقوة الانتماء إلى الاسلام وإلى العروبة لم يفارقوهم أبداً ، وإنما ظل كامناً حتى إذا ظهر الخطر خرج من مكمنه يواجهه ويتحداه . فهو يكمن فى الأوقات العادية ويبرز فى الأوقات العصيبة فى صورة استعداد كل فرد لوضع الأمة والواجب القومى فوق جميع الاعتبارات

للمصلحية الأخرى التى قد تخص مجموعات معينة فى المجتمع ، أى الاعتقاد والإيمان بأن المصلحة القومية فوق كل المصالح الفردية والجماعية الأخرى .

وهذا الشعور القومى فى أوقات الخطر لدى أبناء الأمة الإسلامية العربية يمثل نموذجا رائعاً بين الأمم والشعوب . فقد اطرد بوضوح فى جميع المراحل التاريخية التى اجتازها الإسلام والعروبة . والمثال لذلك ظهوره فى مواجهة خطر الغزاة الصليبيين والمغول والتتار فى العصور الوسطى والغزاة الفرنسيين والانجليز لمصر والشام فى القرنين الثامن والتاسع عشر والعدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ وعدوان يونيو سنة ١٩٦٧ .

إن الكفاح المشترك الذى تخوضه الأمة العربية بقيادة الجمهورية العربية المتحدة اليوم فى مواجهة مؤامرات الاستعمار وعدوانه إنما هو امتداد لمراحل كفاحها القديم ، هذا الكفاح الذى تعلمه المسلمون من قائدهم الأعظم ، فسرت روحه فيهم جيلا بعد جيل وكان منطلقهم إلى النصر على العدو فى كل حرب ، كما انتصر المهاجرون والأنصار على قريش وحلفائها ، كما كان منطلقهم إلى دعم الوحدة الروحية

وتحقيق الوحدة السياسية وتلك - عندنا من أهم الدروس المستخلصة من الهجرة ومن تنظيم مجتمع المسلمين فى يثرب .

القدوة فى الالتزام بالدعوة

إن قائد الجماعة - إذ يتصدى لممارسة دوره فى توعية أفرادها وتدريبهم على السلوك السوى - لن يستطيع أن يبلغ غايته ما لم يكن قدوة لهم فى هذا السلوك فمطابقة الفعل للقول هو الأسلوب الكفيل بنجاح القيادة فى مهمتها ، لأن الجماهير قد تتأثر بما يلقيه القائد من تعاليم ، وتستحوذ على مشاعرها بلاغته وحماسته ، ولكنها سرعان ما تتخذ هذه - التعاليم وتلك الموهبة الخطابية مادة للسخرية إذا تبينت أن ما ألقى إليها لا يعدو أقوالا لم تتبع بأفعال .

إن الجماهير بطبيعتها لا تؤمن إلا بالواقع المتمثل فى المواقف العملية ، أما الألفاظ المنمقة البليغة والعبارات الطنانة ، فإن تأثيرها وقتى لا يتجاوز الأذن إلى القلوب والأذهان . والخطيب الذى لا يؤيد دعوته بأعمال إيجابية عنه ، مثله لدى الجماهير كمثل المهرج أو - الممثل الهزلى الذى يرفه عنها بغرائب الحركات وترديد الألفاظ المسلية واللعب بالكلمات .

ذلك أن مناط الإيمان بما يقوله القائد هو التحقق من أنه هو نفسه مؤمن به ، ولا دليل على هـذا الإيمان إلا العمل . فالعمل هو التفسير الحقيقي للايمان، وبغيره يصبح أمراً موجوداً ولفظاً خالياً من المعنى ، فحين يدعو القائد شعبه إلى التضحية والإيثار — وما أشقهما على النفس البشرية الباحثة بطبيعتها عن مصلحتها الخاصة — يضع نفسه ودعوته موضع الاختبار أمام الناس ، فإذا طابق سلوكه قوله صدقوه وآمنوا برسالته والتفوا من حوله، واقتنعوا بمبادئه وعملوا على تحقيقها . أما إذا تناقض قوله مع فعله فإن له أسماعهم ، ولا سبيل له الى ضميرهم ووجدانهم بل ان هذا التناقض قد يؤدى الى استنكارهم له وتمردهم عليه وتصديقهم مزاعم أعـدائه وانضوائهم إلى صفوفهم ، ولسان حالهم يقول :

يا أيهـــا الرجل المعلم غيره
هـلا لنفسـك كان ذا التعليـم
ابـدأ بنفسـك فانهـها عن غيهـا

. . . .

وقديماً وصم العرب القوال غير الفعال بقولهم « شنشنة نعرفها من أخزم » . ورددوا قول القائل :

وغير تقى يأمر الناس بالتـــقى

طبيب يداوى والطبيب مريض

وقالوا مع أبى العتاهية :

وصفت التقى للناس هل أنت ذو تقى

وريح الخطايا من ثيابك تسطـــع

فالقائد الحق هو الذى يبدأ بنفسه ، فيعلمها الصبر والشجاعة قبل أن يعلم غيره ، ويدربها على السلوك الأمثل قبل أن يدرب الآخرين ، وهو الذى يضرب المثل للناس فى التضحية والفداء ويسبقهم إلى الجهاد، حتى يؤمنوا بعظمة رسالته وقوة إيمانه وسمو نفسه وأنه ينشد مصلحتهم العامة ، وليس له مأرب ذاتى من دعوتهم إلى اعتناق مثله وقيمه ، فهو أول المدافعين عنها والمضحين فى سبيلها .

إن القائد هو الذى يقوم بواجباته سواء فيما يتصل بسلوكه العام أو الشخصى من أجل تعبئة الشعب كله فى معركة تثبيت المفاهيم الجديدة والدفع إلى الأمام ، والتحذير من الانحرافات . ومن الطبيعى أن تكون عين الجماعة دائماً على رائدها وموجهها باعتباره ملهماً ومعلماً، وهى تمنحه ثقتها طالما كان أهلا لهذه الثقة ، ولا تتأتى هذه الأهلية إلا بتقديم المثل الأعلى فى السلوك ، وحينئذ يصبح القائد أجدر بالاتباع

من جماعته وأحق بالاهتداء والاقتداء به ، إيماناً منها بأن التعاليم التى يبشر بها والقيم التى يبثها ، نابعة من ضميره ، صادرة من رغبته العميقة فى خدمتهم وإسعادهم .

ومن ثم فإنه حين يدعو إلى احتمال مشقة من المشاق أو الصمود لمحنة من المحن ، يبدأ بنفسه فى ممارسة الجلد وقوة التحمل ، فيهون الأمر على أصحابه ويقبلون على الاقتداء به ، إعلاناً منهم أنهم أهل لدورهم لثقته ، كما أنه أهل لثقتهم فهو أحق بالإقناع والإنسان بطبعه يكبر القائد العظيم حين يراه فى مقدمة الصفوف عملا وجهاداً ، فيؤمن بصحة مبادئه ، ويتفاعل معه فى صدق وعزم واحترام .

ويركز القائد دائماً على الأعضاء المستنيرين فى الجماعة لكى يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، وتنجح دعوته هذه إذا قدم هو من نفسه الدليل فاقترن فعله بقوله ، فاحتذاه هؤلاء الأعضاء ، وسرى ذلك التيار الايجابى إلى سائر الصفوف .

ومن الطبيعى أن يحفل تاريخ العقيدة الاسلامية بما يؤكد هذه الأفكار ويقيم الدليل على صحتها .

فالسلوك فى سلام هو جوهر الايمان ، والقول لا يعتد به

ما لم يقوم بعمل . ومن هنا قرر الاسلام أن كل عمل عبادة ، وأضفى على كل عمل صفة تعبدية ، بل إن القرآن الكريم كلما ذكر الايمان قرنه بأداء العمل الصالح ، لجعل دأب المسلم على إنجاز العمل وإجادته وتوجيهه إلى الخير العام شرطاً لاكتمال إيمان المسلم . أما الايمان وحده بغير أن يقترن بعمل صالح يهتدى بضوء هذا الايمان فليس إلا موقفاً سلبياً لا فضل فيه.

ولقد أكد القرآن قيمة القدوة فى كثير من الآيات ، وجعل مطابقة القول للفعل واجباً على المؤمن ، ونهى عن الشقشقة بالكلام دون العمل به ، فإن ذلك يدخل فى باب النفاق . وليس أبلغ تصويراً للقوالين غير الفعالين من قوله تعالى عن اليهود فى بلاد العرب وكانوا يفتخرون بأن لهم كتاباً من عند الله هو التوراة ، وأن العرب لا كتاب لهم . ولكنهم إذ يفتخرون بالتوراة ، لم يكونوا يعملون بما فيه من أحكام الله أو يسترشدون بهديها فى الحياة ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين . قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن أنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) .

فما فائدة التوراة لليهود وهم لا يعملون بها، إنهم أشبه بالحمار الذى يحمل كتباً قيمة على ظهره ، فهل يحق له أن يفتخر بها ؟ ثم يقول الله لليهود : إن كنتم أحباب الله حقاً - كما تزعمون - فهل يسعدكم أن تموتوا الآن ، لتذهبوا إلى الله الذى تزعمون أنه يحبكم ؟ ثم يخبرنا الله أنهم جبناء يفرون من الموت، ودلالة هذا أنهم قوم أدعياء منافقون

ولما كان اقتران الفعل بالقول من سمات المؤمن الحق ، فإن الله يأمر المؤمنين بذلك ، وينهاهم عن مخالفته ، ويعدها إثماً كبيراً فيقول تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون » . ويقول سبحانه : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وكان صلى الله عليه وسلم يوصى بمطابقة العمل للقول ، وموافقة فعل الناصح لنصحه ، وقد وضع أسس ذلك فى سيرته بين أصحابه ، إذ كان يقول لهم دائماً : اعملوا كما ترونى أعمل ، وكان ينذر الذين تخالف أفعالهم أقوالهم بسوء العاقبة ، ويوعدهم بعذاب الله لهم فى الآخرة . فقد روى مسلم فى صحيحه عن أسامة بن زيد رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى بالنار فتندلق أقتاب بطنه - أى تخرج أمعاؤه عن

مكانها - فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان ، مالك ألم تكن تأمر بالمعروف - كل ما أمر الشارع باتباعه ورغب فيه - وتنهى عن المنكر - كل مانهى الشارع عنه وحذر منه - فيقول : بلى . قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه - أى لا أفعله - وأنهى عن المنكر وآتيه - أى أفعله» ويقول الرسول فى عالم انفصل سلوكه عن علمه: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفع الناس بعلمه » .

فمثل هذا العالم كمثل المريض بعلة خاصة يعلم دواءها ويصفه لمريض آخر بها ، ولا يداوى نفسه منها ، فغيره سينجو ، وهو سيهلك لامحالة . هذا إن صدق الآخر قوله واتبعه . أما لو كذبه بشاهد من عمله فقد قضى على نفسه، وعلى غيره ، فهو جان جنايتين ، ومرتكب إثمين . فلا عجب أن يجىء يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه ويطرح فى النار ، فيسأله أهل النار عن سوء منقلبه وقبح مصيره وهو الداعى إلى الخير فى الدنيا والحث على الفضيلة فى الدار العاجلة . وإذا عرف أهل النار علة قدومه إليهم ووفوده عليهم ، ومشاركته لهم فى جحيمهم - وهو إهمال العمل بما علم - حينئذ يزول عجبهم ، وينقطع تساؤلهم ، وينقضى استنكارهم لمآله وسوء عاقبته .

وروى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة أسرى بى مررت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ »

ولقد تمثلت القدوة فى أكرم معانيها فى سير الرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله من خلقه وأدبهم بأدبه الكريم فسموا فى انسانيتهم ، وصدقوا فى إيمانهم بربهم ، فعبدوه مخلصين له الدين ، وجاهدوا فى سبيله حتى علت كلمته وكانوا فى ذلك أئمة المؤمنين وقدوة صالحة : « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

وكان محمد عليه الصلاة والسلام هو المثل الأعلى فى القدوة الصالحة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » فما نطق عليه السلام بقول ولا أعلن مبدأ دون أن يلتزم به قبل أن يلزم به أتباعه.

لقد أقام مجتمع دار الهجرة على المبادىء ، واقن أصحابه ـ بالفعل مقترنا بالقول ـ قيم الإسلام ومبادئه المثلى ، وعودهم على اتباعها حتى رسخت فى وجدانهم فتقنوها الرعية ، ودربهم بالمثل الصالح على السلوك الدينى والاجتماعى والإدارى السليم . علمهم الصبر وكان هو أول الصابرين ، علمهم التواضع والتسامح والعفو وكان هو أول المتواضعين والمتسامحين والعافين عن الناس . علمهم الصدق والأمانة والمروءة والإخلاص والكرم ، وضرب بنفسه المثل لهم فى هذه المناقب جميعاً .

وكان محمد يحث الناس على الشجاعة والجهاد والتضحية بالحياة فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فكان يسبق المسلمين فى مواقف الخطر ، فيواجهها غير هياب ولا وجل ضارباً أعظم الأمثلة على أن « المؤمن لايجوز له أن يتردد أو يخاف الموت فى سبيل الله ، بل يجب عليه كلما مضى فى أمر يؤمن بأنه لله وللوطن أن يحمل حياته على كفه ، وأن يلقى بها فى وجه مايقف فى سبيله . فإما فاز وظفر فبلغ ما يؤمن به من حق الله والوطن ، وإما استشهد فكان المثل الحى لمن بعده والذكر الباقى لروح عظيم عرف أن قيمة الحياة مايضحى بالحياة فى سبيله ، وأن

الإمساك على الحياة فى مذلة إهدار للحياة ، فما يستحق صاحبها بعد ذلك فى الحياة ذكراً » .

وكان الرسول يؤكد بالقول والسلوك دعوة الإسلام إلى أن الدنيا والآخرة طريق واحد ، فالعمل للآخرة ليس معناه الانقطاع عن الدنيا ، والعمل للدنيا ليس معناه الانصراف عن العبادات . فالله تعالى يقول: « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة . ولا تنس نصيبك من الدنيا » . والرسول عليه السلام يقول : « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة ، فاستطاع ألا يقوم حتى يغرسها ، فله بذلك أجر » .

وليس أروع من هذا المثل فى تأكيد قيمة العمل ، ذلك أن فسيلة النخل لا تثمر إلا بعد سنوات ، والأجدر بالمؤمن الحق أن يغرسها ولو كانت القيامة فى طريقها وعن يقين .

ونهج النبى فى مختلف المواقف مسلكا مؤيداً قيمة العمل وكرامته وأنه نوع من العبادة ، إذ كان يعمل فى الدنيا وهو يبغى الآخرة ، ويعمل للآخرة بالسعى فى مناكب الأرض مشاركا أصحابه فى العمل مقاسماً إياهم أعباءه .

لقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها ماذا كان يعمل رسول الله

صلوات الله عليه، فقالت : « كان بشراً من البشر يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويعمل مايعمل الرجل فى بيته ، فإذا حضرت الصلاة خرج » .

وما أكثر ماروبه التاريخ عن محمد القائد العظيم فى تنظيم مجتمع دار الهجرة على أساس البدء بنفسه فى المغارم والانتهاء بها فى المغانم مما يشكل الصورة النموذجية للقدوة . لقد كان يدعو أصحابه بالمدينة إلى التعاون ويغرس فى نفوسهم قيمته بالعمل الايجابى معهم فى شئون الحياة . ومن ذلك اشتراكه معهم فى بناء المسجد بالمدينة إثر نزولهم بها كما كان يعمل بيديه فى بناء مسكنه بالقرب من البقعة التى اختارها مكاناً للمسجد ، وقد اتخذ دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى مقاماً له أثناء البناء . وكان المسلمون من المهاجرين والأنصار يشاركونه بناء المسجد والمسكن .

وفى بعض أسفاره كان أصحابه يتهيأون لإعداد الطعام ويتقاسمون العمل فيما بينهم ، فقال عليه السلام : « وعلىّ جمع الحطب » . فقال له الصحابة : « يارسول الله ، إنا نكفيك هذا » . فرفض النبى أن يعفى نفسه من العمل بيديه مع أصحابه رغم كثرة مسئولياته ، ورد عليهم

قائلا : « قد علمت أنكم تكفوننى ولكننى أكره أن أتميز عليكم » .

وكان النبي يشترك مع المسلمين فى الغزوات منذ أول معركة خاضها بعد الهجرة . ورغم ما بذله من أعباء فى تنظيم المسلمين بالمدينة ، فقد غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة كان فيها فى مقدمة الصفوف بسالة وإقداماً وتسوية بينه وبين إخوانه المهاجرين والأنصار فى احتمال الباساء والضراء ، وكان يكره أن يتميز عليهم بل كان هو أشد منهم احتمالا . ومن أروع صور هذه المساواة كما تبدو فى غزوة بدر أنه قد خرج فى أصحابه من المدينة حين لم يكن من قتال قريش بد ، وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رايتان سوداوان . وكانت إبلهم سبعين بعيراً جعلوا يعتقبونها — أى يركب الواحد البعير مدة ثم ينزل ليعقبه الآخر فيركبه — كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيراً .

وفى هذه المسيرة ضرب الرسول القائد أكمل مثال فى القدوة الصالحة أن ساوى نفسه عليه السلام بسائر أصحابه ، وجعله حظه كحظهم فكان هو وعلى بن أبى طالب ومرثد بن مرثد الغنوى يعتقبون بعيراً وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعير .

إن الجماعة تؤثر قائدها على أفرادها ، لأنه يقع منهم موقع الرأس من الجسد أو القلب من الأعضاء ، فإذا أصيب عضو وظل القلب سليما ، فلا خطر يهدد الحياة ، أما إذا أصيب القلب ، فثمة خطر عليها ولو سلمت كل الأعضاء . وسوف تظل حدة الخطر قائمة إذا افتقدت الجماعة قائدها ريثما يخلفه الرجل الثانى ، فيسير الركب فى مسيرته ، لذلك فإن الجماعة تفتدى رائدها ، وتضحى فى سبيله ، لأنها تدرك ببصيرتها أنه قوام حياتها ، فهى تكفل له وسائل الراحة ، لأنها تعلم أن ما يقدمه لها يربو على عطائها مهما بلغ ، فهو الذى يضطلع بمسئولية أعضائها جميعا وما أشدها من مسئولية لا يستطيع حملها أحد منهم ، وهى تعلم أن سعيها وجهدها فى سبيل تيسير مهمته إنما هو كسب يعود عليها ومنجاة تنعم بها فى نهاية المطاف ، وفى تقديمه تقدمها ونجاحها فى تحقيق أهدافها .

ومع ذلك فإن الرسول يأبى ، إلا أن يخص نفسه بنصيب الفرد من جماعة المسلمين المحاربين تحت علمه ، وهو يأبى ذلك مع علمه بأنه لو فعل لما تجاوز حقه ، لأن السلطة على قدر المسئولية ، ولأنه يقع على عاتقه العبء الأكبر . فهو المسئول الأول عن جنوده ، ومن ثم فله أن يستخدم من وسائل الراحة ما ييسر له مهمته الكبرى فى سبيل صالح

الجماعة . وهو يعلم أنه لو فعل ذلك لـكان فيه مرضاة المسلمين أنفسهم واستجابة لحبهم وحرصهم عليه .

بيد أن القائد الأعظم لا يقف عند هذه الاعتبارات برغم سلامتها، وإنما يؤثر اعتباراً آخر هو أهم وأخطر منها جميعاً ، وإن كان يجشم مزيداً من العناء الذى قد يصل إلى حد التضحية . ذلك هو ضرب المثل الصالح للجماعة كى يحتذيه أفرادها ، فيتوافر فى كل منهم بعض مقومات القيادة المؤمنة الناجحة وصفاتها العالية المتحررة من الأنانية ومن السلبية والتطلع إلى تحمل المزيد من المسئوليات . وهذا هو السبيل القويم لإنشاء قاعدة عريضة من الأفراد الصالحين للقيادة ، إذ تتشكل منهم صفوف من القادة الأكفاء الذين يستطيعون أن يواصلوا رسالة القائد الأول ، فيقودوا السفينة إلى مرفأ الأمان مهما اشتدت العاصفة واضطربت الأمواج .

وهذا السلوك الذى استنه الرسول نموذج لتصرف القائد العظيم فيما يعرض له من مواقف وما يواجهه من الظروف الشاقة ، فقد كان أمامه عليه الصلاة والسلام أن ينهج طريقاً من اثنين : أولهما أن ينفرد ببعير يمتطيه طول الوقت ، ولا تثريب عليه فى ذلك ، بل هو حقه لا يمارى

خيه أحد . وثانيهما أن يشترك فى امتطاء بعير واحد مع بعض أصحابه شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين . ولقد أختار الرسول الطريق الثانى وهو الطريق الصعب لأن ما ينجم عنه من فوائد للاسلام والمسلمين أكثر وأكبر مما ينجم من سلوك الطريق الأول .

ولا ريب فى أن مغزى هذا الاختيار هو حث المسلم على إيثار أخيه المسلم فيما يخصه الله به من نعم ومقاومة رغبات النفس فى الاستمتاع وحدها بطيبات الحياة ، وحثها على عمل الخير وإيثار الصالح العام على الصالح الخاص ، والمشاركة فى السراء والضراء . وهى كلها صفات مثالية توحد شمل الجماعة وتجعل أعضاءها جميعاً كأنما يخفق بين أضلاعهم قلب واحد أو كأنهم — كما قال رسول الله — بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً ، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن الحق بقوله :
« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وكان يحث أصحابه على الايثار مما جعلهم قوماً يقلون عند المغنم ويكثرون عند المغرم . والرسول الكريم يغرس هذه الفضائل فى نفوس المسلمين

من طريق القدوة الحسنة ، فهو يبدأ بنفسه فى اطراح الأنانية والأثرة واقد برأه الله تعالى منهما ، وفى ارتضاء سبيل البذل والتضحية، وقد هداه الله إليهما . ومن الواضح أن أصحابه وتابعيه إذ يرون هذا السلوك الحميد ، ينطبع فى أنفسهم فيتأثرون به ويحتذونه ، وبذلك يتحقق الهدف الذى أتجه إليه القائد الأعظم وإذا لاحظنا أن الرسول قد ضرب هذا المثال لرجاله فى مستهل مسيرته إلى معترك النضال ، أدراكنا مدى نفاذ بصيرته القيادته إذ سن قانونا للعلاقة بين جنوده بعضهم وبعض يرسى لهم تقليداً أساسيا من التقاليد الاسلامية قبل أن يخوضوا غمرات الحرب . ومن ثم تجىء هذه التعاليم فى أوانها حتى يمكن الاستفادة منها عند تنفيذ الغرض الذى اتفقت عليه الجماعة

وهكذا كانت القدوة الصالحة ، متمثلة فى المهاجر العظيم . أكبر الأسس التى بنى عليها مجتمع المهاجرين والأنصار ، وقامت أول دولة إسلامية تهدى إلى الحق ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وصدق الله العظيم .

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ».

الصبر والمقاومة

من أهم الظواهر التي تستدعي التأمل في تاريخ الحضارة البشرية اقتران الكفاح الذي خاضه الأنبياء والمصلحون بالصبر والمقاومة في مواجهة التحديات فالصبر هو الدعامة الثابتة الراسخة لقوة العقيدة وهو الزاد الذي يتزود به المناضل في مسيرته إلى تحقيق أهدافه ، وتتبين قيمة الصبر إذا لاحظنا أن القلق والتطلع والتعجل هي بعض السمات المميزة لأصحاب المطالب وبخاصة في مرحلة الشباب . ومن ثم ينبغي أن نبصر قادة المستقبل بقيمة الصبر حتى لا يتحول تعجلهم إلى رعونة واندفاع ، مما يؤدي إلى أخطاء وأضرار تعوقهم عن بلوغ آمالهم وأن تذكي في نفوسهم شعلة الطموح والإقدام مع تحذيرهم في الوقت نفسه من الجموح والعجلة

فالمفهوم الحقيقي للصبر لا يتناقض مع الطموح والاقدام، فهو سبيل لإدراك الغايات المنشودة منهما ، على حين أن الجموح يشكل عقبة في طريقهما وفيصل التفرقة بينهما أن الصبر قوة عاقلة حكيمة تجنب صاحبها الشطط وتعينه على النجاة والنجاح ، وهو دليل العقل الناضج الذي يضع الأمور في مواضعها الصحيحة .

أما الجموح أو الاندفاع فهو قوة ضالة تورد أحياناً موارد الزلل لأنها تصدر عن أهواء النفس الأمارة بالسوء المسيطرة على العقل والمنطق .

ومن ثم يدرج الحكماء الصبر فى عداد الفضائل ويعدون الجموح نوعا من الخفة والنزق ، وفقدان السيطرة على النفس ، وهى كلها باب للرذائل . والصبر قوة نفسية ، أما الجموح فهو مظهر ضعف نفسى.

ويتبين ذلك إذا ما عرضت للناس شدة من الشدائد . فأما من يملك منهم الاتزان والاعتصام ، فهو القدير على المقاومة حتى تنجلى الغمة ، وأما من يفتقد هذه الصفات فهو العاجز عن مغالبة المحن ، الضعيف فى مجابهة الأحداث ، يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات ، والأمم والشعوب ، إذا أصابتها شدة كاشتباك فى حرب مع العدو أو كارثة من الكوارث العامة ، كالآفات أو الأوبئة وغير ذلك . من المواطن التى تدعو للفزع والجزع .

ونخلص من هذا إلى أن الصبر آية على الصمود والكفاح والثقة بالنفس والتضحية فى سبيل الهدف . وهى كلها دلائل صدق الإيمان الذى يتسم به أصحاب الرسالات والأبطال والقادة . والجموح على النقيض من ذلك ، فهو دليل اختلال فى التوازن ، وجنوح إلى فقد الثقة بالنفس وضعف القدرة على التضحية . وطريق إلى الاستسلام .

كذلك فإن الصبر قاطع دليل على سعة الأفق وبعد النظر والرضى بالواقع مؤقتاً ريثما تسنح الفرصة الملائمة لتغييره ، فهو سلاح يفل قوى البغى حينما يكون من الطيش تحديها ومواجهتها بالعنف فلا يملك

المرء إلا أن يلوذ بالحكمة وضبط النفس والترقب والتأهب، مع العمل في الوقت نفسه على إعداد العدة للوثوب على القوى القادرة والقضاء عليها، متى أتيحت الظروف الملائمة وآنس المرء في نفسه قدرة على صد تلك القوى ودحرها.

ومن ثم فإن الصبر من أعظم مناقب القادة والرواد، ومن أسمى غايات التهذيب وصفات البر، وهو مظهر الإسلام النفسي والإيمان الحق والجلد والمقاومة والحرص على تحقيق الأهداف النبيلة، وهو علامة صحة نفسية وتفوق معنوي ومظهر إيجابية. والمسافة بينه وبين التخاذل والاستسلام والرضى بالواقع دون العمل على تغييره كالمسافة الفاصلة بين القوة والضعف، والفرق بينه وبين الطيش والاندفاع هو الفرق بين الحق والباطل وبين الخير والشر.

والصبر في لسان الشريعة وأئمة المتدينين على ثلاثة أوجه كما يقول الدكتور محمد سعاد جلال: أحدها الصبر على ترك الشرور والآثام، وثانيها الصبر على فعل الخيرات والمبرات، وثالثها الصبر على نزول الشدائد والتحمل لها وحسن الظن بالله تعالى في دوافعها والخلوص منها، وهذا الوجه من وجوه الصبر، وهو الصبر على نزول الشدائد، هو أقوى الوجوه دلالة على الخشوع لله تعالى والثقة به، وحسن الاعتقاد فيه والأمل في رحمته.

فقد يصبر الإنسان المؤمن على ترك الشر فيعينه على هذا النوع من الصبر ما فى الشر من قباحة وسوء عاقبة . وقد يصبر المرء على فعل الخير فيعينه على هذا النوع من الصبر ما فى الخير من صباحة وحسن مصير . فأما الصبر على زلزلة النفوس بالبأساء . والضراء فلا معوان للانسان عليه ولا طاقة له به إلا مع الاحتماء بالله تعالى والفزع إليه ، والله مع الصابرين دائماً بمعونته ونصره وتأييده . والصابرون من الناس أعلى درجة وأسمى منزلة من غيرهم ، وهم يدرجون فى عداد المجاهدين ، لأن من طبيعة البشر إلا من عصم الله ، أنهم يفرحون إذا ما أوتوا نعماً : من مال ، أو ولد ، أو صحة ، أو جاه . فاذا ما أصيبوا بنقمة منها تألموا وانزعجوا ، ويئسوا من رحمة الله ، وقد ينصرفون عن إخلاصهم لله :

« وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون » « إن الانسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا »

لهذا حث الاسلام على الصبر ووضعه فى مصاف الفضائل والمناقب التى يتصف بها المؤمن ، وأفرد له منزلة خاصة بين الصفات التى يجب أن يتخلق بها المسلم . ولقد ورد الصبر فى كثير من آيات الله البينات دلالة على أنه فضيلة أساسية فى الاسلام . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين » « واصبر وما صبرك إلا بالله » « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » « وتواصوا بالحق

وتواصوا بالصبر» «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» «ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون» «والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس»

وليس أدل من ذكر الصبر مقرونا بالصلاة فى أكثر من آية من آيات الذكر الحكيم على أنه فضيلة أساسية فى الشريعة وعلى ارتفاع هذه الفضيلة الى مستوى القيم الروحية والأخلاقية فى الإسلام مثل الحق وهى كلها طريق النجاة والفلاح . والله تعالى يقول : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) وتفيد هذه الآية أن الله جعل الصبر وسيلة لبلوغ الصابرين منزلة الإمامة، والقيادة فى الناس . وأنهم حين يبلغون هذه المنزلة يهدون الناس بهداية الله ، ويدعونهم لمعرفة وجود الله ، والعمل بشرعه ، فهم أئمة صالحون ، لا دعاة سوء ولا دعاة فجور .

فالصابرون قادة ، وقادة الى الحق وإلى الله، وبيان ذلك أن أكبر معانى الصبر المقصود ضبط النفس عن الشهوات واحتمال المصاعب فى سبيل الهدف . فإذا تمكن الشخص من قمع شهواته فصار مسلطا عليها ، لا سلطة عليه ، قوى عزمه ، واشتدت إرادته ، وصفت روحه فاستنارت بصيرته وصحت فراسته ، ومال للعلم ، فتحقق له بذلك وسيلة المعرفة . واذا راض مزاجه على احتمال المصاعب وأراد نفسه على استساغة الحلو والمر من الخلائق والأشياء ، قويت نفسه فصارت قادرة على الاقتحام ، بينما لا تنال من صلابتها الهزائم . وإذا اجتمع لأى إنسان كمال المعرفة وكمال القدرة ، فقد تحقق له الشرط الوحيد ،

ولا شرط ســـواه ، لبلوغ منصب القيادة الهادية إلى الله المنزهة عن شوائب الجور والانحراف .

والرسول عليه السلام هو القدوة العظمى فيما يتحلى به القادة من فضيلة الصبر ، فبالصبر احتمل أذى قريش وأعوانهم من أهل الشرك والضلال ، وبالصبر شق طريقه مؤمناً بالله ، صادعاً برسالته ، وبالصبر قاد المسلمين إلى النصر ، وفتح بهم مكة ثم أهلهم لنشر مبادىء الإسلام وحضارته فى مشارق الأرض ومغاربها .

وكان الصبر فى مقدمة الفضائل التى غرسها الرســول فى نفوس أصحابه بالقول والفعل . وفى الحديث الشريف ، عن صهيب الرومى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن ،إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

وفى الحث على ضبط النفس واطراح الغضب والتزام الصبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » فالصبر قوة ، والغضب ضعف . لا ينبغى المؤمن أن يتصف به .

وعن جابر بن قدامة أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قل لى قولا ، وأقلل ، لعلى أعيه ، قال : « لا تغضب » فأعاد عليه مراراً كل ذلك وهو يقول : « لا تغضب » .

ومغزى الحديث الشريف أن تسلط الغضب على النفس من أكبر شرور الأخلاق ، التى يصاب بها السيئو الحظ من الناس ، فإن أكثر خسائر المرء فى دنياه وأفدحها قلما تنال إلا بسبب طواعيته لشيطان الغضب الذى يستولى على عقله ، فيمنعه عن إدراك التصرفات الملائمة فى المواقف المثيرة التى تفرض على الشخص المتعقل أن يعتصم بهذا النوع من التصرفات المانعة لصاحبها عن التردى — وهو لا يكاد يشعر — فى أسباب التهلكة .

إن القدرة على ضبط النفس — واستيفاء ضياء العقل عند هجوم عناصر الاستفزاز والإثارة على النفس هما كما يقول الدكتور سعاد جلال فى موضع آخر : أساس تكوين الشخصية القيادية المنتصرة التى تعيش معركة الحياة ، بأقل ما يقدر من الخسائر . ولذلك اقتصر النبى فى وصيته للسائل على ترك الغضب ، ولم يزد على ذلك فى جواب سؤاله المتكرر . ليتفطن الإنسان المسلم إلى أن ترك الغضب حكمة الدين والدنيا .

وكما حذر الرسول من مغبة ضعف السيطرة على النفس ، بشر الصابرين القادرين على كبت غرائزهم ومحاربة أهوائهم وتحمل العناء

والأهوال بأن لهم أجر المجاهدين ، لأن مغالبة نزعات النفس فى السلم لاتقل شأناً عن مجابهة الأعداء فى الحرب بل إنها تكبرها ، وفى ذلك يقول رسول الله : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» .

ولا يعرف التاريخ أمة صابرت البأساء والضراء لائذة بالله تعالى وثوقاً بجميل عونه كما يعرف بهذه الخصائص أمتنا الإسلامية ، وهى لم تكن كذلك لأنها أكرم الخلق عنصراً ولا أتم الناس خلقة ، ولكنها كانت كذلك لأنها تربت فى كفالة الإسلام وحسن رعايته وجميل توجيهه . وقد نرى صابرين على الضر تضرب الأمثال بتجلدهم واصطبارهم ، غير أن دعائم الصبر عندهم تقوم على الاستهانة وعدم الاكتراث ، وهؤلاء لاتعتز بهم أمم ولاتنتفع بهم شعوب ، وربما رأينا صابرين على الضر لاتقوم دعائم صبرهم على الحقد والتربص ، وهؤلاء يمثلون دائماً مسعر فتنة ونذير بلاء ، وبهم دائماً تتراجع الخطا الخيرة إلى التقويم والصلاح . فأما الصبر الذى تقوم دعائمه على اللجوء إلى الله تعالى والاستعانة به والالتفات إلى جزيل رحمته وجميل معونته بعيداً عن الحقد الهادم ، والتربص الآثم ، فهو الصبر الذى أمر الله تعالى به ودعا المؤمنين إليه ، وقرن الصلاة به ؛ ثم هو بعد هذا الصبر الذى يزامل الشكر فى حياة المؤمن حتى ينتهى به إلى خير الدنيا والآخرة .

ولقد استقرت فضيلة الصبر فى الأمة الإسلامية إبان العصر الأولى

للاسلام ، عصر الفتوحات والانتصارات التاريخية ، فلما نكب الإسلام بالشعوبيين وأعداء الإسلام زينوا التخاذل والتوا كل للناس وألبسوه ثوب الصبر ، والصبر منه براء ، فكانت النكثات والهزائم . إلى أن قيض الله للاسلام قادة مصلحين من أبنائه بينوا للناس المفاهيم الحقيقية للشريعة الإسلامية ، وأوضحوا لهم أن الصبر عدة للانتصار وسلاح لتحقيق الآمال. وما أحرانا أن نبث قيمة الصبر الحقيقية فى نفوس الطلائع من شبابنا فى تلك المرحلة الحاسمة من تاريخنا التى تتطلب ضبط النفس وقهر الشهوات والارتفاع بالصبر إلى مستوى القيم الإسلامية .

ولقد تمت الهجرة بنجاح بفضل ما آتاه الله رسوله وصحبه من فضيلة الصبر بمضمونه الإيجابى الذى يعنى المقاومة والنضال والكفاح والتضحية ، فكان اصطبارهم هذا عدة للانتصار وسلاحاً لتحقيق الآمال .

التعاون والإخاء بين القيادة والقاعدة

يقاس نجاح القيادة بمدى قدرتها على كسب رضاء القاعدة الجماهيرية عنها وولائها لها ، ولا يتأتى لها ذلك إلا ببذل المزيد من الجهود لإنجاز الرسالة التى ائتمنها عليها الشعب وهى تحقيق الصالح العام . ويجمع الباحثون فى جوهر القيادة ومقوماتها وعوامل نجاحها على أن التقاء القادة بالشعب هو أقوم الطرق المؤدية إلى تعاون مختلف

الفئات فى سبيل صلاح المجتمع وتقدمه ، ذلك لأن القائد لن يستطيع بمفرده – مهما أوتى من موهبة ومقدرة – أن يقيم صلاح المجتمع على أسس راسخة وطيدة وأن يتغلب على جميع المشكلات التى تعترض طريقه .

إنه لا يستطيع وحده أن يبنى وطنه أو يبشر عقيدته أو يُحوِّل مجتمعه ، وإنما يستطيع بالجماهير وحدها أن يغير واقعها وأن يشكل مستقبلها ، وأن يُحيل الأهداف والأمانى إلى واقع حى . كذلك فإن الجماهير ليس فى وسعها أن تحقق أهدافها فى إقامة العدل والمساواة والرخاء مالم يكن لها دليل يحدوها إلى هذه الغاية .

فكل جماعة من الناس فى حاجة إلى قائد ينظمها ويوجهها ويرشدها ، كما أن القائد فى حاجة إلى معاونة كل فرد فى الجماعة . ولقد أدرك الناس بالبداهة منذ فجر تاريخ الحضارة أنه لا يمكن أن يرتفع بناء إلا على أساس ثابت متين ، وقديما قال الشاعر العربى :

البيت لا يبنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

وأساس بناء المجتمع هو تعاون أفراده جميعاً على اختلاف مستوياتهم ، وشعور كل منهم بحاجته إلى الآخر ، وإيمانهم بأن الواحد للكل والكل للواحد .

فالرئيس أو القائد يمثل الرأس بالنسبة إلى الجسد ، وموقعه من الجماعة موقع القوة المفكرة والطاقة الدافعة . أما بقية أفراد الجماعة

فهم بمثابة أعضاء هذا الجسد ، فلا غنى له عنها ولا غنى لها عنه .

ومن ذلك يتبين أن المجتمع الصالح هو الذى يتآلف فيه كل أعضائه ابتداء من الصف الأول حتى الصف الأخير ، ويتحدون فى نظام منسق ويعملون فى تعاون تام ، فلا تنافر ولا تضارب بينهم ، وإنما وحدة قوية متماسكة . على أن مهمة توفير هذه الوحدة وذلك التناسق إنما تقع على عاتق رئيس الجماعة ، لأنه على قدر السلطة تكون المسئولية ، ولأنه بحكم ثقة الأفراد فيه وتفاعله معهم وقدرته على التأثير فيهم ، وما يملك من مواهب وخبرات وسلطة ، يستطيع رسم الطريق الصحيح الذى يسلكه المجتمع ، ، وتهيئة أفراده وتدريبهم على السير فى هذا الطريق وممارسة العمل الجماعى المثمر .

وتثبت الدراسات المقارنة لتاريخ المجتمعات والحضارات الإنسانية أن المجتمع الإسلامى فى دار المهجر كان مجتمعاً مثالياً فى تماسكه وتعاونه ووحدته بفضل القيادة الرشيدة الواعية . وقد كان النظام الإسلامى أفضل الأنظمة السياسية والاجتماعية التى حققت أهدافها فى جميع الميادين بما أتيح له من قادة مستنيرين استطاعوا أن يلتقوا بالقاعدة الشعبية ويرفعوها إلى أعلى المستويات كفاية وأمناً وعدلا .

ولقد تمثلت فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم صفات القائد ومناقبه وتوافرت فى خلفائه وسائر صحابته المؤهلات اللازمة

للقيادة الحكيمة ، فقيض الله على أيديهم رفعة الإسلام وازدهار حضارته فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأنجبت الأمة الإسلامية فى عهودها الزاهرة أفضل القادة على مدار التاريخ فى مختلف مناحى الحياة من دين وسياسة واجتماع واقتصاد ودبلوماسية وحرب وغير ذلك من الميادين ، هؤلاء القادة الذين أثروا وجدان العالم أحقاباً طوالا بآيات من العقيدة والفلسفة والآداب والعلوم والفنون ، ومازالت مبادئهم وتعاليمهم قادرة على هداية الناس إلى مافيه صلاح الانسانية ورقيها .

والتعاون الإيجابى بين القمة والقاعدة نتيجة لالتقائهما وتبادل الثقة بينهما هو أول أسباب النجاح الذى أحرزه هؤلاء القادة كل فى ميدانه ولقد بنى هذا التعاون على أساس إيمان الجماعة بقائدها وولائها له . ولم يكن هذا الإيمان ليتحقق حتى يصبح ركيزة أساسية للتعاون لولا ما أوتيه القائد فى المجتمع الإسلامى من خصائص عديدة تتصل بالفكر والسلوك وتميزه عن غيره وفى مقدمتها الإيمان بالتعاون سبيلا لإنجاز الرسالة . وتعاون القيادة مع القاعدة فى سبيل تنفيذ الهدف المشترك فرع من أصل عام فى الإسلام هو مبدأ التعاون بين الناس جميعا لتحقيق مصلحتهم . يقول الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وإذا كان الناس إخوة فى الإنسانية بحكم نشأتهم الأولى من نفس واحده ، فإن المؤمنين أخوة فى العقيدة والإنسانية معاً :

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ .

ومن ثم فإن التعاون بينهم توثيق لأسمى الروابط وأقدسها . والله تعالى يخاطبهم بقوله :

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ، ولاتعاونوا على الاثم والعدوان﴾ .

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ .

فالمؤمن الحق جندى فى كتيبة الله ، يلتحم بالروح مع شركائه فى الجهاد وفى الحرب ، فهو ينكر ذاته ويضحى بجهوده بل بدمه فى سبيل المبدأ الذى اعتنقته الجماعة والهدف الذى التقت عليه . وأولى خطوات هذا الايثار هو التعاون ، ومظهره المشاركة فى العمل وتقاسم الأعباء ، والتضامن فى السراء والضراء والمبادرة إلى النجده حين اليأس ، وعدم التكالب على المغانم فمن سمات الجماعة المؤمنة أنها تكثر عند المغرم وتقل عن المغنم كما قال رسول الله ولقد عبر الرسول عن تعاون المؤمنين فى أبدع صورة حين قال :

« مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وفى صورة رائعة أخرى عن هذا التعاون يقول رسول الله :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

ويتجلى التعاون والاخاء فى مواقف كثيرة تنبىء عنها الاحاديث النبوية . ومن ذلك أن رجلا سأل الرسول عليه السلام : أى الاسلام خير ؟ فقال :

« تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

ومن صور التعاون قوله صلى الله عليه وسلم :

« المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه . من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة » .

فليس ثمة حافز المسلم على التعاون مع أخيه المسلم ومحضه المحبة خالصة أجل من رضا الله عنه ومعاونته له فى الدنيا والآخرة . والتعاون هو آية الايمان الكامل ، وفى ذلك يقول الرسول :

« لايكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وفى أول خطبة ألقاها فى المدينة قال :

« من استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشقة من تمر فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها » .

وفى خطبته الثانية قال : « أعبدوا الله ولا تشتركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، واصدقوا الله صالح ماتقولون ، وتحابوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكث بعهده » .

إن الاسلام هو دين المحبة والتراحم والسلام . والتعاون بين الناس فى قضاء حاجاتهم هو السبيل إلى شيوع هذه القيمة وتعميقها فى نفوسهم وتقوية شعورهم بالترابط الانسانى الذى يجمع بين أفراد الجماعة برباط التعاطف والتكافل والايثار . ولقد شرع الله العبادات لتهذيب النفوس والارتقاء بها فى مدارج الانسانية ، حتى يصبح الناس جميعا متآخين متحابين متعاونين يشعر كل منهم بشعور الآخرين من بنى قرابته وأفراد جماعته وإنسانيته ، فيعين المستعين به منهم ، ويقضى حاجة المحتاجين .

فإذا ما استقرت قيمة التعاون فى النفوس ، تحقق التكافل الاجتماعى وهو حجر الزاوية فى بناء المجتمع الاسلامى وسر تماسكه وقوته ، وغلبته على أعدائه ، وانتشار عقيدته بما تحمله من مثل عليا لهداية البشرية إلى طريق الخير والحق.

ذلك هو مضمون الوحدة والتعاون فى الاسلام وتلك هى معانيه التى طالما نادى بها النبى فى مكة وغرسها فى نفوس أتباعه . وإذا كان مجتمع المسلمين فى مكة قد قام على الوحدة والاخاء والصبر على

المكاره ، فإن مجتمعهم فى المدينة فى حاجة إلى مثل هذه الوحدة لمواجهة الأعداء والنصر عليهم .

وإذا كانت قريش وحلفاؤها تستهدف غاية واحدة هى وحدة الإسلام ، وتقف فى صف واحد لتحقيق هذا الهدف ، فإن وحدة المسلمين هى الأقوى ، لأنها تقوم على القيم والمبادىء لا للمصالح المادية ولأنها نابعة من إيمان قوى أما قريش فلا يجمعها إلا الرغبة فى الإبقاء على نظامها القائم على الظلم والاستعباد ، على حين تنخر فى عظامها المتناقضات . ومن ثم ، فإن إرادة المسلمين هى الأقوى ، لأنها وراءها عقيدة تعتبر الاستشهاد فوزاً ، فلا تهرب من الموت بل تقبل عليه مستهينة بالروح دفاعاً عن النفس والوطن والعقيدة .

وتحفل بهذه المعانى سيرة الرسول والمسلمين فى دار الهجرة فقد التحمت القيادة والقاعدة التحاماً عضوياً كما نعبر بلغة العصر مما يرجع إلى تعاونه عليه السلام مع المهاجرين والأنصار ومشاركتهم شئونهم وإسهامه فى حمل أعبائهم إذ كان يتحمل مسئوليات القيادة ، ويشارك فى الوقت نفسه القاعدة فى مهامها مهما كلفه ذلك من عناء . وكان يبذل جهده فى أوقات السلام كما يبذله فى الغزوات . وحسبنا أن نتمثل هذا التعاون المثالى فى مشاركته رجاله فى حفر الخندق يداً بيد حين أحاطت بالمدينة جيوش قريش وحلفائها من أعداء الإسلام .

فكان يرفع التراب ويستخدم مع المسلمين آلات الحفر من مساحي «مجارف» وكرازين «فؤوس». وكان من أثر هذه المشاركة أن اندفع المسلمون في العمل بأقصى طاقاتهم، وقد شجعهم فعل رسول الله أعظم التشجيع وضاعف من جهودهم. وبهذا الدأب والجهد المتصل تم حفر الخندق في ستة أيام. وكان حصناً حصيناً للمدينة وقاها شر العصبة الباغية التي كانت تتربص بمحمد وأصحابه الدوائر.

ولقد كان الرسول بتصرفاته وأعماله المثل الأعلى فيما دعا إليه من إخاء بين الحاكم والمحكوم في المجتمع الذي أقامه بالمدينة، إخاء يحقق غاية البر والرحمة دون ضعف أو استكانة. وقد بلغ إخاؤه عليه السلام أسمى صور الكمال. فكان يأبى أن يظهر في أي مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرياسة. وكان يقول لأصحابه:

«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله»

وخرج على جماعة من أصحابه متوكأ على عصا، فقاموا له، فقال:

«لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً».

وكان إذا بلغ في مسيرة أصحابه جلس منهم حيث انتهى به المجلس. وكان يمازحهم ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين،

ويعود المرضى فى أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف من صلاته وسأل عن حاجته ، فاذا فرغ عاد إلى صلاته . وكان يخدم نفسه ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس والمسكين . وكان إذا رأى أحداً فى حاجة آثره على نفسه وأهله وقد وصفه الله وأهل بيته بقوله تعالى :

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وقد اتسعت جوانب هذا الاخاء فى الله ، فشمل الذين اتصلوا به جميعاً . فبادله المهاجرون والأنصار حباً بحب ، وسارعوا فى كل موقف إلى إثبات ولائهم وإخلاصهم له وتضحيتهم بالنفس فى سبيل نجاته . ومن أروع المواقف الدالة على عظيم محبة المسلمين لنبيهم أن المسلمين حين نزلوا بدراً واستعدوا للمعركة وبنوا حوضاً على الماء ، أشار سعد بن معاذ قائلا :

« يا نبى الله ، نبنى لك عريشاً تكون فيه وتعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فان أعزنا وأظهرنا على عدونا كان ذلك مما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا . فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم . ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك » .

فكان الهدف من بناء المسلمين العريش للنبى أنه إذا لم يكن النصر فى

جانبه وجانب أصحابه، لم يقع في يد عدوه واستطاع اللحاق بأصحابه في يثرب

إن المسلمين كانوا يعلمون أن قريشاً تفوقهم في العدد وأنها ثلاثة أمثالهم، ومع ذلك اعتزموا الوقوف في وجهها وقتالها. ولقد فاتتهم الغنيمة بانقلاب أبي سفيان ونجاة عيره. ولكنهم قاموا إلى جانب النبي يؤيدونه ويعززونه دون حافز من كسب مادي، وإنما هو حب رسول الله الذي تمكن في قلوبهم لقاء إخائه ورعايته لهم ممتزجاً بإيمانهم برسالته.

وحين دارت الدائرة على المسلمين في غزوة أحد بعد مخالفة الرماة أمر النبي، وأخـــذ خالد بن الوليد مكانهم، وتفرقت الصفوف، فازدادت الفوضى، وتفاقمت المحنة، واختلف المسلمون، وكان أكبر هم المحارب المسلم أن ينجو بنفسه إلا من عصم الله من أمثال علي بن أبي طالب، صاح صائح بالناس: إن محمداً قد قتل، وما لبثت قريش حين علمت بقتل محمد أن تدافعت تدافع السيل من الناحية التي كان فيها النبي، وكل يريد أن يكون له في قتله أو التمثيل به ما يفخر به. هنالك أحاط المسلمون القريبون بنبيهم الحبيب يدفعون عنه ويحمونه، وقد عاد الإيمان فملأ نفوسهم وملك قلوبهم، وحبب إليهم الموت، وهون عليهم الحياة الدنيا، فداء الرسول الذي هداهم إلى دين الحق، وقادهم على طريق العزة وأسر قلوبهم بإخائه وزادهم إيماناً واستماتة أن رأوا

الحجارة التى تقذفها قريش قد أصابت النبى ، فوقع لشقه ، فأصيبت رباعيته ، وشج فى وجهه ، وكلمت شفته ، ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته ، ولـكن الله أراد نجاة النبى وأصحابه فعادوا إلى المدينة .

ومن أجل مواقف استماتة المؤمنين فى الدفاع عن رسول الله فى فى تلك المحنة ، موقف أم عمارة الأنصارية ، وكانت قد خرجت أول النهار ومعها سقاء فيه ماء تدور به على المسلمين المجاهدين تسقى منهم من استسقى فلما انهزم المسلمون ، ألقت سـقاءها واستلت سيفاً ، وقامت تباشر القتال ، تذب عن محمد بالسيف وترمى عن القوس حتى خلصت الجراح إليها . وموقف أبى دجانة إذ جعـل من نفسه ترساً دون رسول الله ، فحنى ظهره والنبل يقع فيه . وموقف سعد ابن أبى وقاص إلى جانب النبى يرمى بالنبل دونه والنبى يناوله النبل ويقول له : ارم فداك أبى وأمى .

بل لقد بلغ حب المؤمنين رسولهم وإيمانهم برسالته حداً يفوق الطبيعة البشرية فيما تقدر عليه من الفداء والتضحية ، فإن الذين ظنوا أن النبى قد مات ومن بينهم أبو بكر وعمر كانوا قد انتحوا الجبل وألقوا بأيديهم فرآهم أنس بن النضر فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول

الله قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل القوم فقاتل قتالا شديداً وأبلى بلاء منقطع النظير، حتى أنه لم يقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة، وحتى أنه لم يعرفه أحد إلا أخته، عرفته من بنانه.

تلك صور ومواقف من التعاون والإخاء بين القيادة القاعدة بين القائد الأعظم للبشرية وبين جماعة المؤمنين من المهاجرين والأنصار في دار الهجرة، إخاء في العقيدة وفي العقل بين القائد وبين كل فرد في القاعدة، وتعاون قوامه: الفرد للجماعة، والجماعة للفرد. فلا عجب أن تكون روح الاخاء والتكافل هي حجر الأساس في بناء مجتمع المدينة، وإنشاء أول دولة إسلامية، وغرس البذور الأولى للحضارة الاسلامية التي أنجبت للانسانية أعظم قادتها ومصلحيها وعلمائها وحكمائها.

وقع خطأ في ترقيم كتاب «الدعاء» من السلسلة، وصواب رقم الكتاب هو: السابع والعشرون.

ورقم كتاب الهجرة هو: الثامن والعشرون.

المشرف العام على سلسلة البحوث الاسلامية ومطبوعات المجمع

فاروق محمد السيد غنام

فهـــرس

رقم الايداع ٢٥٣٥ / ١٩٧١